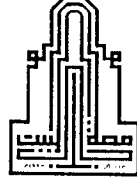


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بامعة آل البيت
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

رسالة ماجستير بعنوان:

أدب حكام العرب في العصر الجاهلي

The Literature of the Arab Arbitrators

In AL – Jahiliyah Era.

إعداد الطالب:

صالح طه محمد العجلوني

الرقم الجامعي: ٠١٢٠٣٠١٠٠٢

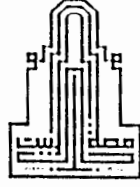
إشراف:

الدكتور محمد موسى العبسي

العام الجامعي

٢٠٠٣/٢٠٠٤م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



رسالة ماجستير بعنوان:

أدب حكام العرب في العصر الجاهلي

**The Literature of the Arab Arbitrators
In AL – Jahiliyah Era.**

إعداد الطالب:

صالح طه محمد العجلوني

الرقم الجامعي: ٠١٢٠٣٠١٠٠٢

إشراف:

الدكتور محمد موسى العبسي

التوقيع

نساء لجنة المناقشة

(مشرفاً ورئيساً)

محمد موسى العبسي

(عضواً)

محمد محمود الدروبي

(عضواً)

عبد الرحمن محمد الهويدي

(عضواً)

. أنور أبو سويلم

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في

لغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة آل البيت.

نوقشت وأوصي بإجازتها/ تعديلها/ رفضها بتاريخ: ٢٠١٦/٦/٢٢م

الإهداء

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ الكهف/ ١٣

- إلى الذين سيطروا بدمائهم وصبرهم وتضحياتهم صفحات رائعة من البذل والعطاء والصمود...
- إلى الذين تمردوا على ثقافة الهزيمة والخذلان والاستسلام، وأبوا إلا أن يكونوا لوطنهم وأمتهم ودينهم...
- إلى الكواكب المضيئة في سماءنا المظلمة البائسة... يتألقون إباءً وعزة وشموخاً...
- إلى الذين لبوا نداء الواجب حين صُمّت الآذان، فهبوا يدفعون عن الوطن غوائل الشر والعدوان...
- إلى الأحرار في زمن الانكسار... الصامدين في زمن الاندحار...
- إلى المنسين - ظلماً وتقصيراً - خلف حدود الزمن...
- إلى أسرانا الأردنيين الأبطال، القابعين في زنازين القهر النازي الصهيوني، وفي مقدمتهم شقيقي الأحب، وتلميذي الأنجب، وصديقي الأوفى... عميدهم، والمتحدث باسمهم... سلطان....

إليكم أيها الأبطال الرجال أهدي هذا الجهد

أبو سلطان

شكر وامتنان

أما وقد أضحت هذه الدراسة حقيقة واقعة، وقامت على ساقها بعدما كانت مجرد فكرة، فإن الواجب يقضي بإسداء الشكر لمستحقه، ورد الفضل إلى أهله، إدراكاً وإيماناً بأن من لا يشكر الناس لا يشكر الله.

إن الباحث مدين بالشكر إلى جميع الأساتذة الأفاضل في قسم اللغة العربية بجامعة آل البيت الزاهرة، الذين لم يخلوا عليه وزملائه بشيء من وقتهم وجهدهم وعلمهم، ويخص منهم الأستاذ الدكتور شكري الماضي الذي كان معلماً وأباً وصديقاً ومرشداً فجزاه الله خير الجزاء، كما يخص الدكتور محمد الدروبي رئيس القسم بوافر الشكر والتقدير، فقد كان لملاحظاته وتوجيهاته واهتمامه أطيب الأثر وأعظم الفائدة.

أما الدكتور محمد موسى العبسي (المشرف على هذه الدراسة)، فإن له من الفضل على البحث والباحث ما أقف بإزاء تقديره عاجزاً، فقد رافق الدراسة منذ بدايتها، يقيم أودها ويقل عثرتها، وأسبغ عليها من غزير علمه، وحسن دأبه وتوجيهه ومثابرتة، وتعهدها بالرعاية والعناية والاهتمام؛ فله الشكر موصولاً، والتقدير دائماً، والاحترام والمحبة ما حييت.

وإلى الأساتذة الأجلاء، والعلماء الفضلاء أعضاء لجنة المناقشة، أزجي شكري الجزيل لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة ونقدها وتوجيه صاحبها إلى مواطن الزلل والضعف، وتعزيز ما فيها من مواقع الرضا والقبول - إن وجدت - ، مؤكداً لهم أن ملاحظاتهم القيمة سوف تلقى الاحترام والاهتمام والامتنان.

كما لا يفوتني أن أنقدم بشكري إلى كل من وقف إلى جانبي وساندني عبر رحلتي في هذا البحث، وأخص والديّ العزيزين الذين كان دعاؤهما المتواصل خير معين يمدني بالعزيمة والمثابرة والتصميم على مواصلة الجهد، وكذلك جميع إخواني وأخواتي.

وإن أنس فلا أنسى أفراد عائلتي (منى وإيمان وسلطان)، الذين صبروا وضحووا، وهياؤوا لي أفضل الظروف للبحث والتحصيل.

إلى هؤلاء جميعاً شكري ومحبي.

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
- الغلاف	أ
- الإهداء	ب
- الشكر	ج
- قائمة المحتويات	د-ز
- الملخص باللغة العربية	ح
- المقدمة	١
الفصل الأول	٣
- تمهيد وتعريف.	٤
- الحكم و التحكيم في اللغة العربية.	٨
- مكانة حكام العرب في الحياة الجاهلية:	١١
١- المكانة الاجتماعية:	
أ- زعامة القبائل.	١٢
ب- قيادة الجيوش والقوافل التجارية.	١٤
ج- الوفادة على الملوك.	١٥
د- الاعتراف بفضلهم وإكرامهم.	١٧
٢- المكانة الدينية.	٢١
٣- تكريمهم في الإسلام.	٢٢
٤- المكانة الأدبية.	٢٤
- أهم مصادر دراستهم:	٢٨-٢٦
أ- كتب المختارات والدواوين.	٢٦
ب- كتب الأدب والمعارف العامة.	٢٧
ج- كتب التاريخ والتفسير والسيرة النبوية.	٢٧
د- كتب التراجم والسير والأنساب.	٢٨
هـ- المعاجم وكتب اللغة.	٢٨

٥٦-٢٩

- أبرز الحكام:

- ٢٩ - أفعى نجران الجرهمي.
- ٣٠ - الأقرع بن حابس التميمي.
- ٣٢ - أكثم بن صيفي التميمي.
- ٣٣ - أمية بن أبي الصلت الثقفي.
- ٣٤ - أنس بن مدرك الخثعمي.
- ٣٥ - حاجب بن زرارة التميمي.
- ٣٦ - الحارث بن عباد البكري.
- ٣٨ - حرب بن أمية القرشي.
- ٣٩ - الحصين بن الحمام المري.
- ٤٠ - ذو الإصبع العدواني.
- ٤١ - ربيعة بن حذار الأسدي.
- ٤٢ - سنان بن أبي حارثة المري.
- ٤٣ - سويد بن الصامت الأوسي.
- ٤٤ - ضمرة بن ضمرة النهشلي.
- ٤٥ - عامر بن الظرب العدواني.
- ٤٧ - عبد الله بن جدعان التميمي (القرشي).
- ٤٩ - غيلان بن سلمة الثقفي.
- ٥٠ - قس بن ساعدة الإيادي.
- ٥١ - معاوية بن مالك (معود الحكماء).
- ٥٢ - هاشم بن عبد مناف.
- ٥٣ - هرم بن قطبة الفزاري.
- ٥٥ - هند بنت الخس الإيادية.
- ٥٦ - يعمر بن عوف الكناني (الشداخ).

١٠٨-٥٩

الفصل الثاني/ أدب حكام العرب: دراسة موضوعية.

٩١-٦١

أولاً: موضوعات الشعر:

٦٨-٦١

أ- شعر الحرب:

٦٢	▪ وصف المعركة.
٦٣	▪ الفخر.
٦٥	▪ التباهي بالنصر.
٦٧	▪ وصف أدوات المعركة.
٦٩	ب- شعر المنافرات والمناظرات والمفاخرات.
٧٦	ج- شعر الحكمة والوصايا.
٨٥	د- أغراض شعرية أخرى.
١١٨-٩٢	ثانيا: موضوعات النثر:
٩٤	أ- الخطب.
١٠٠	ب- المنافرات والمناظرات.
١٠٣	ج- الوصايا.
١٠٨	د- الحكم والأمثال.
١٩٠-١١٩	الفصل الثالث/ أدب حكام العرب: دراسة فنية.
١٧٣-١٢٠	أولا: الشعر:
١٢٠	أ- بنية النص الشعري:
١٢٠	- المقدمة.
١٢٧	- التلخيص
١٣١	- الخاتمة.
١٣٣	ب- اللغة.
١٣٦	ج- الصورة الفنية.
١٤٤	د- الملامح الأسلوبية.
١٤٧	هـ- المحسنات البديعية:
١٧٣-١٥١	- الموسيقى:
١٦٨-١٥٢	- الموسيقى الخارجية:
١٥٢	- الأوزان.
١٥٩	- القافية.
١٦٩	- الموسيقى الداخلية.

ثانيا: النشر:

١٧٤ - ١٩٠

١٧٤

أ- بنية النص النثري:

١٧٤

١- الخطب.

١٧٧

٢- الوصايا.

١٨٠

٣- الحكم والأمثال.

١٨١

ب- اللغة.

١٨١

ج- الملامح الأسلوبية.

١٨٧

د- المحسنات البديعية.

١٩١

- الخاتمة.

١٩٣

- قائمة المصادر والمراجع.

- الملخص باللغة الإنجليزية.

الملخص

تتناول هذه الدراسة أدب حكام العرب في العصر الجاهلي؛ وحكام العرب هم فئة من الناس امتازت بصفات أهمها الذكاء والحلم وسعة المعرفة والإطلاع، والإحاطة بأحوال العرب وتاريخهم وأيامهم وأحسابهم وأنسابهم؛ ولذلك فقد لجأ إليهم الناس للنظر فيما يقع بينهم من خلافات ومشاحنات ومنافرات، فكانوا يجلسون للحكم في هذه القضايا، وكان لكل قبيلة حكم يتحاكمون إليه؛ إذ لم يكن هناك أي نظام قضائي يتيح للمتخاصمين الفصل فيما يختصمون من أجله، وذلك بسبب طبيعة الحياة الجاهلية التي تعتمد على التنقل طلباً للمرعى والماء.

وبالإضافة لما كان الحكام يمتازون به من ذكاء ونبل وكرم وزعامة، فقد برز من بينهم عدد من الشعراء والحكماء الذين تحفل كتب الأدب والتاريخ بأثارهم الأدبية من شعر ونثر، وهذا ما تنوي الدراسة البحث فيه من خلال التعرف إلى حكام العرب، ثم دراسة أثارهم الشعرية والنثرية دراسة موضوعية وفنية.

تتكون الدراسة من ثلاثة فصول، تم تخصيص الأول منها للتعريف بمفهوم التحكيم في اللغة والاصطلاح، ثم تطرق إلى بيان مكانة حكام العرب في الحياة الجاهلية، وظهر من خلال البحث أن هؤلاء الحكام كانوا يتمتعون بمكانة عالية بين أبناء المجتمع؛ فكان من بينهم السادة والزعماء، وقادة الجيوش، ورؤساء الوفود إلى الملوك. كما تم الحديث عن مكانة الحكام الأدبية، وتبين أن عدداً منهم كانوا شعراء متميزين تركوا أثاراً شعرية مهمة، كما كان من بينهم عدد من الخطباء والفصحاء والحكماء الذين أسهموا بشكل فاعل في الحياة الأدبية الجاهلية، وشكلوا رافداً مهماً من روافد الأدب العربي في العصر الجاهلي. ثم ختم الفصل بالتعريف بأبرز حكام العرب والترجمة لحياتهم، وتقديم نبذة مختصرة عن كل واحد منهم؛ من أجل تسليط الضوء عليهم، وكشف بعض جوانب حياتهم.

أما الفصل الثاني فقد اختص بدراسة أدب الحكام من الناحية الموضوعية؛ إذ تم الحديث أولاً عن موضوعات الشعر التي اهتم بها الشعراء الحكام، وتبين أن أكثر الموضوعات حضوراً في شعرهم هي تلك المتعلقة بشعر الحروب وما يتصل بها من وصف

للمعارك والقتال وأدوات الحرب والتباهي بالانتصار على العدو، كما اهتموا بشعر الفخر؛ فافتخروا ببطولاتهم وبصفاتهم الحميدة من كرم ونجدة وشجاعة وغيرها، واهتموا كذلك بشعر الحكمة والوصايا الذي عبروا فيه عن تجاربهم في الحياة، ونظرتهم إلى الكون ومظاهره المختلفة. وقد ظهر من البحث عدم خوضهم في بعض الأغراض الشعرية التي كانت شائعة في ذلك العصر كالهجاء والتغزل بالنساء والمديح، فكانت هذه الأغراض قليلة جدا في شعرهم. أما موضوعات النثر فقد تعددت وشملت الخطب التي كانوا يلقونها لأغراض مختلفة كالتهنئة والتعزية والحض على القتال والتنافر فيما بينهم، كما شملت الوصايا التي كانوا يوجهونها لأبنائهم أو لقبائلهم حين يحس أحدهم بدنو أجله. واهتموا كذلك بالحكم والأمثال التي تعبر عن عمق تجربتهم وفلسفتهم، ولهذا فقد حفلت كتب الأدب بكثير من حكمهم وأمثالهم.

وقد خصص الفصل الثالث لدراسة أدب الحكام دراسة فنية؛ فتمت دراسة الشعر أولا، وتم التعرف إلى بنية القصيدة من حيث المقدمة والغرض والخاتمة، كما تم البحث في الصورة الفنية وأنواعها لدى الشعراء الحكام، ثم تطرقت الدراسة إلى الحديث عن الملامح الأسلوبية التي يمتاز بها شعر الحكام العرب من حيث اللغة، والمحسنات البديعية، والأساليب المستخدمة كالتهنئة والتأخير، والاستفهام والحذف وغيرها، وبعد ذلك تم البحث في موسيقى الشعر من حيث الأوزان والبحور والقوافي والموسيقى الداخلية التي تتجلى في عدة مظاهر من أمثال التصريع والتدوير والتكرار، وقامت الدراسة بعمل جداول خاصة تبين البحور الشعرية التي استخدمها الشعراء الحكام، وعدد الأبيات التي نظمها كل شاعر منهم، والقوافي التي اهتموا بالنظم عليها.

وفي النهاية ختمت الدراسة بمجموعة من الملاحظات التي تمخض عنها البحث، والتي تبين الخصائص والمميزات التي اختص بها الحكام العرب دون غيرهم من الشعراء والادباء العرب في العصر الجاهلي.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وأشرف المرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

وبعد ،

فإن في تراثنا العربي من الكنوز النفيسة ما يثير همم الباحثين والدارسين، من أجل استخراج تلك الكنوز من مدافنها، ونفض الغبار عنها، لتقديمها إلى أبناء هذه الأمة. ويزخر الأدب العربي في العصر الجاهلي بكثير من الكنوز التي فطن إلى أهميتها الباحثون من عرب وغيرهم؛ فراحوا يدرسون ما في ذلك الأدب من ظواهر مميزة، فألفوا الكتب التي تتناول أدب تلك الفترة، ونقلوا إلى المعاصرين كثيرا من الآثار الأدبية التي خلفها الأقدمون. غير أن هناك اثارا كثيرة مهمة لم تتل من عناية الباحثين نصيبا كافيا، ومن تلك الآثار ما يتصل بحكام العرب وأدبهم (وهو موضوع هذه الدراسة).

لقد تنبه بعض العلماء إلى أهمية دراسة ظاهرة الحكام العرب منذ قرون طويلة؛ فقد أشار إليهم محمد بن حبيب - وهو من علماء القرن الثالث الهجري - في كتابه (المحبر)، وذكر عددا منهم، ونسبهم إلى قبائلهم التي ينتمون إليها، كما أشار اليعقوبي - وهو من علماء القرن الثالث أيضا - إلى بعض أولئك الحكام في كتابه (تاريخ اليعقوبي)، وبيّن فيه سبب لجوء العرب إلى التحكيم، وذكر الصفات والمزايا التي كان الحكام يتحلون بها. وقد تواصل اهتمام العلماء بهذه الظاهرة؛ فقد ذكر صاحب كتاب (الوافي بالوفيات) أن عالما من أهل القرن الرابع الهجري اسمه (محمد بن قاسم بن مّولة النسابة) قد ألف كتابا اسمه (كتاب المنافرات بين القبائل وأشرف العشائر وأقضية الحكام بينهم)، غير أن هذا الكتاب لم يصل إلينا، ففقدنا بفقد مصدرنا عظيم الفائدة كان سيغني هذه الدراسة، ويكشف كثيرا من الجوانب المتصلة بها. أما الباحثون المحدثون، فإن أحدا منهم لم يعن بدراسة هذه الظاهرة بشكل مستقل، وإنما تطرق بعضهم إلى بعض جوانبها، كما فعلت سهام الفريخ في كتابها (الوصايا في الأدب العربي القديم) الذي يدل عنوانه على اهتمامه بجانب واحد من جوانب أدب الحكام وهو الوصايا، كما أنه لا يختص بالنظر في وصايا الحكام دون غيرهم بل يتناول هذا (الفن) من فنون الأدب العربي القديم بصورة عامة. وهناك دراسة أخرى قدمتها فاطمة المزروعي بعنوان (المنافرات

ففي الأدب الجاهلي)، وهي كسابقتها تتناول موضوعا عن المواضيع التي تخص أدب حكام العرب، ولكنها لا تقتصر عليهم، ومن هنا فإن هذه الدراسة هي أول دراسة تختص بالنظر في ظاهرة حكام العرب ودراسة أدبهم من شعر ونثر. ومن هنا فقد جاءت هذه الدراسة من أجل تسليط الضوء على ظاهرة حكام العرب التي عرفت في العصر الجاهلي، واهتم بها القدماء لكن المحدثين لم يعنوا بها. كما تهدف إلى تمييز ظاهرة حكام العرب من حكماء العرب، واستكشاف أهمية الحكام ومكانتهم في المجتمع، والتعرف إلى أبرز القضايا التي تناولوها في شعرهم ونثرهم، وإلى الخصائص الفنية التي امتاز بها أدبهم بعمامة، متبعة في ذلك المنهج التحليلي.

تقوم هذه الدراسة على ثلاثة فصول؛ خصص الأول منها للتعريف بالحكم والتحكيم لغة واصطلاحاً، ثم انتقل للحديث عن مكانة حكام العرب في المجتمع الجاهلي ومنزلتهم الاجتماعية والأدبية، كما تم التعريف بأبرز الحكام عبر الترجمة لهم وتسليط الضوء على بعض جوانب شخصياتهم. أما الفصل الثاني فقد تناول أدب حكام العرب من الناحية الموضوعية، فتم الحديث عن الموضوعات التي طرقتها في شعرهم ونثرهم. وفي الفصل الثالث الذي اختص بدراسة أدب الحكام من الناحية الفنية، قامت الدراسة بالبحث في أهم السمات التي ميزت شعر الحكام من ناحية البناء الفني والملاحم الأسلوبية والموسيقى، مثلما بحثت في سمات النثر لدى الحكام، من حيث البناء واللغة والأسلوب. وختمت الدراسة بخاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

وبعد ،

فأتمنى أن أكون قد وفقت في تقديم شيء مما كنت أصبو إليه من دراستي للأدب العربي، مدفوعاً بحب هذه الأمة العظيمة وحب لغتها وأدبها وتراثها حبا متأسلاً في النفس والعقل، ومدركا بأن تراثنا يستحق منا أكثر مما قدمنا، وأمل أن أصيب النجاح في مساعي؛ فقد قدمت جهد المقل دون ادعاءً بالكمال الذي هو لله وحده، غير أنني أرجو أن لا يفوتني أجر المجتهد؛ فأنال أجرين إن أصبت - وهذا غاية الرجاء والأمل -، أو أجرا واحداً أن أخطأت - وجل من لا يخطئ -.

والحمد لله
والصلاة والسلام على
الأنبياء والبررة

الباحث

المفرق ٢٠٠٤/٥/٣

الفصل الأول

مكتاح العرب:

تمهيد وتعريف

الحكم والنكيم لغة واصطلاحاً

مكانة حكام العرب في الحياة الجاهلية:

أبرز الحكام

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد وتعريف:

تقتضي طبيعة الحياة أن يتصل الناس بعضهم ببعض، وأن تقوم بينهم العلاقات التي تتطلبها أو تفرضها طبيعة المعاملات التي تجري بينهم؛ ونظراً لتباين الناس واختلافهم في الطبائع والعادات، فقد يقع بينهم من حين لآخر شيء من الخلاف أو سوء التفاهم أو النزاع. وقد فطنت المجتمعات المدنية إلى هذا الأمر، فسنت القوانين التي تنظم حياة الناس وتسهل أمور معيشتهم، وبيّنت فيها حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم، وأنشأت المحاكم التي تنظر في الخلافات والنزاعات، وذلك وفق آلية معروفة يتولاها قضاة مختصون ومحامون وموظفون وغيرهم مما هو سائد في هذه الأيام. ولكن كيف كان حال أسلافنا من عرب الجاهلية عندما يقع بينهم خلاف؟ وكيف كانوا (يتعاملون) في مثل هذه المسائل؟ وإلى من كانوا يحتكمون في منازعاتهم وخصوماتهم؟

جاء في حديث بنيان الكعبة الذي أورده ابن هشام في سيرته: "قال ابن إسحق. ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن^(١)، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا^(٢) وتحالفوا، وأعدوا للقتال: فقرّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاهدوا هم وبنو عديّ بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسمّوا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية أن أبا المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسنّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا. فكان أول داخل عليهم رسول الله (ﷺ)؛ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد؛ فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال (ﷺ): هلمّ

(١) يريد بالركن: الحجر الأسود. وسمي ركناً لأنه مبني في الركن.

(٢) تحاوزوا: انحازت كل قبيلة إلى جهة. وفي بعض الأصول: (تحاوروا) بالراء المهملة.

إليّ ثوبا، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناصية من الثوب، ثم ارفعه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه^(١).

يمثل هذا الخبر جانباً مهماً من صورة الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، فقد كان (التحكيم) هو المبدأ المتعارف سبيلاً لفض النزاعات الفردية والجماعية، وذلك لأسباب منها طبيعة النظام الاجتماعي العربي القائم على وحدة القبيلة؛ فالقبيلة هي الكيان الاجتماعي والسياسي الذي ينتمي إليه الفرد، ويدين له بالولاء، ويدافع عنه إن ألمّ به خطب، مثلما تبادل القبيلة الفرد ولاءه وانتماءه وتفانيه بأن تحتضنه وتحميه وتحتل في سبيل ذلك مخاطر كبيرة وأهوالاً جساماً؛ فكم من حروب وقعت بسبب جريرة ارتكبتها أحد أفراد القبيلة، فاضطرت قبيلته لتحمل تبعات جريرته ودخلت في نزاعات مع قبائل أخرى بسبب ذلك الارتباط العضوي بين الفرد وكيانه الاجتماعي المتمثل بالقبيلة واستعداد كل منهما للدفاع عن الآخر وقت الحاجة.

ومن الأسباب التي أوجدت مبدأ (التحكيم) غياب سلطة جامعة ينضوي جميع العرب تحت نفوذها؛ فرغم وجود دولتي المناذرة والغساسنة على أطراف الجزيرة العربية، وانبساط نفوذهما على أجزاء كثيرة منها، إلا أن أيّاً من تلك الدولتين لم تتمكن من جمع كل القبائل العربية تحت سلطتها، فضلاً عن أن دولتي الغساسنة والمناذرة لم تكونا عربيتين، فكما هو معروف، فقد كان المناذرة يتبعون دولة الفرس ويدينون لها بالطاعة والولاء، مثلما كان الغساسنة يتبعون دولة الروم ويفعلون ما يفعله جيرانهم المناذرة، مما يعني عدم وجود دولة عربية تجمع القبائل العربية كلها، كما أن كثيراً من القبائل العربية، وخاصة ما كان يعرف منها (باللقاح) أو تلك التي تقطن أماكن نائية في شبه الجزيرة العربية، لم تكن تدين بالولاء لأي من دولتي الغساسنة والمناذرة. وهكذا فالعرب، وتبعاً للنظام القبلي السائد، لم يكونوا يدينون لدولة بسلطان، وإنما كان الولاء الأول والأخير للقبيلة. وقد يكون السبب في ذلك عائداً إلى طبيعة الشخصية العربية التي يبدو أنها كانت تأنف من الخضوع لسلطة خارجية، وتقاوم - بطبيعتها - مثل هذه السلطة، فضلاً عن العقلية العربية المتهمة بالنزق وضيق الصدر

(١) ابن هشام (٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، ط٣، ج١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠، ص٢٣٣. ومحمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، ط١، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ص٥٢٦. وابن الأثير (علي بن محمد ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق: خليل شحّا، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢، ص٣٧-٣٨. والحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: صدقي العطار، ط١، ج٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٦٧.

وسرعة الغضب^(١)، مما يمكن أن يعدّ أرضية مناسبة لنشوء الخلافات و النزاعات لأسباب ليس من الصعب على تلك العقلية الجاهلية التعلل بها، فتقع نتيجة لذلك الخصومات و المشاجرات التي تتطور في أحيان كثيرة إلى نزاعات دموية يسقط فيها الضحايا من كلا الجانبين. وإذا كان لابد لكل صراع من نهاية، فإن الحل يكون بالاحتكام إلى شخص يتفق الفريقان المتخاصمان على اللجوء إليه للفصل في النزاع، والحكم بما يراه يحقق العدل ويسكن ثائرة النفوس.

ولم يكن (التحكيم) مقتصرًا على فضّ النزاعات والفصل بين المتخاصمين، وإنما تعدى إلى أمور كثيرة من جوانب حياة الإنسان العربي الجاهلي، فقد لجأوا إليه في ما يمكن أن نطلق عليه (النقد الأدبي) لبيان الجانب الجمالي والإبداعي في أعمال شعرائهم، وذلك من خلال التحاكم إلى أهل العلم والخبرة في هذا المجال، كالنابغة الذبياني الذي كانت تنصب له قبة حمراء في سوق عكاظ يجلس فيها للحكم بين الشعراء؛ فقد ذكر الأصفهاني أنه "كان يُضرب للنابغة قبة من آدم"^(٢) بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وأول من أنشده الأعشى، ثم حسّان بن ثابت، ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صخرًا لتأثم الهداه به كائنه علم في رأسه نارُ

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني أنفا لقلت إنك أشعر الجنّ والإنس"^(٣). وفي مثال آخر على المدى الذي بلغه (التحكيم) في حياة الإنسان العربي في الجاهلية نجد خبر احتكام الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبد بن الطبيب والمخبل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي ليحكم بينهم ويبين من هو أشعرهم - نجد هذا الخبر شاهدا جديدا على مكانة التحكيم ومنزلته التي بلغها في تسيير شؤون القوم^(٤).

لجأ العرب إلى (التحكيم) وسيلة لفضّ المنازعات، والفصل في الخصومات التي كانت تقع بينهم حين يتشاجرون في الفضل والحسب، والمجد وعلو النسب، وغير ذلك من الأمور

(١) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، ط ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٦، ص.ص ١٣٩-١٤١. وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط ٨، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص.ص ٦١-٦٥.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، ط ١، ج ١١، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص.ص ٨-٩.

(٤) المرزباني (محمد بن عمران ت ٣٨٤هـ)، الموشح، ط ١، دار نهضة مصر، د.ت، ص ٩١.

التي تقدم الحديث عن بعضها، "وكان لكل قبيلة من قبائلهم حكم يتحاكمون إليه"^(١)، وكان الحكم يتصف بصفات أهمها العدل ورجاحة العقل، ووفرة الذكاء، وبُعد النظر، وحسن التقدير، والمعرفة بأحوال العرب وأنسابها وأيامها ووقائعها، والفصاحة والشجاعة والكرم والسودد^(٢)؛ فاحتلّ الحكام مكانه اجتماعية مرموقة، حتى كان منهم سادة القبائل وزعمائها، وكانوا أهل الرأي والمشورة عند الفرع، فلا تصدر القبيلة إلا عن رأيهم، ولا تقطع أمراً دون الرجوع إليهم. وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب أسماء بعض هؤلاء الحكام؛ فقامت بالبحث عنهم في تلك الكتب حتى بلغ مجموع ما عثرت عليه منهم سبعة وخمسون حكماً بينهم خمس نساء. وسوف أقوم بالتعريف بأبرز هؤلاء الحكام والترجمة لهم بعد الحديث عن المكانة الاجتماعية والمكانة الأدبية اللتين حازوهما. وقبل ذلك لابد من تعريف الحكم والتحكيم في اللغة والاصطلاح.

(١) محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ٣٠٨/١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٣١١/١. والألوسي، بلوغ الأرب ٣٠٨/١. وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، ج ٥، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت، ص ٥٠٣، وشوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٧٠.

الحكم والتحكيم لغة واصطلاحاً:

جاء في لسان العرب: "... والحُكْم: العلم والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر حَكَمَ يحْكُم... والعرب تقول: حَكَمْتُ وَأَحْكَمْتُ وَحَكَمْتُ بمعنى منعتُ ورددتُ، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكماً، لأنه يمنع الظالم من الظلم. قال ابن سيده: الحُكْم القضاء، وجمعه أحكام، لا يكسّر على غير ذلك. وقد حكم عليه بالأمر يحْكُم حُكْماً وحُكُومةً وحَكَمَ بينهم كذلك. والحُكْم مصدر قولك: حَكَمَ بينهم يحكم أي قضى، وحَكَمَ له وحكم عليه... والحاكم: منقذ الحُكْم، والجمع حُكَّام، وهو الحُكْم. وحاكمه إلى الحاكم: دعاه... والحكمة: الفضاة... وقد سموا حُكْماً وحُكَيْماً وحَكَيْماً وحُكَّاماً وحُكَّماناً^(١).

وجاء في تاج العروس: "الحُكْم (بالضم) القضاء في الشيء بأنه كذا أو ليس بكذا (ج أحكام) لا يكسّر على غير ذلك، وقد حَكَمَ له وعليه كما في الصحاح، وحكم عليه بالأمر يحكم حكماً وحكومة إذا قضى، وحكم بينهم كذلك. وجمع الحكومة حكومات، يقال: هو يتولى الحكومات ويفصل الخصومات. والحاكم منقذ الحُكْم بين الناس، قال الأصمعي: وأصل الحكومة ردّ الرجل عن الظلم، وإنما سمي الحاكم بين الناس لأنه يمنع الظالم من الظلم (كالحكم محرّكة) ومنه المثل "في بيته يؤتى الحُكْم" (ج حُكَّام) ككاتب وكُتّاب. وحاكمه إلى الحاكم: دعاه وخاصمه في طلب الحكم"^(٢).

وفي القاموس المحيط: "الحُكْم، بالضم: القضاء، ج: أحكام، وقد حكم عليه بالأمر حُكْماً وحكومة، والحُكْم بينهم كذلك. والحاكم: منقذ الحُكْم، كالحكم محرّكة، ج: حُكَّام. وحاكمه إلى الحاكم: دعاه وخاصمه. وحكّام العرب في الجاهلية: أكتف بن صيفي، وصاحب بن زرارة، و... إلخ"^(٣).

(١) ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي، ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ط ١، ج ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص.ص ٢٧٠-٢٧٣ (مادة حكم).

(٢) محمد مرتضى الزبيدي (ت ٨١٦هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ط ١، ج ٨، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص ٢٥٢.

(٣) الفيروز أبادي (محمد بن يعقوب، ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ص ٩٨٨.

هذا في اللغة، وأما في الاصطلاح فيمكن القول إن الحكم هو الشخص الذي اجتمعت فيه صفات الصدق والشرف والأمانة والعدل والتجربة والذكاء والمجد والرئاسة، فقصدته الناس للنظر فيما يشتجر بينهم من خلاف أو نزاع أو نحو ذلك. وقد ورد مثل هذا (التعريف) في (تاريخ اليعقوبي)، إذ نجده يقول: "وكان للعرب حكام ترجع إليهما في أمورهما، وتتحاكم في منافراتهما ومواريثها ومياهاها ودمائها... وكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والمجد والتجربة"^(١). ونكاد نلاحظ نوعاً من (الاتفاق) لدى معظم الذين اهتموا بالحديث في موضوع الحكام^(٢).

ومن الأمور المهمة التي تسترعي انتباه الباحث عند النظر في تحديد مفهوم (الحكم) اختلاطه بمفهوم (الحكيم)؛ فقد وجدت أن العرب لم يفرقوا بين هذين المفهومين، وإنما كانوا، يقولون: (حكم العرب) و (حكيم العرب)^(٣) وهم يريدون وصفه بأنه كان حكماً. غير أن الصواب يقتضي التفريق بين المفهومين والميز بينهما؛ سعياً للوصول إلى مفهوم محدد لكل من (الحكم) و (الحكيم). وقد تقدم الحديث عن المعنيين اللغوي والاصطلاحي لكلمة (حكم)، أما (الحكيم) فقد ورد تعريفه: "الحكيم: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم"^(٤). ويذهب صاحب "التاج إلى أن (الحكمة) هي "العدل في القضاء كالحكم. والحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال هي هيئة القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكمة الإلهية. وقوله تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة فالمراد به حجة العقل على وفق أحكام الشريعة. وقيل: الحكمة إصابة الحق بالعلم والعمل، فالحكمة من الله معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفته وفعل الخيرات. وقد وردت الحكمة بمعنى (الحلم) وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، فإن كان هذا صحيحاً فهو قريب من

(١) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب، ت ٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، ط ١، ج ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٣١١.

(٢) محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٣٠٨. وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٢، ج ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣، ص. ص ٤٩٥-٥٠٣.

(٣) ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ص ٨٠. وابن منظور، لسان العرب، ٢٧٣/٣ (مادة حكم).

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ٢٧٢/٣ (مادة حكم).

معنى العدل... (وأحكمه) إحكاماً: أتقنه، ومنه قولهم للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب (فاستحكم) صار محكماً^(١).

وهكذا نجد أن (الحكيم) مختلف عن (الحكم)، فقد تكون الحكمة من لوازم الحكم لكي يتصف حكمه بالمنطق والعدل والإنصاف، ولكي يستطيع النظر في الأمور بعين الخبير العارف المتمكن، وصولاً إلى إصابة الحق والصواب، وإقناع المتخاصمين والمتنازعين بصحة الحكم الذي أصدره، في حين أنه ليس من (شروط) الحكيم أن يكون حكماً. وبعبارة أخرى فيمكننا أن نقول: إن كل حكم حكيم، وليس كل حكيم حكماً!!.

^(١) الزبيدي، تاج العروس، ٢٥٣/٨ (مادة حكم).
* المقصود هنا: الزبيدي مؤلف معجم (تاج العروس).

مكانة حكام العرب في الحياة الجاهلية:

١ - المكانة الاجتماعية: لقد تبين لنا فيما سبق مقدار أهمية التحكيم في حياة المجتمع الجاهلي، وكيف كان يسدّ مسدّ النظام القضائي المعروف في أيامنا - مع اختلاف الظروف والأحوال والتفاصيل - ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا الأمر قد ظل سائداً إلى وقت قريب؛ إذ ربما يذكر بعضنا أسماء أشخاص عرفوا بقيامهم بالقضاء في الأمور المختلفة التي تقع بين الناس، وخاصة ما يتعلق منها بقضايا الدماء والشرف. وأكثر ما يُعرف هذا في المناطق التي تغلب عليها الصبغة العشائرية الأقرب إلى البداوة. وإذا كان هذا يحدث في زماننا الذي تحكمه القوانين والتشريعات المستندة إلى قوة الدولة وهيبة مؤسساتها، فكيف سيكون الأمر في المجتمع الجاهلي الذي غابت عنه تلك القوانين والتشريعات، وغابت عنه كذلك سلطة الدولة؟ والسؤال المطروح هو كيف نظر الجاهليون إلى هذه الفئة التي أخذت على عاتقها القيام بهذه المهمة الجليلة؟

شغل الحكام حيّزا مهما ومؤثرا في الحياة الجاهلية من خلال تصديهم لفض النزاعات وإنهاء حالات الصراع التي كانت تقوم بين الأفراد والجماعات، بل إن كثيرا منهم استطاع منع وقوع مشاجرات وحروب كانت ستشتعل نيرانها لولا تدخل هؤلاء الحكام، والفصل بين الأطراف المتنازعة، والإصلاح بين المتخاصمين والمتنافرين؛ فحفظوا الدماء التي كانت ستراق، والأرواح التي كانت ستزهق، والأموال التي كانت ستهدر بسبب منافرة أو خصومة، وتمكنوا بفضل ما يتمتعون به من حكمة وتجربة ومعرفة وسداد رأي من استنتاج أحكام تحولت مع مرور الأيام إلى أعراف بدت أشبه بالأحكام التي يسير عليها الجاهليون، وربما كان السبب - كما يراه اليعقوبي - راجعا إلى غياب شرعة أو دين يحكمون إليه "وكان للعرب حكام ترجع إليها في أمورهم، وتتحاكم في منافراتهم ومواريتهم ومياهم ودمانهم؛ لأنه لم يكن دين يرجع إلى شرائعه"^(١).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٢٥٨/١.

احتل حكام العرب مكانة مرموقة، ومنزلة رفيعة في نفوس أفراد المجتمع الجاهلي، ومن الأدلة على ذلك ما قيل في أحد الحكام. وهو (وكيع بن سلمة الإباضي) "وهو صاحب الصرح بحزورة مكة. وقد أكثروا فيه فقالوا كان كاهنا، وقالوا كان صديقا من الصديقين^(١)". ولم يقف الأمر عند الجاهليين الذين رفعوا هذا الحكم إلى منزلة الصديقين التي تقضي - بالضرورة - إلى أن يشعر المتخاصمون بالثقة عند التحاكم إليه، ثم الرضا والقبول بكل ما يصدره من أحكام، لم يقف الأمر عند الجاهليين، وإنما تعداه إلى غيرهم من المحدثين كالدكتور جواد علي الذي أوصل الحكام إلى مرتبة الفلاسفة^(٢). ومع أن هذا الوصف فيه مبالغة واضحة - لأن الحكام في الجاهلية، ورغم ما تمتعوا به من حكمة وتجربة وحلم وبُعد نظر، لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق الذي نعرفه لهذه الكلمة، إذ إن الفيلسوف يتميز بنظرته الخاصة إلى الكون والحياة والإنسان، تلك النظرة الشاملة التي لا نجدها لدى حكام العرب - إلا أنه يشير إلى المكانة التي وصل إليها أولئك الحكام. وقد تمثلت المكانة المرموقة التي حظي بها الحكام في أمور كثيرة، منها:

أ- زعامة القبائل وما تمثله من شرف وسيادة ورئاسة: فقد كان عدد كبير من حكام العرب زعماء لقبائلهم، وكانوا أهل الشرف والسيادة فيها، ومن هؤلاء: حاجب بن زرارة سيد تميم وزعيمها، وأعلى العرب فداءً، حتى ضرب بذلك المثل، ف قيل "أعلى فداءً من حاجب بن زرارة"^(٣). وما ذلك إلا لمكانته في قومه. وهو الذي رهن كسرى قوسه وفاءً لعهد أخذه عليه حين سمح لبني تميم بالإقامة في بلاده، فقبل كسرى الرهن، ووفي حاجب الوعد^(٤). ومنهم الأقرع بن حابس الذي وفد مع زعماء تميم وسادتها على الرسول (ﷺ) فلما كان يوم حنين أعطاه مائة من الإبل تقديراً لمكانته في قومه. ومنهم الحارث بن عباد البكري سيد بكر بن وائل وفارسها وشاعرها وخطيبها. ومنهم سنان بن أبي حارثة لمرّي سيد غطفان وزعيمها وقائدها في حروبها وغزواتها. ومنهم ربيعة بن حذار سيد بني أسد، وهو الذي تحاكم إليه عبد المطلب وبنو كلاب فحكم لعبد المطلب، وهو الذي قال فيه الأعشى:-

(١) ابن حبيب، محمد بن عمرو الهاشمي (ت ٢٤٥هـ)، المحبر، تحقيق: إيلزه ليختنشتاين، ط ١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص ١٣٦.

(٢) جواد علي، المفصل، ٥/٥٠٣.

(٣) الميداني (أحمد بن محمد ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، ط ١، ج ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٧٧.

(٤) انظر القصة في ترجمة حاجب بن زرارة ص ٢ من هذا البحث.

وَإِذَا طَلَبْتَ الْمَجْدَ أَيْنَ مَجْلَهُ

فَاعْمَدْ لِبَيْتِ رَبِيعَةَ بْنِ خُذَارٍ^(١)

ومنهم عامر بن الظرب العدواني، الذي كان سيد قومه، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية^(٢)، وكانت العرب لا تعدل بفهمه فهما، ولا بحكمه حكما^(٣). ومنهم أنس بن مذك بن كعب الخثعمي سيد خثعم في الجاهلية وفارسها؛ وأدرك الإسلام فأسلم^(٤)، وهو الذي قتل السليك بن السلعة الصعلوك المشهور بعدما اعتدى على امرأة من خثعم، فلحقه أنس وقتله ورفض أن يدفع ديته لفجوره^(٥) وقال في ذلك:

إِنِّي وَقَتْلِي سَلِيكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقْرُ
غَضِبْتُ لِلْمَرْءِ إِذْ... حَلِيلَتُهُ وَأَنَا يَشْدُ عَلَى وَجَعَانِهَا النَّفْرُ

ومنهم هاشم بن عبد مناف جد الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيد قريش، وصاحب المأثر الجليلة والمفاخر العظيمة. واسمه (عمرو)، غير أنه سمي هاشما لأنه كان سخيا كريما، فأطعم قومه الثريد، وله يقول مطرود بن كعب الخزاعي^(٦) في معرض مدح ابنه عبد المطلب:

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرَجَالُ مَكَّةَ مُسْتَنْتُونَ عِجَافًا^(٧)

وكان إذا حضر الحاج قام في قريش فقال: "يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاما أيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو

(١) المرزوقي (أحمد بن محمد ٤٢١هـ) الأزمعة والأمكنة، تحقيق محمد الدليمي، ط ١. ج ٢. عالم الكتب. بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٥٠، والبيت في الديوان ص ٨٩ برواية مختلفة.

(٢) القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم ت ٣٥٦ هـ)، الأمالي، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٢٠٤. جواد علي، المفصل ٦٧١/٤.

(٣) الألوسي، بلوغ الأرب ٣١٦/١. وخير الدين الزركلي، الأعلام، ط ١، ج ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩، ص ٢٥٢.

(٤) ابن حجر العسقلاني (ت ٢٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وزميله، ط ١، ج ١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٢٧٩.

(٥) المصدر السابق ص ٢٧٩. وانظر: جواد علي، المفصل ٩٠٨/٩.

* كلمة تخدش الحياء حذفها الباحث.

(٦) مطرود بن كعب الخزاعي: شاعر جاهلي فحل، مدح عبد المطلب، ولم يدرك الإسلام، وكان قد لجأ إلى عبد المطلب لجناية منه، فحماه وأحسن إليه، فأكثر مدحه ومدح أهله. انظر ابن دريد (محمد بن الحسن ت ٣٢١ هـ)، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص ٤٧٤. والقالي، الأمالي ٢٤١/١. وعفيف عبد الرحمن، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ط ١، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٦، ص ٢٥٤.

(٧) ابن هشام، السيرة النبوية ١٧٢/١-١٧٣ والطبري، تاريخ الطبري ٥٠٤/١ والأندلسي، نشوة الطرب ١/٣٢٩.

كان مالي يَسَعُ ذلك ما كلفتكموه" فيخرجون لذلك خرجا من أموالهم، كل امرئ بقدر ما عنده، فيصنع به للحجاج طعاما حتى يصدروا منها^(١). وهو أول من سنّ لقريش رحلتي الشتاء والصيف^(٢). ومنهم الزبير عبد المطلب سيد حلف الفضول^(٣)، وأبو طالب بن عبد المطلب، الذي كفل الرسول (ﷺ) وحماه من أذى قريش، وكان من حكام قريش وسادتها ومرجعها في الملمات^(٤). ومن السادة والزعماء أبو سفيان بن حرب سيد قريش وداهيتها؛ روي أن ملك اليمن أهدى سبع جزائر إلى مكة، وأوصى أن ينحرها أعزّ قرشي "فأنت وأبو سفيان عروس بهند. فقالت له: يا هذا، لا تشغلك النساء عن هذه الأكرومة التي لعلك أن تُسبق إليها. فقال لها: يا هذه، ذري زوجك وما اختار لنفسه، فوالله لا نحرها أحد إلا ثحرته: فكانت في عقلها حتى خرج إليها بعد السابع فنحرها^(٥)".

ومن الحكام السادة أيضا عبد الله بن جدعان، وعبد المطلب بن هاشم والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعوف بن الأحوص، ومتمم بن نويرة، ومخاشن بن معاوية، وسويد بن الصامت، وسلم بن نوفل.

ب- **قيادة الجيوش والقوافل التجارية:** لقد تقدم الحديث في زعامة الحكام ورئاستهم قبائلهم؛ ولما كان جلّ هؤلاء الحكام من الفرسان والأبطال وأصحاب الرأي والدهاء والخبرة، فمن المؤكد أنهم سيتولون قيادة قبائلهم في حروبها وغزواتها. وقد نقلت لنا كتب الأدب وكتب التاريخ التي أرّخت لتلك الفترة، وتحدثت عن الحروب والأيام التي وقعت أسماء كثير من الأبطال المشهورين الذين طار صيتهم، ومن بين هؤلاء الأبطال نجد عددا كبيرا من الحكام نذكر منهم الحارث بن عباد الذي قاد بكر بن وائل في حرب البسوس بعدما كان اعتزلها هو وقومه، إلى أن قتل مهلهل بن ربيعة بجير بن الحارث بن عباد؛ فاضطر عندها الحارث لدخول الحرب ثارا لدم ابنه بجير، وانتقاما من مهلهل، فجمع قومه والنقي بني تغلب في يوم

(١) ابن هشام، السيرة ١٧٢/١-١٧٣. والألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٢/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ط ١، ج ١، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت، ص ٧٤.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١٧٢/١-١٧٣. والطبري، تاريخ الطبري ٥٠٤/١. وابن منظور، لسان العرب (ألف) ١٨٠/١. والألوسي، بلوغ الأرب ٣٠٦/١. والزركلي، الأعلام ٦٦.

(٣) الأندلسي، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن، ط ١، ج ١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢، ص ٣٣٥.

(٤) الألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٦/١.

(٥) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، ط ٢، ج ٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٣١. وفي رواية أخرى أنها كانت عشر جزائر (العقد الريد ٦٤/٢).

(قصة) "فهزمهم وقتلهم ولم يقوموا لبكر بعدها"^(١). ومن الحكام الذين قادوا الجيوش حرب بن أمية الذي قاد كنانة كلها في حرب الفجار، فكان قائدها في يومي نخلة^(٢) وشمطة^(٣)، وكان وجيها من وجهاء مكة، وسيدا من سادات كنانة، ومنهم عامر بن الظرب أحد الثلاثة الذين لم تجتمع معدة على غيرهم؛ فقد كان قائد معد "حين تمذحبت^{منذ} وسارت إلى تهامة، وهي أول وقعة بين أهل اليمامة واليمن"^(٤). وقد نقل النويري عن ابن الكلبي: "لم تجتمع معدة كلها إلا على ثلاثة من الرؤساء، وهم: عامر بن الظرب... والثاني ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير... والثالث كليب بن ربيعة"^(٥). ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب الذي قاد قريشا وكنانة يوم أحد ويوم الخندق، واشترك في معارك الفتوح الإسلامية ويقال إن إحدى عينيه ذهبت يوم (الطائف) والأخرى (يوم اليرموك)^(٦). وكان يقود قوافل قريش في تجاراتها إلى بلاد الشام واليمن، وهذا العمل (قيادة القوافل) من الأعمال المهمة، فإذا عادت القافلة بسلام استقبل قائدها استقبال الأبطال^(٧). ومنهم عيينة بن حصن الذي قاد غطفان في غزوة الأحزاب^(٨)، ويروى أنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة^(٩). وقد ورد في كتاب (المحبر) لابن حبيب أن العرب لم تكن تسمي الرجل (جرارا) حتى يرأس ألفا، وعدة منهم أبا سفيان بن حرب، وعامر بن الظرب، وربيع بن حذار، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن. وهؤلاء جميعا من حكام العرب^(١٠).

ج- الوفادة على الملوك: إن قصد الملوك والدخول إلى مجالسهم، ومحادثتهم ومناذمتهم يعد من المزايا العظيمة التي يحظى بها المرء، وذلك منذ القدم حتى هذه الأيام، فالمعلوم أنه لا يتاح مثل هذا الشرف إلا لفئة قليلة من الناس تتصف بالشرف والسؤدد والزعامة. ولأن عددا

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٦/٦٨. والأصفهاني، الأغاني ٥/٥٢-٥٥. والميداني، مجمع الأمثال ١/٤٦٣. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/٤٤٦-٤٤٧.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٢٢/٥٨-٥٩. ومحمد جاد المولى وزميله، أيام العرب في الجاهلية، ط١، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص ٣٢٦. ونخلة: موضع بالحجاز قريب من مكة (معجم البلدان ٤/٣٨١).

(٣) الأصفهاني، الأغاني ٢٢/٥٨-٥٩. وجاد المولى، أيام العرب في الجاهلية ٣٣١. وشحطة: موضع قريب من عكاظ (معجم البلدان ٣/١٥٦).

(٤) ابن الأثير، الكامل ١/٤٣٨.

(٥) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الباز العريني، ج ١٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٣٩٦ وما بعدها.

(٦) ابن قتيبة، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٣٤٤.

(٧) جواد علي، المفصل، ٥/٢٥٠.

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية، ٣/٢٣٨.

(٩) السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله ٥٨١هـ)، الروض الأتف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ط١، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٤١٨.

(١٠) ابن حبيب، المحبر، ص.ص ٢٤٦-٢٤٩.

كبيراً من الحكام كانوا زعماء لقبائلهم، وكانوا يمتلكون من السمات ما يؤهلهم لقرع أبواب الملوك ومجالستهم، فقد كان من الأمور البديهية أن يستقبل الملوك هؤلاء الحكام ويكرموا وفادتهم لما لمسوه منهم من حكمة وفصاحة وسداد رأي، كما أن إكرام هؤلاء الزعماء سيؤدي إلى كسب وُدّ أبناء قبائلهم وتآلفهم على محبة الملوك.

وقد حملت لنا الكتب أخبار عدد من الحكام الذين وفدوا على الملوك، منهم عبد المطلب بن هاشم الذي وفد على سيف بن ذي يزن في وفد ضم سادات قريش لتنهئته باسترداد ملكه من يد الحبشة، وتكلم عبد المطلب، فاستحسن الملك كلامه، وسأله عن اسمه، فلما علم أكرمه وأكرم قومه، ثم خلا^٩ وأبشّره بولادة النبي محمد (ﷺ) ومبعثه وما يحصل له من الكرامة والشرف^(١). ومن الحكام الذين وفدوا على الملوك ضمرة بن ضمرة النهشلي، "دخل على النعمان بن المنذر، فقال له: مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أنا شَيْقَةَ بن ضمرة، فقال النعمان: تسمع بالمعيدي لا أن تراه"^(٢)، فقال: أبيت اللعن، إن الرجال لا تكال بالقفران، ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بجنان، وإن قال قال ببيان"^(٣). فقال النعمان: أَنْتَ ضمرة بن ضمرة، يريد: أَنْتَ كَأْبِيكَ، وكان أبوه شريفاً شاعراً"^(٤). وممن وفد على الملوك كذلك غيلان بن سلمة الثقفي فقد خرج في تجارة إلى العراق، حتى دخل على كسرى وكلمه، فأعجب كسرى بكلامه ورجاحة عقله ثم سأله: "أي أو لادك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يؤوب"^(٥). فازداد إعجاباً به وأكرمه، ثم اشترى منه التجارة بأضعاف ثمنها، وكساه وبعث معه من الفرس مَنْ بنى له

(١) انظر الخبر مفصلاً في: ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/٢٦٠-٢٦٤. وابن كثير، البداية والنهاية ٢/٣٠٠-٣٠٢.

(٢) الجاحظ (عمرو بن بحر ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ١، ج ١، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص ١٧١، ٢٣٧. وابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قميحة، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٤٢٤. وابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ)، الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص ٢٤٤. والعسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله ت بعد ٤٠٠هـ)، جمهرة الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله، ط ٢، ج ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٦٦-٢٦٧. والميداني، مجمع الأمثال ١/١٦٤-١٦٦. وابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق: نصرت عبد الرحمن، ط ١، ج ١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢، ص ٤٥٥.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ١/١٧١-٢٣٧. وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٢٤. وابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٤٤. والعسكري، جمهرة الأمثال ١/٢٦٦-٢٦٧. والميداني، مجمع الأمثال ١/١٦٤-١٦٦. والأندلسي، نشوة الطرب ١/٤٥٥. والبغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣هـ)، خزانة الأدب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٤، ج ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٣١٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٦٦. وجواد علي، المفصل ٣/٢٨٣.

(٤) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٢٤.

(٥) الأصفهاني، الأغاني ١٣/٢٣١. واللوحي، بلوغ الأرب ١/٣٢٠.

أطما بالطائف^(١)، فكان أول أطم بني بها^(٢). وقد انفرد الجاحظ برواية تفيد بقدم غيلان على الوليد بن عبد الملك لتعزيته بوفاة والده عبد الملك بن مروان وتهنئته بالخلافة^(٣). غير أن الشك يحيط بهذه الرواية ويجعلني أميل إلى عدم الأخذ بها؛ وذلك استناداً إلى ما جاء في (الإصابة) من أن غيلان قد توفي في آخر خلافة عمر بن الخطاب^(٤)، مما ينسف ما جاء به الجاحظ من أساسه.

ومن أهم الأمثلة على مكانة حكام العرب في وفادتهم على الملوك قصة الوفد الذي أرسله النعمان بن المنذر إلى كسرى ليتبين عنده مقدار العرب؛ فأرسل إليه وفداً ضمّ عدداً من سادات العرب وزعمائها وحكمائها، وكان من بين هؤلاء ثلاثة من (حكام العرب) هم: أكتم بن صيفي وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد، إضافةً ^{إلى} عدد آخر من الزعماء والسادة، وقد طلب إليهم النعمان أن يقدموا أكتم بن صيفي للحديث أولاً، ثم حاجب بن زرارة، فالحارث بن عباد. ولم يكن هذا (الترتيب) من النعمان بتقديم هؤلاء الثلاثة إلا لمعرفة بأقدارهم، وثقته بحكمتهم وحسن تصرفهم وفصاحتهم، فتحدثوا في مجلس الملك حديثاً لم يملك معه إلا أن يبدي إعجابه بهم ويقولهم؛ فأكرمهم وأحسن جوائزهم، وردّهم موفوري الاحترام والوقار^(٥).

د- الاعتراف بفضلهم وإكرامهم: حظي الحكام بالحفاوة والتقدير حيث حلوا، وما ذلك إلا اعتراف بمكانتهم وفضلهم، وتقدير لما قاموا به من إطفاء نيران العداوات، ومنع امتداد الحروب واستمرارها، بل إنهم قد نجحوا في كثير من الحالات في منع نشوب المنازعات بفضل حكمتهم وبُعد نظرهم وسداد رأيهم وتوفيقهم في الوصول إلى نتيجة ترضي الطرفين المتخاصمين؛ فيحلّ بينهما الوئام، وتتطفئ نيران كانت ستلتهم أحياء وقبائل لولا فطنة هؤلاء الحكام.

ولما كان من عادة العرب وشيمهم التي يعتزون بها الوفاء، وشكر فعل الخيرات، ومدح فاعليها، والحض على التآسي بكريم فعلهم؛ فقد نال الحكام من هذا الجانب حظاً وافراً،

(١) الأطم بضمّتين: القصر، وكل حصن مبني بحجارة، وكل بيت مربع مسطح (الأغاني ٢٣١/١٣).

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٢٣١/١٣. وابن حجر، الإصابة ٢٥٥/٥.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ١٩١/٢-١٩٢.

(٤) ابن حجر، الإصابة ٢٥٧/٥.

(٥) انظر القصة وما جرى فيها من أخبار ومناظرات في: ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٥٠/١-٢٥٨. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١. والألوسي، بلوغ الأرب ١٤٧/١-١٥٨.

فقد ضرب المثل بهرم بن قطبة حين أبى أن ينقر واحداً على الآخر في المنافرة المشهورة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، خوفاً من وقوع الشرّ والفتنة بين أبناء العشيرة الواحدة، ف قيل في ذلك: "أحكم من هرم بن قطبة"^(١). وقد روي أن عمر بن الخطاب سأل هرما فقال: يا هرم، أي الرجلين كنت مفضلاً لو فضلت؟ فقال: لو قلت ذاك يا أمير المؤمنين لعادت جذعة، ولبلغت شعاف هجر. فقال عمر: نعم مستودع السرّ ومستند الأمر إليه أنت يا هرم، مثل هذا فليست العشيرة. وقال: إلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم^(٢).

وإذا كان الحكام قد نالوا التقدير في حياتهم، فإن ذلك لم يتوقف بعد مماتهم، وتعدى الإكرام لينال أبناءهم وقومهم، ومن ذلك أن ابن الحصين بن الحُمام "أتى باب معاوية ابن أبي سفيان، فقال لأذنه: استأذن لي على أمير المؤمنين، وقل: ابن مانع الضيم، فاستأذن له، فقال معاوية: ويحك! لا يكون هذا إلا ابن عروة بن الورد العبسي"^(٣)، أو الحصين بن الحُمام المَرِّي، أدخله. فلما دخل إليه قال له: ابن مَنْ أنت؟ قال: أنا ابن مانع الضيم الحصين بن الحمام، فقال: صدقت. ورفع مجلسه وقضى حوائجه^(٤). وشبيه بهذا ما جرى في مجلس لعبد الملك بن مروان، أذكره بتمامه لما فيه من طرافة وترغيب في الأدب وأهله: "قال معبد بن خالد البجليّ: ثم تقدمنا إليه معشر عدوان، قال: فقدّمنا رجلاً وسيماً جميلاً، وتأخرت - وكان معبد دميماً - فقال عبد الملك: مَنْ؟ فقال الكاتب: عدوان، فقال عبد الملك:

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوِّ نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَغَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَلَمْ يَرْعَوْا عَلَى بَعْضِ
وَمِنْهُمْ كَانَتْ السَّادَا تُ وَالْمَوْفُونَ بِالْفَرَضِ

ثم أقبل على الجميل فقال: إيه! فقال: لا أدري، فقلت من خلفه:

وَمِنْهُمْ حَكَمَ يَقْضِي فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضِي
وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُ الْحَا جَّ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ
وَهُمْ مَذَّ وَلِدُوا شَبُؤَا بِسِرِّ النَّسَبِ الْمُحْضِ

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٢٧٦/١.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٣١٥/١٦. والنويري، نهاية الأرب ٢٧٣/٣. والألوسي، بلوغ الأرب ٢٨٩/١. وفي البيان والتبيين أن عمر قال له: لهذا العقل تحاكت العرب إليك (البيان والتبيين ٢٣٧/١).

(٣) عروة بن الورد: من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها، كان يلقب بعروة الصعاليك؛ لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. قال عبد الملك بن مروان: من قال إن حاتماً أسبح الناس فقد ظلم عروة بن الورد (الأغاني ٦/١٤).

(٤) الأصفهاني، الأغاني ٣١٥/١٦. ولويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط٤، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١، ص ٧٣٣.

قال: فتركني عبد الملك ثم أقبل على الجميل فقال: من هو؟ قال: لا أدري، فقلت من خلفه: ذو الإصبع، قال: فأقبل على الجميل فقال: ولم سمي ذو الإصبع؟ فقال: لا أدري، فقلت من خلفه: لأن حية عضت إصبعه فقطعتها، فأقبل على الجميل فقال: ما كان اسمه؟ فقال: لا أدري، فقلت من خلفه: حرثان بن الحارث، فأقبل على الجميل فقال: من أيكم كان؟ قال: لا أدري، فقلت من خلفه: من بني ناج، فقال:

أَبْعَدُ بَنِي نَاجٍ وَسَعْيُكَ بَيْنَهُمْ
إِذَا قُلْتُ مَعْرُوفًا لِأَصْلَحِ بَيْنَهُمْ
فَلَا تُثْبِعَنَّ عَيْنِيكَ مَا كَانَ هَالِكًا
يَقُولُ وَهَيْبٌ لَا أَصْلَحُ ذَلِكَا
فَاضْحِي كَظْهَرِ الْعِيرِ جُبَّ سَنَامُهُ
تُطِيفُ بِهِ الْوِلْدَانُ أَحَدُ بَارِكَا

ثم أقبل على الجميل، فقال: كم عطاؤك؟ قال: سبعمائة، فقال لي: في كم أنت؟ قلت: في ثلاثمائة، فأقبل على الكاتبين، فقال: حُطَّا من عطاء هذا أربعمائة، وزيداهما في عطاء هذا، فرجعت وأنا في سبعمائة، وهو في ثلاثمائة^(١).

يعكس الخبر السابق صورة الاهتمام البالغ الذي كان العرب يولونه للشعر والشعراء بشكل عام، ولمسألة النسب والإلمام بأخبار الناس وخاصة ما كان منها يتصل بالقبيلة التي ينتمي إليها الفرد؛ وكذلك اهتمام الخلفاء واحتفاءهم بالشعراء إدراكاً منهم لمكانة الشاعر في قومه وأثره البالغ في حياة العرب، فقد رأينا كيف كان عبد الملك ملماً بأخبار العرب ومهتماً برواية أشعارهم، وكيف جعل معرفة الرجل بأحوال قومه وأخبارهم عاملاً حاسماً في تقدير قيمة العطاء الذي يستحقه من بيت المال؛ وهذا يعطي تصوراً واضحاً عن مقدار اهتمام العرب بالشعر ورواته، مما قد يعد بداية مهمة لعملية الرواية والجمع والتدوين التي نشطت فيما بعد واستطاعت أن تحفظ كثيراً من الشعر العربي من الضياع، وأن توصله إلى الأجيال اللاحقة، وكل ذلك بفضل الاهتمام والرعاية والتشجيع الذي لقيه الناس من الخلفاء والولاة.

ومن مظاهر احتفاء الجاهليين بحكام العرب أنهم كانوا يعقرون رواحلهم على قبور بعضهم وقد اختلف في سبب ذلك، والذي أراه هو أنهم وجدوا الإبل أعزَّ ما يملكون، فنحروها دليلاً على هوانها إزاء المصيبة العظيمة المتمثلة بفقد هذا الميت. وقد روى القالي في أماليه أنه "لما مات عمرو بن حممة الدوسي، وكان أحد من تتحاكم إليه العرب، مرَّ بقبره ثلاثة نفر

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٥٢٣/٣-٥٢٤. والأصفهاني، الأغاني ٨٨/٣-٩٠ (مع بعض الاختلاف في الروايتين).

من أهل يثرب قادمين من الشام: الهذم بن امرئ القيس بن الحارث، وعتيك بن قيس بن هيثمة، وصاحب بن قيس بن هيثمة، فعقروا رواحلهم على قبره^(١). ويورد القالي بعد هذا الخبر شعرا قاله كل واحد من هؤلاء الثلاثة يبكي فيه عمرو بن حممة ويعتد مأثره ويدعو لقبره بالسقيا. فقال الهذم^(٢):-

لقد ضمت الأثراء منك مرزاً
حليماً إذا ما الحلم كان حزامه
إذا قلت لم تترك مقالا لقائل
سقى الأرض ذات الطول والعرض منجم
وما بي سقيا الأرض لكن تربة
عظيم رماد النار مشتت ترك القدر
وقوراً إذا كان الوقوف على الجمر
وإن صلت كنت الليث يحمي حمى الأجر
أحم الرحا واهي العرى دائم القطر
اضلك في أحشائها ملحد القبر

وقال عتيك بن قيس:

برغم العلى والجود والمجد والندى
لقد غال صرف الدهر منك مرزاً
يضم الحفاة الطارقين فناؤه
ويستهزم الجيش العرمزم باسمه
فلا تبعدن إن الحثوف موارد
طواك الردى يا خير حاف وناعل
نهوضاً بأعباء الأمور الأثاقل
كما ضم أم الرأس شغب القبائل
وأن كان جرأراً كثير الصواهل
وكل فتى من صرفها غير وائل

ثم قام حاطب بن قيس فقال:

سلام على القبر الذي ضم أعظماً
فيا قبر عمرو جاد أرضاً تعطفت
تضمنت جسماً طاب حياً وميتاً
فلو نطقت أرض لقال ترأبها
فلا يبعدتك الله حياً وميتاً
وقد كنت تمضي الحكم غير مهلل
لقد هدم العلياء موتك جانباً
تخوم المعالي حوله فتسلم
عليك ملت دائم القطر مرزم
فانت بما ضمنت في الأرض معلّم
إلى قبر عمرو الأزد حل التكرم
فقد كنت نور الخطب والخطب مظلم
إذا غال في القول الأبل الغشمشم
وكان قديماً ركنها لا يهدم

(١) القالي، الأمالي، ١٤٣/٢-١٤٤. والألوسي، بلوغ الأرب ١/٣٣٢-٣٣٤.

(٢) انظر القصة مع الشعر في المصدرين السابقين وفي الصفحات ذاتها.

٢- المكانة الدينية في الجاهلية: تميز بعض حكام العرب بمكانة دينية مرموقة بسبب بعض الأعمال التي كانوا يقومون بها، وقد عرف العرب لهؤلاء الحكام ميزتهم تلك، فأقرّوهم عليها اعترافاً بفضائلهم، وتقديراً لهم بسبب ذلك. ومن الحكام الذين نالوا شهرة في هذا المجال: القلمس الكناني، ووكيع بن سلمة الإيادي، وأبو سيّارة العدوانى^(١)، وقسّ بن ساعدة الإيادي. فقد كان القلمس^(٢) - وهو لقب يعني (الفقيه أو المفتي) - ملكاً في قومه، وكان عالم قومه وفقههم في الدين^(٣). وكان أهم الأعمال التي يتولاها القلمس نَسْءُ الشهور الحرم، وذلك بأن يدعو الناس في آخر موسم الحج إلى الاجتماع حوله، فإذا اجتمعوا ارتقى موضعاً مرتفعاً ظاهرًا، أو قام على ظهر جملة ليراه الناس، ثم يقول بأعلى صوته: "اللهم إني لا أعاب ولا أحاب، ولا مردّ لما قضيت، اللهم إني أحلت شهر كذا (ويذكر شهراً من الأشهر الحرم وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه)، وأنسأته إلى العام القابل، أي أخرت تحريره، وحرّمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي". فكانوا يحلون ما أحلّ ويحرّمون ما حرّم^(٤). وقد أبطل الإسلام النسبيّ وعده من الأمور المحرّمة لما فيه من تحليل للحرام وتحريم للحلال^(٥)، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا النَّسَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَ عَمَّا وَحُرِّمُونَهُ عَمَّا لَبِثُوا طَوَّافِينَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنُهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦).

أما وكيع بن سلمة الإيادي فكان قد ولي البيت بعد جرهم، وبنى صرحاً بأسفل مكة وجعل فيه أمة يقال لها (حزورة)، وبها سميت حزورة مكة، وجعل في الصرح سلماً، فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى، وكان ينطق بكثير من الخبر، وكان علماء العرب يزعمون

(١) اسمه عميلة بن الأعزل بن خالد العدوانى (جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٤٣).

(٢) اختلف في اسمه فقيل: حذيفة بن عبد بن فقيم الكناني، وقيل: جنادة بن عوف بن أمية الكناني، وقيل أمية بن عوف بن جنادة الكناني. ينظر: الأصفهاني، الأغاني ٢٥/٢٣٠٢٤. وابن حزم (على بن أحمد الأندلسي ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٨٩. والزركلي، الأعلام ٥/ ٢٠٣.

(٣) جواد علي، المفصل ٥٠١/٨.

(٤) المرجع السابق ٥٠١/٨.

(٥) انظر في ذلك: الطبري، تاريخ الطبري ٥٢٤/١. والزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، الكشف عن حقائق التنزيل، ط ٣، ج ٢، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص ١٨٩. والفخر الرازي (محمد بن ضياء الدين الرازي ٦٠٤هـ). تفسير الفخر الرازي، ط ١، ج ٨، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥، ص ٥٧-٥٩. والقرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط ١، ج ٤، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩، ص ٥٦-٥٨. ومحمد علي السائس وزميله، تفسير آيات الأحكام، ط ١، ج ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٣-٤٤.

(٦) سورة التوبة الآية ٣٧.

أنه صدِّيق من الصدِّيقين^(١). وممن حظي بمكانة دينية متميزة في حياة الجاهليين أبو سيارة العدوانى الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة^(٢). وكان يركب حماراً ضرب المثل بطول عمره حتى قيل: "أصح من عير أبي سيارة"^(٣)، لأنه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عاماً^(٤)، ويقال إنه أول من سنّ الدية مائة من الإبل^(٥). وفيه يقول الراجز:

خَلُّوا السَّبِيلَ عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنَى فِزَارَةَ
حَتَّى يُجِيزَ سَالِمًا حِمَارَةَ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ يَدْعُو جَارَةَ^(٦)

ومنهم كذلك قس بن ساعدة الإيادي، وهو الذي قال فيه النبي (ﷺ): "رأيتَه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وُعُوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت". وهو القائل: "يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الأبناء والأجداد، أين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم يُنكر، أقسم فسّ قسماً بالله، إن لله لدينا هو أَرْضَى لكم من دينكم هذا"^(٧). ورُوي أن الرسول (ﷺ) قال: "يرحم الله قسّاً، إنني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمه وحده"^(٨). وقال عنه ابن قتيبة: "كان مؤمناً بآيات الله، وكان حكم العرب"^(٩).

٣- تكريمهم في الإسلام: مثلما تعددت مظاهر الاحتفاء والتقدير التي حظي بها الحكام في العصر الجاهلي، تعددت أدلة الاحتفاء بهم بعد مجيء الإسلام، من ذلك وجود صلة قرابة ورحم بين عدد من هؤلاء الحكام والنبي (ﷺ)؛ فقد كان منهم هاشم بن عبد مناف وعبد

(١) الميداني، مجمع الأمثال ١٦٧/٢. والالوسي، بلوغ الأرب ٢٦٠/٢-٢٦١.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥١.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال ٥٠٢/١.

(٤) الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ١، ج ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٣٩. والميداني، مجمع الأمثال ٥٠٢/١. وجواد علي، المفصل ٣٨٦/٦.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥١.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ٩٠-٩١. والميداني، مجمع الأمثال ٥٠٢/١. والالوسي، بلوغ الأرب ٢٤٨/١. وجواد علي، المفصل ٣٨٦/٦.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٨-٣٠٩. وابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٤/٤. والأصفهاني، الأغاني ١٥/٢٣٦-٢٤١. وابن كثير، البداية والنهاية ١٧٨/٢-١٨٦. والبخاري (عبد القادر بن عمر ت ١٠٩٣ هـ)، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ٤، ج ٩، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٨٩.

(٨) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق: عبد المعطي قلجعي، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨، ص ١١٣.

(٩) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦١.

المطلب بن هاشم وابناه الزبير وأبو طالب، وكفى هؤلاء شرفاً وفخراً اتصال نسبهم بالنسب النبوي الشريف، وكذلك فقد حظي عدد من الحكام بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وأبي سفيان بن حرب وغيلان بن سلمة؛ فقد أسلم الأقرع وشهد فتح مكة وحنينا والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه^(١). وقد ورد أنه لما قدم عيينة بن حصن بسبي بني العنبر (وهم من تميم) قام الأقرع بن حابس، فكلّم رسول الله (ﷺ) فيهم، فأعتق بعضاً وأفدى بعضاً^(٢). وقد فخر الفرزدق بهذه الواقعة في شعر سأذكره في موضعه من هذا الفصل (بإذن الله).

وأما عيينة بن حصن فقد أسلم قبل فتح مكة، وشهد حنينا والطائف، وكانت له صحبة مع النبي عليه الصلاة والسلام^(٣). وقد روي أنه كان فيه جفاء سكان البوادي؛ فقد دخل على النبي (ﷺ) وعنده عائشة. فقال: من هذه؟ (وذلك قبل أن ينزل الحجاب)، فقال: "هذه عائشة" فقال: ألا أنزل لك عن أم البنين؟ فغضبت عائشة وقالت: من هذا؟ فقال النبي (ﷺ): "هذا الأحمق المطاع" - يعني في قومه^(٤).

ومن الحكام الذين حظوا بصحبة النبي (ﷺ) غيلان بن سلمة، وقد أسلم بعد فتح الطائف، وكان أحد وجوه ثقيف^(٥)، وكان عنده عشر نسوة فأمره الرسول (ﷺ) فاختر أربعاً منهن وطلق الباقي. ومن الحكام الذين نعموا بصحبة النبي (ﷺ) أبو سفيان بن حرب، وقد أكرمه عليه الصلاة والسلام بعدما أسلم قبيل فتح مكة بأن جعل من يدخل دار أبي سفيان آمناً، وذلك تقديراً لمنزلته بين الناس، وحفظاً لشأنه، وأخباره مع الرسول (ﷺ) كثيرة.

ومن المظاهر المهمة لتكريم الإسلام حكام العرب إقراره كثيراً من أحكامهم التي أصدروها في الجاهلية، فصارت من أحكام الإسلام، وهي كثيرة منها أحكام تتعلق بتحريم الخمر، فقد كان عدد من الحكام ألى على نفسه ألا يشرب الخمر في الجاهلية تكريماً وصيانة لها، منهم صفوان بن أمية بن محرز الكناني، والوليد بن المغيرة الذي تنسب إليه أمور أخرى منها "أنه أول من خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية، فخلع الناس نعالهم في الإسلام، وأول

(١) ابن حجر، الإصابة ٢٥٢/١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ٢٧٨/٤.

(٣) ابن حجر، الإصابة ٦٣٨/٤-٦٣٩.

(٤) المصدر السابق ص ٦٣٩.

(٥) المصدر السابق ٢٥٣/٥.

من قضى بالقسامة^(١) فأقرّها الإسلام^(٢). وممن حرّم الخمر في الجاهلية (من حكام العرب) عبد الله بن جدعان، وعامر بن الظرب، وقس بن ساعدة، وعبد المطلب بن هاشم، ثم جاء الإسلام بعد ذلك بتحريمها.

ومن الأحكام التي سنّها حكام العرب وأقرّها الإسلام، ما قضى به عامر بن الظرب بشأن حكم الخنثى^(٣) وبشأن الخلع^(٤)، وما قضى به عمرو بن جشم (ذو المجاسد) بتوريث البنات بعدما كانت العرب تورث البنين دونهن "فورث ذو المجاسد، وهو الذي قرر أن للذكر مثل حظ الأنثيين، وقد وافق حكمه حكم الإسلام^(٥)". وكذلك ما قضى به الأقرع بن حابس بتحريم القمار^(٦) فجاء الإسلام بتقريره.

٤ - **المكانة الأدبية:** وكما حظي الحكام بمكانة اجتماعية مرموقة، فإنهم حظوا بمكانة أدبية لا تقل شأنًا عن مكانتهم الاجتماعية، فالشاعر - كما نعلم - كان لسان قومه المنافح عن أعراسهم، والمتغني بأمجادهم ومآثرهم، والمؤرخ لأيامهم ووقائعهم وانتصاراتهم، فلا عجب أن يكون الشاعر الذي يدفع عن قومه بلسانه، مساويا للفارس الذي يدفع عنهم بسيفه ولسانه، بل إنه في أحيان كثيرة كان يحظى بمكانة لا يحلم بالوصول إليها أعظم الفرسان، إدراكًا منهم لعظيم الأثر الذي تتركه (الكلمة) في نفوس الناس، حتى ضربوا بذلك المثل، فقالوا: "رَبّ قول أشدّ من صول"^(٧)، وخصوصًا إذا كانت هذه الكلمة شعرا ينتقل بين القبائل، ويتداوله الرواة فينشرونه بين الناس، فهي حينئذٍ أبلغ أثرا، ولذلك رأينا العرب تهتم (بولادة) الشاعر. ويقول ابن رشيق: "كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر، أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر - كما يصنعون في الأفراح - ويتباشرون الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراسهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنتون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"^(٨).

(١) القسامة: الجماعة يقسمون على الشيء أو يُشهدون. ويمين القسامة منسوبة إليهم (اللسان ١٦٥/١).

(٢) جواد علي، المفصل ٦٧٠/٤.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ١٥٩/١. وابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٣. والميداني، مجمع الأمثال ٣٤٦/٢.

(٤) الأندلسي، نشوة الطرب ٥٩٢/٢. وجواد علي، المفصل ٥٥٢/٥.

(٥) ابن حبيب، المحبر، ص ٣٢٤. وجواد علي، المفصل ٤٨٠/٥.

(٦) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة ٢٤٦/٢.

(٧) العسكري، جمهرة الأمثال ٤٧٦/١. والميداني، مجمع الأمثال ٣٥٩/١. وهذا من كلام أكتم بن صيفي.

(٨) ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت ٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط ١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١، ص ٥٣.

وإذا نظرنا إلى حكام العرب، فإننا سنجد بينهم عددا كبيرا من الشعراء المتميزين كأمية بن أبي الصلت، والحارث بن عباد، والحسين بن الحمام، وذو الأصبغ العدواني، والزبير بن عبد المطلب، وأبي طالب بن عبد المطلب، وعوف بن الأحوص، وغيلان بن سلمة، ومتمم بن نويرة، ومعاوية بن مالك (معوذ الحكماء)، وضمرة بن ضمرة، وعبد المطلب بن هاشم، وغيرهم؛ إذ نجد لعدد من هؤلاء دواوين شعرية مستقلة، فهناك ديوان أمية بن أبي الصلت، وديوان لذي الأصبغ العدواني، وديوان لأبي طالب مما يدل على غزارة إنتاجهم الشعري وجودته. كما أن هناك شعراء آخرين، جمعت أشعارهم حديثا نذكر منهم الحارث بن عباد، والحسين بن الحمام وغيلان بن سلمة، وضمرة بن ضمرة، وعبد المطلب بن هاشم، وهو ما يعكس اهتمام الباحثين والأدباء بهذا الشعر ومحاولة جمعه ونشره، فضلا عن عدد آخر من الشعراء الذين لم يصل إلينا من شعرهم سوى مقطوعات وأبيات قليلة.

ولا تقلّ الخطابة شأنًا وأهمية ودورا عن الشعر في حياة العرب الجاهليين - على ما للشعر من تقديم وإيثار - ؛ ولذلك فقد أولاها الحكام جانبًا من اهتمامهم، وبرز منهم عدد من الخطباء البلغاء من مثل قس بن ساعدة الذي عدّه الجاحظ خطيب العرب قاطبة، يقول الجاحظ: "ولإياد وتميم خصلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله (ﷺ) هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ وموعدة، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتتقطع دونه الأمال. ولذلك كان [قس^(١)] خطيب العرب قاطبة^(٢)". ومن الحكام الخطباء البلغاء عبد المطلب بن هاشم، والحارث بن عباد، وأبو سفيان بن حرب، وهرم بن قطبة، وأكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة. وسوف نتحدث عن الخطابة والخطباء في الفصل الثالث من هذه الدراسة - إن شاء الله - .

ولم تقتصر مساهمة الحكام الأدبية على الشعر والخطابة، فهناك إسهام واضح في مجالي الوصايا والأمثال، وقد برز في هذين الفنين عدد من الحكام، أذكر منهم أكثم بن صيفي الذي لا يكاد كتاب من كتب الأمثال يخلو من أمثاله وحكمه، وكذلك عامر بن الظرب، والأفعى

(١) [] وما بينهما زيادة من الباحث.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٥٢/١.

الجرهمي، وذا الإصبع العدواني صاحب الوصية المشهورة لابنه أسيد، وهي الوصية التي اهتم بها أهل الأدب لما فيها من حض على المكارم، وبيان لأسباب السيادة والرفعة^(١).

وكما كان للحكام دور مهم وفَعَال في فض الخصومات وإطفاء نيران المنازعات بين الناس، فقد كان لبعضهم دور في حلّ (النزاعات الأدبية)، وذلك بتصديهم للتحكيم بين الشعراء كالذي فعله ربيعة بن حذار عندما جلس للحكم بين الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم والمخبل السعدي وعبد بن الطبيب حين ادّعى كل منهم أسبقية في الشعر^(٢).

أهمّ مصادر دراستهم: تنوعت مصادر دراسة أدب حكام العرب، وتعددت بتعدد مجالات التأليف وكثرة عدد المؤلفين الذين ألّفوا في المجالات التي تتصل بهذه الفئة. وتكاد جميع هذه المصادر تكون من المصادر القديمة التي ألّفت في وقت مبكر؛ إذ إن معظمها يعود إلى القرون الستة الأولى من الهجرة، بينما افتقرت المؤلفات الحديثة - تقريباً - لهذا الأمر، وليس هناك كثير من الكتب التي تناولت هذا الموضوع، أو درست جانباً من جوانبه - قياساً إلى المصادر القديمة - .

وقد حفلت المصادر القديمة بكثير من الأخبار والمعلومات المتصلة بموضوع هذه الدراسة، وشكلت العنصر الأساسي والأهم لها، ومن أهم تلك المصادر:

أ- كتب المختارات والدواوين؛ ومن أهمها: المفضليات للمفضل الضبي؛ فقد أورد المفضل في هذا الكتاب عدداً من قصائد حكام العرب بلغ عددها (ست عشرة قصيدة ضمت ثلاثمائة وواحداً وسبعين بيتاً)، والأصمعيّات للأصمعي الذي أورد بدوره عدداً من تلك القصائد بلغ (سبع قصائد ضمت سبعين بيتاً)، وكتب الحماسة المختلفة كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري والحماسة البصرية، وقد كان أكثر هذه (الحماسات) اهتماماً بشعر الحكام الحماسة البصرية التي حفلت بسبع وعشرين قصيدة، ومن كتب الاختيارات المهمة كتاب منتهى الطلب لمحمد بن ميمون الذي أورد عشر قصائد من شعر حكام العرب؛ وهناك بالإضافة لما سبق ذكره - بعض المصادر التي عنيّت

(١) سيأتي ذكر هذه الوصية والحديث عنها في موضعها من هذه الدراسة.

(٢) المرزباني، الموشح، ص ٩١.

بذكر أخبار وأثار حكام العرب أبرزها جمهرة أشعار العرب للقرشي وجمهرة خطب العرب لأحمد زكي صفوت، وقد ورد فيه عدد من خطب الحكام، فضلاً عن دواوين الشعراء المعنيين بهذه الدراسة كديوان أمية بن أبي الصلت وديوان ذي الإصبع العدواني وديوان أبي طالب بن عبد المطلب.

ب- كتب الأدب والمعارف العامة، ومن أهمها: البيان والتبيين، والحيوان، والبرصان والعرجان للجاحظ، وقد تضمنت هذه الكتب طائفة من الأخبار المهمة المتصلة بحكام العرب، والمعارف وعيون الأخبار لابن قتيبة، وكذلك العقد الفريد لابن عبد ربه والأمالى للقالى اللذان شكلا رافداً مهماً رفد الدراسة بمادة غزيرة من الأخبار والأشعار؛ أما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني فكان من المصادر الغنية التي حفلت بكم وافر من المادة اللازمة لدراسة أدب الحكام، مثلما تضمنت بعض المصادر كالموشح للمرزباني وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري والبصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي وأمالى المرتضى، والعمدة لابن رشيق ومجمع الأمثال للميداني، وبلوغ الأرب للألوسي - تضمنت معلومات وأخباراً مفيدة أمدت الباحث وأعانتة للوقوف على ما يتصل بموضوع الدراسة مما تحويه تلك المصادر.

ج- كتب التاريخ والتفسير والسيرة النبوية، ومن أهمها: السيرة النبوية لابن هشام الذي زود الدراسة بكثير من المعلومات المهمة والمفيدة المتعلقة ببعض الحكام، وخاصة من كان منهم قريب عهد أو صلة بالنبي (ﷺ) مثل هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وأبي طالب والزبير ابني عبد المطلب والأقرع بن حابس وغيلان بن سلمة وغيرهم، ومن تلك المصادر تفسير الطبري وتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري بما يحويانه من أخبار وأشعار، فقد حوى كتاب تاريخ الطبري أخباراً تتصل بعدد كبير من الحكام، وورد فيه ذكر اثنين وعشرين حكماً من حكام العرب. ومن تلك المصادر أيضاً الروض الأنف للسيهلي والكمال في التاريخ لابن الأثير وتاريخ اليعقوبي الذي تحدث عن حكام العرب وعن أسباب لجوء

العرب إلى التحكيم، وأورد أسماء عدد من هؤلاء الحكام. وهناك أيضا كتاب أبي سعيد الأندلسي نشوة الطرب الذي اهتم هو الآخر بذكر أخبار بعض الحكام وأشعارهم. ومن المراجع الحديثة كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي، وقد حوى كثيرا من المعلومات والأخبار المتصلة بالحكام، وتحدث بإسهاب عن الحكام والتحكيم.

د- كتب التراجم والسير والأنساب، ومن أهمها: طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي الذي تضمن ذكر واحد وعشرين حكما من حكام العرب، وصنف بعضهم في طبقات الشعراء كأمية بن أبي الصلت وبشامة بن الغدير وحسين بن الحمام والزبير بن عبد المطلب وسانان بن أبي حارثة وضمرة بن ضمرة وغيرهم، وأورد شيئا من أشعارهم. وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الذي ذكر خمسة من الشعراء الحكام، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وقد أفادت منه الدراسة في الترجمة للحكام وتحديد أنسابهم، مثلما أفادت من عدد آخر من كتب التراجم والسير أبرزها المؤلف والمختلف للامدي ووفيات الأعيان لابن خلكان والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، أما المراجع الحديثة فإن أهمها كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي الذي أورد أسماء اثنين وأربعين حكما من حكام العرب مع بعض المعلومات والأخبار المفيدة المتعلقة بهم، وهناك أيضا معجم الشعراء لعفيف عبد الرحمن الذي ترجم لعدد من الشعراء الحكام ودلّ على بعض مصادر دراستهم.

هـ- المعاجم وكتب اللغة، ومن أهمها: الكامل للمبرد، والاشتقاق لابن دريد ولسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، والقاموس المحيط للفيروز أبادي والمزهر السيوطي. وهذه الكتب - كما هو معروف - تحفل بكثير من الأخبار والأشعار والأمثال، وقد شكلت مصدرا مفيدا أثرت منه الدراسة واستمدت بعض مادتها من صفحاتها. وهناك أيضا كتاب خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي الذي اهتم هو الآخر بالحديث عن أخبار الحكام وأدبهم الشعري والنثري وساهم في تزويد الدراسة بنصيب مؤثر من المادة المطلوبة.

– أفعى نجران (أقدم حكام العرب):

اختلفت المصادر التي تحدثت عنه – على قلتها –، اختلفت في اسمه ونسبه؛ ففي حين يذكر ابن حبيب أنه (الأفعى بن الحصين بن غنم بن رهم بن الحارث الجرهمي^(١))، فإن أبا سعيد الأندلسي يقول إن اسمه هو (القلمس بن عمرو بن همدان بن مالك بن منتاب بن زيد بن وائل بن حمير) وأن الأفعى لقب له^(٢). وسواء أكان الصحيح ما ذكره ابن حبيب أم ما ذكره أبو سعيد، ولعدم تمكننا من ترجيح إحدى الروايتين بسبب افتقارنا إلى الدليل، فإن ما يعيننا هو اتفاق تلك المصادر على أنه كان ملكا على نجران، وحكيما في الوقت ذاته، تقصده العرب في قضاياها فيحكم بينها ولا يرد حكمه^(٣). وأنه هو الذي حكم بين أبناء نزار بن معد، وأنه كان "داعيا من دعاة سليمان عليه السلام؛ أرسلته إليه بلقيس وكان نائبها على نجران، فرأى من سليمان ما علم به أنه نبي وأمن وحسن إيمانه. وخطب الناس بعد موت سليمان وأحسن ذكره، ورثاه بشعر ذكر فيه ذا القرنين، فقال:

وكان الصَّعْبُ في دُنْيَاهُ صَعْبًا وَحُكْمُ الدَّهْرِ كانَ لَهُ قَرِينُ
وكانَ عَلَيْهِ لِلْأَيَّامِ دَيْنٌ فَقَدْ فُضِيَتْ عَنِ الْمَرْءِ الدِّيُونُ

وأكثر ما يعيننا من شأن (الأفعى) هو قصة تحكيمه بين أبناء نزار؛ فقد ورد أن نزارا جمع بنيه قبل وفاته، وأوصاهم بالتحاكم في الميراث إلى أفعى نجران. فلما مات رحلوا إلى الأفعى، فبينما هم في الطريق مرّ بهم أعرابي ينشد جملا شاردا، فسألهم عنه، فقال أحدهم: هل جملك أعور؟ قال: نعم، وقال الآخر: هل هو أزور؟ قال: نعم، فقال الثالث: هل هو أبتّر؟ قال: نعم، وقال الرابع: هل هو شرود؟ فقال الأعرابي: جملي عندكم! وألحّ عليهم حتى اتفقوا على التحاكم إلى الأفعى، وهناك تقدّم الأعرابي بقصته إلى الأفعى الذي قضى ببراءة أبناء نزار بعدما سمع منهم تعليلا مقنعا لما قالوه للأعرابي عن أوصاف جملة. ثم قدّم لهم طعاما وشرابا، وجلس بحيث يسمع كلامهم دون أن يشعروا به؛ فسمع منهم أمورا عجيبة تأكد من صحتها فيما بعد، ثم جلس وحكم بينهم وقسم الميراث بطريقة حازت رضا المتخاصمين، وطابت نفوسهم بما أعطى كل واحد منهم^(٤).

(١) ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٢.

(٢) الأندلسي، نشوة الطرب ١/ ١٦٩.

(٣) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٣٦٢. والزركلي، الأعلام ٥/ ١.

(٤) انظر القصة مفصلة في: الطبري، تاريخ الطبري ٥١٤-٥١٥. والمسعودي (علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: سعيد اللحام، ط ١، ج ٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ص. ص. ١١٩-١٢٣. والميداني، مجمع الأمثال ٣٠-٣٢. والأندلسي، نشوة الطرب ١/ ٣١٥-٣١٧.

– الأقرع بن حابس التميمي :

هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي^(١)، وهناك من يرى أن الأقرع لقب له لقرع كان برأسه، وأن اسمه فراس^(٢)، سيّد من سادات تميم وزعيم من زعمائها، كان عالم العرب في زمانه^(٣) وحكيماً من حكام الجاهلية، وآخر من اجتمع له الموسم والقضاء بعكاظ قبل الإسلام^(٤). تحاكم إليه جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي في المنافرة المشهورة بينهما، "فقال لخالد: ما عندك يا خالد؟ فقال: نزل البراح، ونطعن بالرماح، ونحن فتیان الصباح. قال: ما عندك يا جرير؟ فقال: نحن أهل الذهب الأصفر، والأحمر المعتصر، نخيف ولا نخاف، ونطعم ولا نستطعم، ونحن حيّ لقاح، نطعم ما هبّت الرياح، نطعم الدهر، ونصوم الشهر"^(٥)، ونحن ملوك القسر. فقال الأقرع: واللات والعزى، لو نافرت ملك الروم، وكسرى عظيم الفرس، والنعمان ملك العرب، لنفرت عليهم^(٦) " وكانت هذه المنافرة في الجاهلية قبل إسلامه. ونقل الألوسي عن ابن الكلبي أن الأقرع كان مجوسياً قبل أن يسلم^(٧). ويقال إنه أول من حرّم القمار في الجاهلية ثم جاء الإسلام بتقريره^(٨) وفي ذلك يقول البعيث^(٩) مادحا الأقرع :

وَعَمِيَ الَّذِي أَنْقَادَتْ مَعَدَّ لِحُكْمِهِ فَالْقَوْا بَارِسَانَ إِلَى حَكَمِ عَدْلٍ^(١٠)

وفد الأقرع على النبي (ﷺ) في أشرف بني تميم ورؤسائهم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله (ﷺ) من وراء الحجرات: اخرج إلينا يا محمد، فأدى ذلك رسول الله (ﷺ) من صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا... فقام عطارذ بن حاجب وتكلم مفتخراً بقومه، فقال رسول الله (ﷺ) لثابت بن قيس بن الشماس: فم، فأجب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٢١٤/٤. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٣٠. وابن كثير، البداية

والنهاية ٢٢٢/٥. وابن حجر، الإصابة ٢٥٢/١. والزركلي، الأعلام ٥/١

(٢) الجاحظ، البرصان والعرجان، تحقيق: عبد السلام هارون، ط ١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٨٥

وابن كثير، البداية والنهاية ٢٢٢/٥. والزركلي، الأعلام ٥/١.

(٣) البغدادي، خزائن الأدب ٢٠/٨.

(٤) أبو عبيدة (معمر بن المثنى)، النقائض...

(٥) في رواية أخرى: ونضمن الدهر.

(٦) البغدادي، خزائن الأدب ٢٠/٨ - ٢١. والألوسي، وبلوغ الأرب ٣٠١/١ - ٣٠٥.

(٧) الألوسي، بلوغ الأرب ٣١٦/١.

(٨) جواد علي، المفصل ١٢٦/٥.

(٩) هو خدّاش بن بشر من بني مجاشع. كان خطيباً وشاعراً. هاجى جريراً. وسمى البعيث لقوله:

تبعث مني ما تبعث بعدما أمرت قواي واستمرّ عزيماً (الشعر والشعراء ٣٢٩)

(١٠) المرزوقي، الأزمنة والأمكنة ٢٤٦/٢.

الرجل في خطبته. فقام ثابت وخطب خطبة ردّ فيها على خطبة عطار. ثم قام الزبرقان بن بدر فأنشد قصيدة تغنى فيها بمكارم قومه وعدّد مناقبهم، فلما انتهى دعا الرسول (ﷺ) حسان بن ثابت - وكان غائبا - فحضر وأجاب شاعر القوم، فلما فرغ من إنشاده قال الأقرع بن حابس: وأبي^(١)، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم الرسول (ﷺ) فأحسن جوئزهم^(٢).

وقد شهد الأقرع غزوة حنين، فلما وزّع الرسول (ﷺ) الغنائم، أعطاه مائة من الإبل لأنه كان من المؤلفة قلوبهم^(٣)، وأعطى أبا سفيان وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن وآخرين غيرهم مائة بعير لكل منهم، وأعطى رجالا غيرهم خمسين من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس السلمي أباعر فتسخّطها، وعاتب رسول الله (ﷺ) فقال^(٤): وكانت نهابا تلافيتها بكري على المهر في الأجرع فاصبح نهبي ونهب الغبيد بين عينة والأقرع فقال رسول الله (ﷺ): اذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فزادوه حتى رضي، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به^(٥).

شارك الأقرع في معارك الفتوحات الإسلامية، وشهد مع خالد بن الوليد وقائعه بأرض العراق، وكان على مقدمته يوم الأنبار، واستعمله عبد الله بن عامر على جيش وسيّره إلى الجوز جان^(٦) فقتل مع من كان معه، وذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه^(٧).

(١) في بعض الروايات (والله). انظر: الأصفهاني، الأغاني ١٥٦/٤.

(٢) انظر تفاصيل الخبر في: ابن هشام، السيرة النبوية ٢١٥/٤ - ٢٢٢. والطبري، تاريخ الطبري ١٨٨/٢ - ١٩٠. والأصفهاني، الأغاني ١٥٢/٤ - ١٥٧.

(٣) كان المؤلفة قلوبهم خمسة عشر رجلا. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٤٢. والزركلي، الأعلام ٥/١ (هامش).

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ١٤٦/٤. والعبيد: اسم فرس عباس بن مرداس.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ١٤٦/٤ - ١٤٧. والطبري، تاريخ الطبري ١٧٥/٢. وابن كثير، البداية والنهاية ٢٢٢/٥. والأصفهاني، الأغاني ٢٩٩/١٤ - ٣٠٠. وابن منظور، لسان العرب ١/١٨١ (مادة الف).

(٦) الجوزجان: اسم كورة من كور بلخ بخراسان.

(٧) ابن كثير، البداية والنهاية ٢٢٢/٥. وفي الأغاني (٢٧٩/١١) أن وفاة الأقرع كانت زمن خلافة عمر بن الخطاب.

- أكتثم بن صيفي :

هو أكتثم بن صيفي بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم^(١) واحد من أشهر حكام تميم لا بل العرب، وحكمائهم ورؤسائهم، وأبعدهم صيتاً، وأعلامهم ذكراً، سيّد مشهور، وزعيم مقدّم، أرسله النعمان بن المنذر في وفد من رؤساء العرب إلى كسرى، وأوصاهم أن يكون أكتثم أول المتكلمين، فتكلم كلاماً تعجب منه كسرى حتى قال له: "ويحك يا أكتثم ما أحكمك وأوثق كلامك، لولا وضعك كلامك في غير موضعه. فقال أكتثم: الصدوق ينبيئ عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكتثم: ربّ قول أنفذ من صَوّل^(٢). وكان ممن يتحاكم إليه في الجاهلية؛ فقد تنافر إليه القعقاع بن معبد بن زرارته وخالد بن مالك بن ربعي بن سلم بن جندل بن نهشل أيهما أكرم، وجعلا بينهما مائة من الإبل، فقال أكتثم : سفيهان يريدان الشرّ! وطلب منهما أن يرجعا عما جاءا من أجله، فأبيا، فبعث معهما رجلاً إلى ربيعة بن حذار ليحكم بينهما^(٣). وقد كره أن يكون حكماً في هذه المنافرة لأن الرجلين من عشيرته، فخشى أن يقع الشرّ بين أبناء العشيرة الواحدة بسبب ذلك، ومن أحكامه التي أقرها الإسلام فيما بعد حكمه في ولد الزنى حين قرّر أن (الولد للفراش^(٤)).

عاش أكتثم بن صيفي إلى أن أدرك مبعث النبي (ﷺ)، فخرج على رأس مائة من قومه قاصدا المدينة، فمات في الطريق، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(٥). وكان عمره قد تجاوز المائة وتسعين عاماً، وله من الشعر ما يدل على بلوغه هذا السن، إذ يقول:

وإن امرأاً قد عاش تسعين حجة إلى مائة لم يسأم الغيش جاهل
مضت مائتان غير سبت وأربع وذلك من غد الليالي قلائل^(٦)

وقد كانت وفاته في السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠ للميلاد)^(٧).

(١) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٠٧. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢١٠. والزركلي، الأعلام ٦/٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٥٢/١. والألوسي، بلوغ الأرب ١٥٢/١ - ١٥٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ط ١، ج ١، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت، ص ٥٦.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال ٣١٨/٢ - ٣١٩.

(٤) جواد علي، المفصل ٥/٥٦٠.

(٥) سورة النساء الآية ١٠٠.

(٦) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٩٩. والبحثري (أبو عبادة الوليد بن عبيد ٢٨٤هـ)، ديوان الحماسة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٢٣. وابن الأثير، الكامل ١/٥١٠. ورواية البيت الثاني فيه :

مضت مائتان غير عشر وفاؤها وذلك من غد الليالي قلائل.

(٧) الزركلي، الأعلام ٦/٢.

- أنس بن مدرك الخثعمي :

هو أنس بن مدرك بن عمرو بن سعد بن عوف بن العتيك بن حارثة بن عمرو بن مبشر بن أكلب بن ربيعة الخثعمي^(١). يكنى أبا سفيان كان سيدا وفارسا وشاعرا، وحكيما من حكام العرب. ونقل ابن حجر عن أبي حاتم السجستاني أن أنس كان سيد خثعم في الجاهلية وفارسها، وأدرك الإسلام فأسلم، وعاش مائة وأربعا وخمسين سنة، وقال لما بلغها^(٢):

إذا ما أمروا عاش الهنييدة سالما وخمسين عاما بعد ذاك وأربعا
تبدل مراً العيش من بعد حلوه وأوشك أن يبلى وأن يتسغسا^(٣)

وقد تحاكم إليه بنو فزارة وبنو هلال في المنافرة التي جرت بينهما؛ فقال بنو هلال: يا بني فزارة أكلتم... الحمار. فقال بنو فزارة: أكلناه ولم نعرفه، ولكن منكم يا بني هلال من سقى إبله، فلما رويت بقي في الحوض شيء من الماء، فسلح فيه ومذره بسلحه بخلا. فنفر أنس الفزاريين على الهلاليين، فأخذ الفزاريون منهم مائة بعير كانوا تراهنوا عليها^(٤).

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٩١. وابن حجر، الإصابة ٢٧٨/١-٢٧٩.

(٢) ابن حجر، الإصابة ٢٧٩/١.

(٣) الهنييدة: مائة سنة. وتطلق على المائة من الإبل (لسان العرب: هند ١٥/١٤٥).

تسع: أدبر وفني إلا أقله، وكذلك يقال للإنسان إذا كبر وهرم (لسان العرب: سجع ٦/٢٦٨).

(٤) انظر القصة مفصلة في: الميداني، مجمع الأمثال ١/١٤٣-١٤٤. والبغدادي، خزنة الأدب ٧/٥٢٢-٥٢٣.

. والالوسي، بلوغ الأرب ١/٢٩٧-٢٩٨.

* كلمة تחדش الحياء حذفها الباحث.

- حاجب بن زرارة التميمي :

هو حاجب بن زرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم التميمي^(١)، سيد كريم، وزعيم كبير من زعماء العرب، وأحد الحكام المشهورين، والرؤساء الأعلام، وأعلى العرب فداء^(٢)، وأول من حكم في نفسه من الحكام؛ وذلك أنه أسر يوم شعب جبلة، وتنازع عليه الزهدمان^(٣) مع مالك ذي الرقية بن سلمة القشيري، فلم يبرحوا حتى حكموا حاجبا في ذلك فقالوا: من أسرك يا حاجب؟ فقال: أما من ردني عن قصدي ومنعني أن أنجو ورأى مني عورة فتركها فالزهدمان، وأما الذي استأسرت له فمالك، فحكمتوني في نفسي. قال له القوم: قد جعلنا إليك الحكم في نفسك. فقال: أما مالك فله ألف ناقة، وللزهدمين مائة^(٤).

وقصة قوس حاجب مشهورة معروفة، وهي إحدى مفاخر بني تميم؛ فقد وفد على كسرى يستأذنه السماح لبني تميم بدخول ريف العراق بعدما أصابتهم المجاعة، فقال له كسرى: إنكم معشر العرب غثر، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا. قال: فمن لي بأن تقي؟ قال: أرهق قوسي. فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا يفي؟ قال كسرى: ما كان ليسلمها لشيء أبدا. فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف. ثم إن النبي (ﷺ) دعا لهم فأحيوا، ومات حاجب فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى، واسترد قوس أبيه^(٥). وقد ذكر ابن حجر في (الإصابة) أن حاجبا قد أسلم، وأن النبي (ﷺ) بعثه على صدقات بني تميم^(٦)، غير أن هناك من يعارض هذه الرواية ويشك في إسلام حاجب ويرى أنه لم يدرك الإسلام؛ لأن الذي وفد على الرسول (ﷺ) هو ابنه عطارد، وهو الذي افتك قوس أبيه من كسرى بعدما أخبره أن أباه قد هلك^(٧). ولذلك فإنني أرجح الرأي القائل بعدم إدراك حاجب الإسلام.

(١) ابن حجر، الإصابة ٦٥٦/١.

(٢) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٥. والميداني، مجمع الأمثال ٧٧/٢.

(٣) هما زهدم وقيس ابنا حزن بن وهب بن رواحة العبسيان (الأغاني ١٥٥/١١).

(٤) الأصفهاني، الأغاني ١٥٥/١١ - ١٥٦.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٠٨. وابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٥٨/١. والثعالبي، (عبد الملك بن محمد

٤٢٩هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، دار المعارف،

القاهرة، ١٩٨٥، ص ٦٢٥-٦٢٦. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٥٠/١. وهبة الله الحلبي (٥٦٠هـ)،

المناقب المزيديّة، تحقيق: محمد خريسات وزميله، ط ١، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠، ص ٦٥-٦٦.

٦٦. والبغدادي، خزنة الأدب ٣٥٤/١ - ٣٥٥. والالوسي، بلوغ الأرب ١٢٣/١ - ١٢٤.

(٦) ابن حجر، الإصابة ٦٥٦/١.

(٧) انظر المصادر السابقة التي ذكرت قصة قوس حاجب.

– الحارث بن عباد البكري :

هو الحارث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل^(١). أحد الحكام الرؤساء والشعراء الفرسان، يعرف بفارس النعامة، وكان قد اعتزل حرب البسوس مع قبائل بني بكر، واستعظم قتل كليب لسؤوده بسبب ناقة؛ فنزع سنان رمحه وحل وتر قوسه، وقال في ذلك: " لا ناقتي في هذا ولا جملي "^(٢) فأرسلها مثلاً.

وبقي على ذلك حتى أسرف مهلهل في قتل بني بكر، فأرسل الحارث ابنه بجيرا إلى مهلهل يطلب منه وقف الحرب، والاكتفاء بما أوقع من قتلى ثأراً لكليب، فما كان من مهلهل إلا أن قتل بجيراً وقال له: بُؤِشِشْع^(٣) نَعْلِ كَلَيْبٍ، فلما بلغ الحارث مقتل ولده قال: نعم القتل قتل أصلح بين ابني وائل، فقيل له: إنما قتله بشسع نعل كليب ! فغضب الحارث ودعا بفرسه (النعامة) فجَزَ ناصيتها وهلب ذنبها^(٤)، ثم أنشد^(٥):

قَرَّبَا مَرَبُطَ النَّعَامَةِ مَيْي لَقَحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عَنْ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللُّ هُءِ وَإِنِّي بَحَرَهَا الْيَوْمَ صَالِ
لَا بُجَيْرٌ أَغْنَى فَتِيلاً وَلَا رَهْ طَ كَلَيْبٍ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلَالِ^(٦)

ثم قاد بني بكر في يوم قضة، وهو يوم تحلاق اللمم^(٧)، فأسر مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال له: دلني على عدي (المهلهل)، قال: ولي دمي ؟ قال: ولك دمك. قال: أنا عدي؛ فجَزَ ناصيته وأطلقه؛ فضرب به المثل في الوفاء، فقيل " أوفى من الحارث بن عباد "^(٨).

(١) الأصمعي (عبد الملك بن قريب ٢١٦هـ)، الأسمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وزميليه، ط٥، بيروت، د.ت، ص ٧٠ (هامش) وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٠. والزركلي، الأعلام ١٥٦/٢.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ٢-٣٩١. والميداني، مجمع الأمثال ٢/٢٥٧.

(٣) بُؤِشِشْع: أي كُنْ كَمَنْ يَقْتُلُ بِهِ. وَالشَّسْع: سير يمسك النعل بأصابع القدم (العقد الفريد ٦٨/٦ هامش).

(٤) يقال: هَلَبَ ذَنْبَهُ، أي استأصله جَزْأً، وهو أول من فعل ذلك من العرب إيذاناً بطلب الثأر.

(٥) محمد العبسي، حركة الشعر في قبيلة قيس بن ثعلبة – من بني بكر بن وائل – في العصر الجاهلي، رسالة دكتوراة (غير منشورة) الجامعة الأردنية، ١٩٩٨، ص ٣٣٥.

(٦) الأصمعي، الأسمعيات، ص ٧٠. والبحري، حماسة البحري، ص ٤٦. وابن عبد ربه، العقد الفريد ٦/٦٨.

والقاللي، الأمالي ٣/٢٦. والأصفهاني، الأغاني ٥/٥٢. والعسكري، جمهرة الأمثال ١/١٣٣. وابن

الاثير، الكامل ١/٤٤٧. والبصري (علي بن أبي الفرج ٦٥٦هـ)، الحماسة البصرية، تحقيق: عادل سليمان،

ط ١، ج ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٨.

(٧) انظر محمد جاد المولى، أيام العرب في الجاهلية، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٨) العسكري، جمهرة الأمثال ٢/٣٢٩. والميداني، مجمع الأمثال ٢/٤٤٤.

وكان الحارث في الوفد الذي أرسله النعمان بن المنذر إلى كسرى، فتكلم في مجلس الملك وافتخر بقومه العرب وشدة بأسهم، كما تحدث عن شجاعته وإقدامه حتى تعجب كسرى، وقال لمن حضره من العرب: أكذلك هو؟ فقالوا: فعاله أنطق من لسانه. فقال كسرى: ما رأيت كالسيوم وفدا أحشد، ولا شهودا أوفد^(١). وكانت وفاة الحارث نحو سنة ٥٥٠م^(٢)، ويرى بعض الباحثين أنها كانت بحدود ٥٧٠م^(٣).

(١) انظر قصة الوفد وما جرى من مناظرات في : ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/ ٢٥٠ - ٢٥٦.

(٢) شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٢٨١.

(٣) الزركلي، الأعلام ٢/ ١٥٦.

- حرب بن أمية :

هو حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب أحد زعماء قريش وسادتها، سيد شريف، وأحد حكام قريش والعرب في الجاهلية وهو والد أبي سفيان (صخر بن حرب)، قاد قريشا يوم حرب الفجار الرابع الذي كان بين كنانة وقيس، وفيه قيّد نفسه هو وأخواه لكيلا يفرّوا، فسمّوا: العنابس^(١).

توسط حرب في حرب الفجار الأولى التي وقعت بسبب تعرض شباب من قريش لامرأة جميلة من بني عامر وهي جالسة بسوق عكاظ، وسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فأتى أحدهم من خلفها، فشدّ دبر درعها بشوكة إلى ظهرها وهي لا تدري، فلما قامت تقلص الدرع عن ظهرها فانكشفت عورتها، فضحكوا وقالوا: منعنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دبرها ! فنادت المرأة: يا آل عامر ! فتجاوز الناس، وكان بينهم قتال ودماء، فتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم، وأرضى بني عامر من مثلة صاحبته^(٢).

ويحيط الغموض بسبب وفاة حرب بن أمية، غير أن كثيرا من المصادر تذكر أن الجن قتلتها؛ وذلك أنه وُصف له طريق منقطع بسبب الجن، وأنها تعيث فيه ببني آدم، وكان لا يبالي من لقي، فركب فرسه وقال: والله لأضربنّ عليهم مكانهم نارا، وأخذ الزند وسار إلى مكانهم، وحرّق ما به من الأشجار والنبات، فقتلته الجن^(٣) وقيل فيه بيت الشعر المعروف:
 وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفَرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ
 وكان موته عظيما على أهل مكة، إذ خرجت نساء قريش حواسر يصحن: واحرباه ! ومن ذلك اليوم صار النساء إذا ندبن أحدا قُلن: واحرباه ! تعظيما لأمر من يندبهن، وتهويلا للمصيبة^(٤).

(١) الأندلسي، نشوة الطرب ٣٤٣/١.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٨٩/٦، والأصفهاني، الأغاني ٦٠/٢٢. وجواد علي، المفصل ٣٨١/٥.

(٣) الجاحظ، الحيوان ٢٠٧/٦. والأندلسي، نشوة الطرب ٣٤٣/١. وجواد علي، المفصل ٧١٧/٩.

(٤) الأندلسي، نشوة الطرب ٣٤٣/١.

– الحصين بن الحمام المري :

هو الحصين بن الحمام بن ربيعة بن مساب بن حرام بن وائلة بن سهم بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر^(١). شاعر مقدم وفارس مشهور^(٢)، وسيد بني سهم وصاحب رأيهم وقائدهم ورائدهم، وكان يقال له (مانع الضيم^(٣))، ويعد من أوفياء العرب.

أدرك الحصين الإسلام وأسلم، وقد ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر في الصحابة، وعده أبو عبيدة أحد أشعر المقلين في الجاهلية وهم: المسيب بن علس والمتملمس والحصين بن الحمام^(٤)، كما ذكره ابن سلام في الطبقة السابعة من الجاهليين مع الأربعة المحكمين المقلين، وقال: "أربعة رهط محكمون مقلون، وفي أشعارهم قلة، فذاك الذي آخرهم... وحصين بن الحمام المري، وهو فارس شاعر شريف^(٥)". وللحصين ديوان شعر.

وفي أمالي القالي أنه^(٦) "لما مات حصين بن الحمام سمعوا صارخا يصيح من جبل

ويقول:

ألا ذهبَ الخُلُو الحلالُ الخلاجِلُ وَمَنْ عَقْدُهُ حَزْمٌ وَعَزْمٌ ونائلُ
وَمَنْ قَوْلُهُ فَصْلٌ إذا القَوْمُ أَقْحَمُوا تُصِيبُ مَرادِي قَوْلِهِ ما يُحاولُ

فلما سمعه (مُعِيَّة) أخوه قال: هلك والله حصين، وأنشأ يقول:

نَعَيْتُ حَيَا الأَضْيَافِ في كُلِّ شَتْوَةٍ وَمِدْرَةٌ حَرْبٍ إذا تُخَافُ الزَّلَازِلُ
وَمَنْ لا يُنادي بالهَضِيمَةِ جَارُهُ إذا اسْلَمَ الجارُ الأَلْفُ المَواكِلُ
فَمَنْ وبِمَنْ نَسْتَدْفِعُ الضِّيمَ بَعْدَهُ وقد صَمَمْتُ فينا الخطوبُ التَّوازِلُ^(٧)

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١/١٥٥. والأصفهاني، الأغاني ٥/١٤. والأمدي (الحسن بن بشر)، المؤلف والمختلف، ص ١١٤. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٥٤. والبغدادي، خزنة الأدب ٣/٣٢٧.

(٢) الأمدي، المؤلف والمختلف، ص ١١٤.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ٥/١٤. وقد تقدم الحديث عن (مانع الضيم).

(٤) انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٣٢.

(٥) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ١/١٥٥.

(٦) القالي، الأمالي ٦٢/١.

(٧) الحلال: السيد في عشيرته، الشجاع الرزين في مجلسه. مرادي قوله: مراميها وغايتها. الألف: الثقيل البطيء. (الأمالي هـ ٦٢/١).

– ذو الإصبع العدواني :

هو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة بن ظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر بن عدوان بن عمر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار^(١). لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبعه فقطعها^(٢). أحد الحكماء الشعراء^(٣)، والسادة الفرسان، له غارات كثيرة ووقائع مشهورة، وشعره مليء بالحكمة والعظة والفخر، قليل الغزل والمديح^(٤). وله ديوان شعر.

ومن أخبار ذي الإصبع ما ذكره الأصفهاني عن سبب تفرق عدوان وقتال بعضهم بعضاً حتى تقاتلوا، أن بني ناج بن يشكر بن عدوان أغاروا على بني عوف بن سعد بن ظرب (وهم من بني عدوان أيضاً) فقتل بنو ناج ثمانية نفر، وقتلت بنو عوف رجلاً يقال له سنان ابن جابر، وتفرقوا على حرب، ثم اصطالح الناس على الديات أن يتعاطوها ورضوا بذلك، وأبى مريير بن جابر، أن يقبل بسنان (أخيه) دية، وتبعه جماعة من قومه، فمشى إليهم ذو الإصبع يطلب منهم قبول الدية، فأبوا وأقاموا على الحرب، فكان ذلك مبدأ حرب بعضهم بعضاً حتى تقاتلوا وتقطعوا^(٥). ويُعد ذو الإصبع من المعمرين، فقد ذكر أنه عاش مائة وسبعين عاماً^(٦). ونسب المرتضى إلى أبي حاتم السجستاني قوله إن ذا الإصبع عاش ثلاثمائة سنة^(٧). كما نقل الأصفهاني أن ذا الإصبع، عمّر طويلاً حتى خرف وأهتر^(٨)، وكان يفرق ماله، فعذله أصهاره ولاموه وأخذوا على يده^(٩)، وقد روي أنه قال حين كبر:

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين أربعةً والشخصَ شخصين لما مسني الكبرُ
لا أسمعُ الصوتَ حتى أستدير له ليلاً وإن هو ناغاني به القمرُ
وكُنْتُ أمشي على الرجلين مُعَدِّلاً فصيرتُ أمشي على ما يُنبِتُ الشجرُ^(١٠)

(١) المفضل الضبي، المفضليات هـ ١٥٣، والأصمعي، الأضمعيات، ص ٧٢، وابن هشام، السيرة النبوية ١ ١٥٧/ (هامش)، والأصفهاني، الأغاني ٨٦/٣. والمرتضى (الشریف المرتضى علي بن الحسين ت ٤٣٦هـ) أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، ج ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٢٤٤، والأمدي، المؤلف والمختلف، ص ١٤٩. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٣، والبصري، الحماسة البصرية ٢١٧/١ (هامش)، مع بعض الاختلاف بين هذه المصادر.

(٢) ابن قتبية، الشعر والشعراء، ص ٤٧٣. والبغدادي، خزانة الأدب ٢٨٤/٥.

(٣) الأمدي، المؤلف والمختلف، ص ١٤٩.

(٤) الزركلي، الأعلام ١٧٣/٢.

(٥) الأصفهاني، الأغاني ١٠٠/٣.

(٦) انظر: المفضل، المفضليات هـ ١٥٣. والمرتضى، أمالي المرتضى ٢٤٤/١.

(٧) المرتضى، أمالي المرتضى ٢٤٤/١.

(٨) أهتر: خرف وفسد عقله من الكبر.

(٩) الأصفهاني، الأغاني ٩٣/٣.

(١٠) ديوان ذي الإصبع العدواني، ص ٣٣-٣٤. والبغدادي، خزانة الأدب ٢٨٤/٥.

– ربيعة بن حذار الأسدي :

هو ربيعة بن حذار بن مرة من بني سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة^(١). أحد سادات العرب وحكامها في الجاهلية، من الفرسان الرؤساء؛ ذكر الأصفهاني أن ملكاً من ملوك غسان يقال له عديّ أغار على بني أسد، فلقيته بنو سعد بن ثعلبة بن دودان بالفرات ورئيسهم ربيعة بن حذار، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتلت بنو سعد عدياً^(٢) وقد ذكره ابن منظور فقال: "ربيعة بن حذار قاضي العرب في الجاهلية"^(٣).

تنافر إليه خالد بن مالك بن تميم النهشلي والقعقاع بن معبد التميمي^(٤)، فقال – بعد أن سمع مقالة كل منهما -: "إن السماحة واللهي والمرباع والشرف الأسبغ للقعقاع، إلا أنني نفرت من كان أبوه معبداً وعمّه حاجباً وجدّه زرارة"^(٥) وتحاكم إليه الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبد بن الطبيب وعمرو بن الأهتم، بعدما ادّعى كل منهم أسبقيته في الشعر؛ فقال: "أما عمرو فشعره برود يمنية تنشر وتطوى، وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزوراً قد نحرت، فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك، وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من نار الله يلقيها على من يشاء، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء"^(٦). وقد مدحه الأعشى بقوله:

و إذا طلبت المجْدَ أينَ محلّه فاعْبُدْ لبيّت ربيعة بن حذار
يَهَبُ الثَّجِيبَةَ والجَّوَادَ سرّجِه والأدَمَ بينَ لواقِح وعِشَار^(٧)

(١) الأصفهاني، الأغاني ٢١/٢٠٩. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٥٦. وابن منظور، لسان العرب ٩٣/٣ (حذر).

(٢) الأصفهاني، الأغاني ١١/٢٠٥.

(٣) ابن منظور، لسان العرب ٩٣/٣ (حذر).

(٤) في بعض المصادر أن المنافرة كانت بين خالد بن مالك بن ربيعي بن سلمى بن جندل وبين حاجب بن زرارة (الأزمنة والأمكنة ٢/٢٥٠).

(٥) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٣٧، والالوسي، بلوغ الأرب ٣٢٩.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ١٣/٢١٩-٢٢٠.

(٧) ديوان الأعشى، ط ١، دار القلم، بيروت، ١٩٩٣، ص ٨٩.

- سنان بن أبي حارثة المري :

هو سنان بن أبي حارثة بن مرة بن نثبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان^(١)، أحد الزعماء الأشراف، والسادة الفرسان الأبطال، والشعراء والحكام، كان راس غطفان وبني مرة، وقد أورد ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد) خبراً طريفاً يقول: "كان سنان سيد غطفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مت فشقوا بطني فإن سيد غطفان فيه !! فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سناناً"^(٢).

كان سنان شاعراً وفارساً وسيداً، له مواقف مشهودة في أيام العرب، في داحس والغبراء، وفي يوم شعب جبلة، وفي يوم الرقم وغيرها. وكان سمحاً جواداً حليماً، قال الأصمعي: "سمعت أعرابياً يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلم من فرخ الطائر. قلت: وما حلم فرخ الطائر؟ قال: إنه يخرج من بيضة في رأس نيق^(٣)، ولا يتحول حتى يتوفر ريشه ويقوى على الطيران^(٤)". وفي سبب وفاته أن قومه عتقوه على الجود، فقال: لا أراني يؤخذ على يدي، فركب ناقة ولم يُر بعد ذلك فسمّته العرب (ضالة غطفان)^(٥). ونقل الأصفهاني عن أبي عبيدة "أن سناناً قد هرم حتى بلغ مائة وخمسين سنة، فهام على وجهه خرفاً ففقد. قال: فزعم لي شيخ من علماء بني مرة أنه خرج لحاجته بالليل فأبعد، فلما رجع ضلّ فهام طول ليلته حتى سقط فمات، وتبع قومه أثره فوجدوه ميتاً"^(٦). كما ذكر الجاحظ أن الجن استهوت سنان بن أبي حارثة ليستفحلوه فمات فيهم^(٧). وقد رثاه زهير بن أبي سلمى في أكثر من قصيدة، منها التي يقول فيها^(٨):

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتَغِي غُطْفَانُ حِينَ اضْلَلْتَ
إِنَّ الرُّكْبَانَ لَتَبْتَغِي ذَا مِرَّةٍ بَجَنُوبِ نَجْدٍ إِذَا الشَّهْرُ أَحْلَلْتَ
يَنْعَيْنُ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ شَدِيدَةٍ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُ هُنَاكَ وَجَلَّتْ

(١) المفضل الضبي ٢٤٨هـ، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وزميله، ط٦، بيروت، د.ت، ص ٣٤٨ (هامش). وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٥٢.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢١٨/١.

(٣) النيق: أرفع موضع في الجبل.

(٤) المصدر السابق ١٢٥/٢.

(٥) الميداني، مجمع الأمثال ٥٢٢/١.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ٣٤٨/١٠.

(٧) الجاحظ، الحيوان ٢٠٩/٦.

(٨) الأصفهاني، الأغاني ٣٤٨/١٠. وديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتحقيق: حجر عاصي، ط٢، دار

الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٥.

– سويد بن الصامت الأوسي :

هو سويد بن الصامت بن خالد بن عطية بن حَوْط بن حبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس^(١)، كان يسمى (الكامل) في الجاهلية " وكان الرجل عند العرب إذا كان شاعرا شجاعا كاتباً رامياً سموه (الكامل)، وكان سويد أحد الكلمة"^(٢). وهو الذي يقول:

الْأَرْبُ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى مَقَالَتَهُ بِالْغَيْبِ سَاءَ مَا يَقْرِي
يَسْرُكُ بِأَدْيِيهِ وَتَحْتَ إِدْيِمِهِ تَمِيمَةُ غِشٍّ تَبْتَرِي عَقِبَ الظَّهْرِ^(٣)

وفي بدء الدعوة الإسلامية، عندما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرض نفسه على زعماء القبائل أملاً في إسلامهم ونصرتهم، قدم سويد مكة "فتصدى له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين سمع به، فدعاه إلى الله و إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): وما الذي معك ؟ قال: مجلة لقمان – يعني حكمة لقمان – فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن، ثم انصرف عنه"^(٤).

ولم يسلم سويد، فقد قتل بعد عودته إلى المدينة، قتلته الخزرج في يوم بُعث^(٥). وقد وهم بعض من ترجم له حين قال إنه من الخزرج، وأنه شهد أحداً^(٦).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢ (هامش). وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٣٧.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢ والأصفهاني، الأغاني ٢٧/٣. وابن كثير، البداية والنهاية ٥٢١/٢-٥٢٢.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢. والجاحظ، البيان والتبيين ٦٦/٤. وابن قتيبة، عيون الأخبار، ط ١، ج ٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص ٩٣. وابن كثير، البداية والنهاية ٥٢٢/٢.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ٤٠/٢. وابن كثير، البداية والنهاية ٥٢٢/٢.
(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ٤٠/٢.
(٦) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين ٦٦/٤ (هامش). وابن قتيبة، عيون الأخبار ٩٣/٣ (هامش)، والزركلي، الأعلام ١٤٥/٣.

– ضمرة بن ضمرة النهشلي :

هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم،^(١) كان اسمه (شِقّ) فسماه بعض ملوك الحيرة ضمرة، وكان من رجال تميم في الجاهلية لسانا وبيانا^(٢).

كان ضمرة سيدا من سادات تميم وحكامها وفرسانها وكرمائها ممن يفخر بشجاعته وذكائهم وكرمهم، وكان الناس يتنافرون إليه ويتحاكمون عنده، ولا يرون كراهيه رأيا، ولا يستغنون عن مشورته في كل ما يعرض لهم؛ لما يمتاز به من ذكاء وفطنة وفصاحة وكرم سجية ومعرفة بأحوال العرب وأيامهم وأنسابهم^(٣). وقد عدّه الجاحظ من البرصان والرؤساء والأشراف الشعراء، ومن الرخّالين إلى الملوك والحكام العرب^(٤). وقال عنه أيضا: "وكان ضمرة خطيبا، وكان فارسا شاعرا شريفا سيدا"^(٥). وذكر ابن سلام في ترجمته لنهشل بن حري: "فنهشل بن حري شاعر شريف مشهور وأبوه حري شاعر مذكور، وجده ضمرة بن ضمرة: شريف فارس شاعر بعيد الذكر كبير الأمر"^(٦).

ومن مشهور أخباره ما جرى في مجلس النعمان بن المنذر حين دخل عليه ضمرة فازدراه وقال: "تسمع بالمعيدي لا أن تراه"^(٧). وقد مر ذكر هذه القصة في موضع سابق من البحث عند الحديث عن وفادة الحكام على الملوك، فلا أرى حاجة لتكرارها.

وقد عرف عن ضمرة فروسيته وشجاعته وإقدامه، وبلاؤه في الوقائع التي خاضتها تميم ضد أعدائها؛ ولذا فقد كان في شعره يصور شجاعته ويفخر بنفسه ويصف الحروب التي شارك بها.

(١) المفضل، المفضليات هـ ٣٢٤. وابن حبيب، المحبر، ص ١٣٤.

(٢) ابن دريد، الاشتقاق، ص ٢٤٤.

(٣) الألوسي، بلوغ الأرب ٣١٦/١.

(٤) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٩٥.

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين ٢٣٨/١.

(٦) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٥٨٣/٢.

(٧) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين ١٧١/١. والعسكري، جمهرة الأمثال ٢٦٦-٢٦٧. والميداني، مجمع الأمثال ١٦٤-١٦٦.

– عامر بن الظرب العدواني :

هو عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر^(١). حكم العرب الذي لم تكن تعدل بفهمه فهما ولا بحكمه حكما^(٢)، وأحد السادة الرؤساء، والقادة الحكماء، شاعر وخطيب، له من الحكم والوصايا والأمثال والخطب ما ينبئ عن تجربة وعقل وحكمة وبُعد نظر. وأكثر الروايات على أنه ذو الحلم الذي قرعت له العصا^(٣)، ولذلك قال الحارث بن وعله^(٤):

وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَا خَلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا فَرَعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
وقال المتلمس^(٥):

لِذِي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرِّعُ الْعَصَا وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَ^(٦)
وسبب قرع العصا أنه لما كبر واعتراه النسيان، أمر ابنته أن تقرع له العصا، إذا هو فة^(٧) عن الحكم، وجار عن القصد^(٨) ويقال إنه ممن حرّم الخمر في الجاهلية^(٩)، وأول من خلع من العرب؛ وذلك أنه زوج ابنته من ابن أخيه، فلم تلبث أن جاءت مشجوجة، فقال له: "يا ابن أخي، ارفع عصاك عن بكرتك^(١٠)؛ فإن كانت نفرت من غير أن تُتقر فذاك الداء الذي ليس له دواء، وإن لم يكن بينكما وماق^{شعر}، فمذاق الخلع خير من الطلاق!" فردّ عليه صداقة وخلعها منه، وهو أول خلع كان في العرب^(١١)، وقد أقرّ الإسلام مبدأ الخلع. ومن أحكامه الطريفة ما حكم به حين اختُصم إليه في رجل خُنثى، فبات ليلته ساهرا يقلّب رأيه حتى أسعفته جارية له اسمها (سُخيل) وقالت له: أثبّع القضاء المبال، أقعّده، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل، وإن بال من حيث تبول المرأة فهي امرأة. فقال: فرّجتها والله. ثم خرج على الناس حين أصبح ففضى بالذي أشارت عليه به^(١٢).

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٤٣.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال ٥٨/١.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين ٣/٣٨. وابن قتيبة، المعارف، ص ٥٥٣.

(٤) هناك شاعران جاهليان اسم كل منهما (الحارث بن وعله) أحدهما قضاعي والآخر من بني شيبان بن ذهل بن ثعلبة، (عفيف عبد الرحمن، معجم الشعراء، ص ٦٥)، والبيت لأولهما.

(٥) هو جرير بن عبد المسيح، صاحب الصحيفة المشهورة (صحيفة المتلمس) وهو خاله طرفة بن العبد.

(٦) والأصفهاني، الأغاني ٢٤/٢٥١. الميداني، مجمع الأمثال ٥٨/١.

(٧) فة عن الشيء: نسيه.

(٨) الجاحظ، البيان والتبيين ٣/٣٨. والأصفهاني، الأغاني ٢٤/٢٥٠.

(٩) القالي، الأمالي ١/٢٠٤.

(١٠) البكرة: الناقة، وقد كنى بها عن الزوجة. الوماق: الحب.

(١١) الأندلسي، نشوة الطرب ٢/٥٩٢.

(١٢) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٥٩. والميداني، مجمع الأمثال ٥٨/١ و ٢/٣٤٦.

ويقال إن عامر بن الظرب قد عاش ثلثمائة سنة، وهو الذي يقول^(١):

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْني كَأَنِّي	سَلِيمُ أَفَاعِ لَيْلَةٍ غَيْرُ مُودِعِ
وَمَا الْمَوْتُ أَقْنَانِي وَلَكِنْ تَتَابَعْتُ	عَلَيَّ سِنُونَ مِنْ مَصِيفٍ وَمَرِيعِ
ثَلَاثَ مِئِينَ قَدْ مَرَرْنَ كَوَامِلًا	وَهَا أَنَا هَذَا أُرْتَجِي مَرًّا أَرْبَعِ
فَاصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَتْ فِرَاحُهُ	إِذَا رَامَ تَطْيَارًا يُقَالُ لَهُ: قَعِ
أَخْبَرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ	وَلَا بَدْءَ يَوْمًا أَنْ يَطَارَ بِمَصْرَعِي ^(٢)

(١) والميداني، مجمع الأمثال ٥٨/١.

(٢) يبدو أن هناك بيتاً أو أكثر بعد البيت الأول لم ترد في المصدر.

– عبد الله بن جدعان التيمي :

هو عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي^(١)، سيد قريش في زمانه^(٢)، والمجبر على الملوك؛ فقد ذكر البلاذري أنه "لما هرب الحارث بن ظالم المرّي من ملك الحيرة بعد ما قتل خالد بن جعفر بن كلاب وهو في جوار الملك، أخذ ينتقل بين القبائل حتى وصل عكاظ وبها (عبد الله بن جدعان) فنكس رمحه أمام مضرب (ابن جدعان) ثم رفعه حين عرفوه، وأمن. وأقام بمكة حتى أتاه أمان ملك الحيرة"^(٣). وكانت العرب إذا قدمت عكاظ دفعت أسلحتها إلى ابن جدعان حتى يفرغوا من أسواقهم وحجهم ثم يردّها عليهم إذا ظعنوا^(٤).

ومن مآثر عبد الله بن جدعان التي لا يبلّغها الدهر، أن حلف الفضول عقد في داره، وكان سبب الحلف أن رجلاً من أهل اليمن قدم مكة ببضاعة، فاشتراها رجل من بني سهم، فحبس عنه حقه، فقام الرجل وأنشد أبياتاً شكاً فيها ضياع حقه؛ فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا من مترك. واجتمعت بطون قريش فتحالفوا على رد الظلم بمكة، وألا يظلم رجل بها إلا منعه وأخذوا له بحقه، وكان اجتماعهم في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا. وكان الرسول (ﷺ) يقول: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"^(٥).

كان ابن جدعان ثرياً، وربما كان أكثر أهل مكة مالاً، وكان كريماً جواداً مطعماً، وكانت له جفنة يأكل منها الراكب على بعيره، ووقع فيها صبي صغير فغرق^(٦) وكان أول من أطعم الفالودج بمكة، وجعل منادياً ينادي كل ليلة على ظهر الكعبة أن هلمّوا إلى جفنة ابن جدعان، فقال أمية بن أبي الصلت يمدحه^(٧):

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٧٠. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٣٦.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٣٦.

(٣) جواد علي، المفصل ٤/٣٦٤ (نقلاً عن البلاذري ١/٤٢ وما بعدها).

(٤) الأصفهاني، الأغاني ٢٢/٦٤.

(٥) حول حلف الفضول، انظر: ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٧٠ وما بعدها. والأصفهاني، الأغاني ١٧/٢٨٨ وما بعدها.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٦٢.

(٧) ديوان أمية، ص ٣٣.

لله داع، بمكة مشمعل^(١) وأخبر فوق كعبتها يُنادي
إلى رَدح، من الشَّيزي ملاء، لبابُ البَرِّ يَلْبِكُ بالشَّهاد^(٢)

وقد ذكر الأصفهاني أن دريد بن الصِّمَّة الفارس المشهور (وكان شاعرا) هجا عبد
الله بن جدعان، فلقبه بعكاظ فحيَّاه وقال له: هل تعرفني يا دريد؟ قال: لا. قال: فلم هجوتني؟
قال: ومن أنت؟ قال: أنا عبد الله بن جدعان. قال: هجوتك لأنك كنت امرا كريما، فأحببت أن
أضع شعري موضعه. فقال له: لئن كنت هجوت لقد مدحت، وكساه وحمله على ناقة برحلتها،
فقال دريد يمدحه^(٢):

رَحَلْتُ الْبِلَادَ فَمَا أَنْ أَرَى شَبِيهَ ابْنِ جُدْعَانَ وَسَطَ الْعَرَبِ
سِوَى مَلِكٍ شَامِخٍ مَلَكُهُ لَهُ الْبَحْرُ يَجْرِي وَعَيْنُ الدَّهَبِ

(١) مشمعل: مبادر ومجتهد. رَدح: جفنة عظيمة. الشَّيزي: خشب أسود تتخذ منه القصاع. يلبك: يخلط
ويعجن، الشَّهاد: العسل.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ١٠/٢٤ - ٢٥.

– غِيلَانُ بْنُ سَلَمَةَ الثَّقَفِيُّ:

هو غيلان بن سلمة بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف^(١)، سيد من سادات ثقيف وزعيم من زعمائها، وأحد حكام العرب المشهورين^(٢)، كانت له ثلاثة أيام: يوم ينشد الناس بشعره، ويوم يحكم فيه بين الناس، ويوم يقعد فيه للناس فيزار، وينظر إلى سرره وجماله^(٣).

وغيلان فارس وشاعر، قاد ثقيفا حين جمعت خثعم جموعا من اليمن، وغزت ثقيفا بالطائف، فخرج إليهم غيلان بن سلمة في ثقيف، فقاتلهم قتالا شديدا، فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر عدة منهم، ثم مَنَّ عليهم، وقال في ذلك^(٤):

أَلَا يَا أَخْتَ خَثْعَمَ خَبْرِينَا بَأَيِّ بَلَاءٍ قَوْمُ ثَقْرِينَا
وَقَدْ نَظَرْتَ طَوَالِغُكُمْ إِلَيْنَا بَاعِيُنْهُمْ وَحَقَّقْنَا الظَّنَّ نُونَا
جَمَعْتُمْ جَمْعَكُمْ فَطَلَبْتُمُونَا فَهَلْ أَثْبَتَ حَالُ الطَّالِبِينَ؟

وكانت له وفادة على كسرى، فكان أن سألته - وقد أعجب بذكائه ورجاحة عقله -: ما غداؤك في بلادك؟ قال: الخبز، قال: هذا عقل الخبز^(٥)، ثم اشترى منه تجارة كانت معه بأضعاف ثمنها، وأكرمه وأرسل معه من بنى له أطما في الطائف، فكان أول أطم بني بها^(٦).
وقد أسلم غيلان بعد فتح الطائف، وكان تحته عشر نساء، فخيرته الرسول (صلى الله عليه وسلم) فاختر أربعاً منهن وطلق الباقي وفق ما تقتضيه أحكام الشريعة. وعندما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال لهم^(٧): يا بني، قد أحسنت خدمة أموالكم، وأمجدت أمهاتكم، فلن ترالوا بخير ما غدوتم من كريم وغدا منكم، فعليكم ببيوتات العرب، فإنها معارج الكرم، وعليكم بكل رمكاء مكينة، أو بيضاء رزينة، في خدر بيت يتبع، أو جدَّ يرتجى، وإياكم والقصيرة الرطلة، فإن أبغض الرجال إلي أن يقاتل عن إيلي أو يناضل عن حسبي القصير الرطل^(٨).

(١) انظر: ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٥. والأصفهاني، الأغاني ٢٢٢/١٣. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦٨. وابن حجر، الإصابة ٢٥٣/٥.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٤) الأصفهاني، الأغاني ٢٢٦/١٣.

(٥) انظر: الأصفهاني، الأغاني ٢٢٩/١٣. وابن حجر، الإصابة ٢٥٥/٥. والألوسي، بلوغ الأرب ١/٣٢٠. وجواد علي، المفصل ٣٠١/٨.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ٢٣١/١٣. وابن حجر، الإصابة ٢٥٥/٥.

(٧) الأصفهاني، الأغاني ٢٢٨-٢٢٩/١٣.

(٨) الرمكاء: ما كان في لونها حمرة مختلطة بسواد، الرطلة: الحمقاء الضعيفة.

– قسّ بن ساعدة الإيادي:

هو قس بن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك بن ابدكان^(١) بن النمر بن وائلة بن الطمّثان بن عوذ مناة بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن ابياد^(٢)، أحد الحكام المشهورين، والبلغاء المعدودين، كان حكيماً خطيباً عاقلاً حليماً، له نباهة وفضل^(٣)، وكان شاعراً، ويقال أنه أول من قال: أما بعد^(٤)، وأنه أول من آمن بالبعث من الجاهليين، وأول من توكأ على عصا في الخطبة، وأول من كتب: من فلان إلى فلان^(٥).

ومما أثر عن قس في القضاء قوله: "لأفضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردّها أحد بعدي: أيما رجل رمى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم عليه، وأيما رجل ادّعى كرمًا دونه لؤم فلا كرم له"^(٦)، وقد تقدم الحديث عن خطبته المشهورة بعكاظ، وعن إشادة النبي (ﷺ) بها وبصاحبها حتى قال "رحم الله قسًا، إني لأرجو يوم القيامة أن يُبعث أمة وحده"^(٧)، وعندما أنشد عليه الصلاة والسلام قول قس:

يَا نَاعِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدَثٍ عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا نَوْمِهِمْ خِرْقُ
دَعُهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ كَمَا تَتَبَّعُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعَقُ
مِنْهُمْ عُرَاءٌ وَمَوْتَى فِي ثِيَابِهِمْ مِنْهَا الْجَدِيدُ وَمِنْهَا الْأَزْرَقُ الْخَلْقُ
قال: "والذي بعثني بالحق لقد آمن قس بالبعث"^(٨). وقد ذكر القالي في أماليه أن قسا كان يفد على قيصر ويزوره، وكان يحاوره ويستمع إلى بليغ حكمته^(٩)، كما ذكر المرزباني أن كثيرا من العلماء زعموا أنه عمّر ستمائة سنة^(١٠)، وذكر غيره أنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة^(١١).

(١) كذا في ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٦. وفي الأصفهاني، الأغاني ٢٣٦/١٥. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٢٨: أيدعان.

(٢) نفس المصادر والصفحات السابقة.

(٣) المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق: ف. كرنكو، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ٢٠٠.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٥٣٣/٣.

(٥) ابن حجر، الإصابة ٤١٣/٥.

(٦) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٣٤/٢. والالوسي، بلوغ الأرب ١٧٢/١.

(٧) الالوسي، بلوغ الأرب ١٥٥/٣.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية ١٨٥/٢.

(٩) القالي، الأمالي ٣٧/٢.

(١٠) المرزباني، معجم الشعراء، ص ١٩٩.

(١١) الالوسي، بلوغ الأرب ٢٤٦/٢.

- معاوية بن مالك (معوذ الحكماء):

هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان بن مضر^(١). شاعر معروف، وفارس مشهور، وسيد شريف، لقب (معوذ الحكماء)^(٢) لقوله:

أَعُوذُ مِنْ ثَلَاثِ الْحَكَامِ بَعْدِي إِذَا مَا الْحَقُّ فِي الْأَشْيَاعِ نَابَا

وكان السبب في ذلك " أن النعمان الملك جهّز لطيمة إلى عكاظ، وجعل خفيها قرة بن هبيرة القشيري، يخفيها على من ليس في دينه من العرب، ووافق ذلك هرب النعمان من كسرى، فاحتوى قرة على اللطيمة فأكلها، فقالت عقيل لقشير: إنا لا نأمن عقبي جنايتكم، فأعطونا بعض ما أخذتم، فأبوا عليهم وكادوا أن يحتربوا، ثم تراضوا بحكم من بني أم البنين فاتفقوا على الرضا بمعاوية، فأصلح بين الحيين"^(٣)، وقال قصيدة منها البيت المذكور.

وذكر الأمدى أن معاوية كان غلاماً حديث السن عندما حكم بين بني عقيل وبني قشير^(٤).

ولمعاوية شعر ذكر بعضه المفضل والأصمعي في اختياراتهما^(٥) وابن ميمون في كتابه منتهى الطلب^(٦).

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٧٢، ٢٨٥.
(٢) معوذ (بالدال المهملة) في: المفضل، المفضليات، ص ٣٥٤، والقاللي، الأمالي ١/ ١٨١، وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٨٥، وابن ميمون (محمد بن مبارك ٥٨٩هـ)، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق: محمد طريفي، ط ١، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٨. وابن منظور، لسان العرب ٦/ ٣٧٩ (سما). ومعوذ (بالمعجمة) في: ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٩. والمرزباني، معجم الشعراء، ص ٢٧٨. والأمدى، المؤلف والمختلف، ص ٢٤٧. وفي بعض المصادر (معوذ الحكام) المناقب المزيديّة، ص ١٧٤، والمرتضى، أمالي المرتضى ١/ ١٩٣.

(٣) الحلّي، المناقب المزيديّة، ص ١٧٤.

(٤) الأمدى، المؤلف والمختلف، ص ٢٤٧.

(٥) انظر: المفضل، المفضليات ٣٥٤-٣٦٠. والأصمعي، الأصمعيات ٢١٢-٢١٤.

(٦) انظر: ابن ميمون، منتهى الطلب ٤/ ٣٨-٤٣.

-هاشم بن عبد مناف:

هو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان^(١)، اسمه (عمرو)، وسمي هاشما لأنه أول من هشم الثريد وأطعمه في مكة^(٢)، فقال فيه مطرود بن كعب الخزاعي (وقيل عبد الله بن الزبعرى):

عَمَرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ قَوْمٌ بِمَكَّةَ مُسْنِنَتَيْنِ عَجَافِ
سَنَنْتُ إِلَيْهِ الرَّحْلَتَانِ كِلَاهُمَا سَفَرُ الشَّتَاءِ وَرَحْلَةُ الْأَصْفَاءِ^(٣)

وهو جد الرسول (ﷺ) وكان ذا فضل وشرف ورياسة في قومه؛ تولى الرقادة والسقاية، وهو أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك^(٤)، فكان أول من أخذ لقريش العصم، فانتهشوا من الحرم "أخذ لهم هاشم حبلا من ملوك الشام والروم وغسان"^(٥).

تنافرت إليه قريش وخزاعة، فخطبهم خطبة حضهم فيها على التالف والتماسك ونبذ الفرقة والخلاف، ودعاهم إلى اصطناع المعروف وكسب المحامد، وحثهم على التمسك بمكارم الأخلاق والتحلي بالحلم والصبر والجود، حتى قالوا له: رضينا بك أبا نضلة (وهي كنيته)^(٦).

ويبدو أن ارتفاع شان هاشم، وذيوع صيته، بسبب شمائله الكريمة وإقدامه على إطعام الناس، قد أثار حسد ابن أخيه أمية بن عبد شمس، فأراد أن يصنع ما صنع عمه فعجز، فشمت به الناس؛ فغضب ودعا هاشما للمنافرة "فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، ولم تدعه قريش وأحفظوه، قال: فإني أنا فرك على خمسين ناقة سود الحديق، تتحرها ببطن مكة، والجلء عن مكة عشر سنين، فرضي بذلك أمية، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي، فقفر هاشما عليه، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين"^(٧).

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٣/١-٣٤. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٢-١٣.
(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٤/١، وابن دريد، الاشتقاق، ص ١٣. وابن منظور، لسان العرب ٢٦٤/٥ (رفد).

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ١٧٣/١.

(٤) الثعالبي، ثمار القلوب، ص ١١٥.

(٥) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٤/١. وابن منظور، لسان العرب ١٨٠/١ (ألف).

(٦) انظر: الألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٢/١-٣٢٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ص ٧٥-٧٦.

(٧) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٤/١-٥٠٥. والألوسي، بلوغ الأرب ٣٠٧/١-٣٠٨.

– هرم بن قطبة الفزاري:

هو هرم بن قطبة بن سيار^(١) بن عمرو بن جابر بن عقيل بن هلال بن سُمَيّ بن مازن ابن فزارة^(٢). من أشهر حكام العرب، ضرب بحكمه المثل ف قيل: "أحكم من هرم بن قطبة"^(٣).

تميز هرم بجودة رأيه وبُعد نظره وسداد تفكيره، وبذكائه ودهائه وحسن تصرفه للأمور، وقد تَبَدَّت هذه المزايا في قصة تحكيمه بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين حين تنافرا إليه، بعدما طافا على حكام العرب المعروفين في ذلك الحين؛ فقد ورد أنهما تنافرا أولاً إلى أبي سفيان بن حرب " فلم يقل بينهما شيئاً، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما، وقال: أنتما كركبتي البعير الأدرم^(٤)، تقعان معا بالأرض، قالاً: فأينا اليمين؟ فقال: كلاكما اليمين، وأبى أن يقضي بينهما. فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام، فأبى أن يحكم بينهما"^(٥). ثم أتيا عيينة بن حصن الفزاري وغيلان بن سلمة الثقفي وحرملة بن الأشعر المري وكل واحد من هؤلاء يهاب الحكم بينهما، حتى أتيا هرم بن قطبة، فقال: " لعمرى لأحكم بينكما، ثم لأفصلن ثم لست أثق بواحد منكما، فأعطيني موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول، وتسلمما لما قضيت بينكما"^(٦)، وبعد أن استوثق منهما دعا إليه عامراً وعلقمة كلا دون صاحبه، وأفهم كل واحد منهما أن خصمه أفضل منه، حتى طلبا منه أن يسوّي بينهما عند الحكم! ثم جلس للفصل في المنافرة فقال: " يا بني جعفر، قد تحاكمتما عندي، وأنتما كركبتي البعير الأدرم، تقعان إلى الأرض معا، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم"^(٧).

وهكذا استطاع هرم بحسن تقديره وبُعد نظره أن ينهي هذه الخصومة بشكل ودي وان يجنب الفريقين شر النزاع والعداوة وإراقة الدماء، وكره أن يفضل واحداً على الآخر لأنهما أبناء عمومة^(٨).

(١) في بعض المصادر أن اسم جده (سنان)، والأرجح ما ذكرته؛ انظر: ابن حجر، الإصابة ٤٤٧/٦. الألويسي، بلوغ الأرب ٢٨٨/١ والزركلي، الأعلام ٨٣/٨.

(٢) ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٥. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٥٨.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٤٠٦/١. والميداني، مجمع الأمثال ٢٧٦/١.

(٤) الأدرم: الكثير اللحم والشحم.

(٥) الأصفهاني، الأغاني ٣٠٨/١٦.

(٦) المصدر السابق ٣٠٩/١٦-٣١٠.

(٧) المصدر السابق ٣١٥/١٦.

(٨) انظر الخبر مفصلاً في: الأصفهاني، الأغاني ٣٠٤/١٦-٣١٥. والميداني، مجمع الأمثال ٤٦١/٢-٤٦٢، والألويسي، بلوغ الأرب ٢٨٦/١-٢٩٧، والبغداد، خزانة الأدب ٢٥٧/٨-٢٦١.

وقد كان هذا موضع تقدير عمر بن الخطاب حين التقى هرما وسأله أي الرجلين كان سيفضل، وأبى هرم أن يجيب عمر خوفا من بعث نار العصبية، فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن حمد له هذا الموقف وأثنى على جودة رأيه وحكمه^(١). وقال فيه الأعشى^(٢):

حَكَمَ ثَمُوهُ فَقَضَى بَيْنَنَا نَحْمُ أَبْلَجُ مِثْلُ الْقَمَرِ الْبَاهِرِ
لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يُبَالِي غَبْنَ الْخَاسِرِ

(١) انظر ص ١٨ من هذا البحث.

(٢) ديوان الأعشى، ص ١١٤.

- هند بنت الخس الإيادية:

اسمها هند بنت الخس بن حابس بن قريط الإيادية^(١)، فصيحة من نساء الجاهلية، ذكرت فيمن ذكروا من حكميات العرب^(٢)، اشتهرت بالفصاحة والذكاء، وقد ذكرها غير واحد ممن عني بالحديث عن الفصيحات من نساء الجاهلية^(٣).

تخاصمت إليها امرأتان في مراعي أبييهما، فقالت الأولى: "إبل أبي ترعى الإسليح، فقالت ابنة الخس: رغبة وصريح، وسنام إطريح، وقالت الأخرى: مرعى إبل أبي الخلعة، قالت ابنة الخس: سريعة الدرة والجرة^(٤)."

ومن طريف أخبارها، أن أباهما سألها يوماً: أي الرجال خير؟ قالت: الذي يسأل ولا يسأل، ويضيف ولا يضاف، ويصلح ولا يصلح، قال: فأي الرجال شر؟ قالت: النطيط^(٥)، الذي معه سويط، الذي يقول: أدركوني من عبد بني فلان فإني قاتله أو هو قاتلي^(٦)، وقيل لها يوماً: ألا تتزوجين؟ فقالت: بلى، لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان، ولا الظريف المتظرف ولا السمين الأحم، ولكن أريده كسوباً^(٧) إذا غدا، ضحوكا إذا أتى^(٨). ومن شعرها قولها^(٩):

أشَمَ كَنَصْلِ السَّيْفِ جَعْدَ مُرَجَّلٍ شَغِفْتُ بِهِ لَوْ كَانَ شَيْءٌ مُدَانِيَا
وَأَقْسِمُ لَوْ خَيْرْتُ بَيْنَ لِقَائِهِ وَبَيْنَ أَبِي لَاخْتَرْتُ أَنْ لَا أَبَالِيَا

وقد ذكر البغدادي أنها أدركت القلمس (وهو أحد حكام العرب في الجاهلية) وتحاكمت إليه هي وأختها في كلام لهما، ومدحته بأبيات منها^(١٠):

إِذَا اللَّهُ جَازَى مُنْعِمًا بِوَفَائِهِ فَجَازَاكَ عَنِّي يَا قَلَمْسُ بِالكَرَمِ

(١) التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد ت ٤١٤هـ) البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، ط ١، ج ٢، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٢٩ (هامش). وجواد علي، المفصل ٧٩٠/٨، والزركلي، الأعلام ٩٧/٨.

(٢) انظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢٥٨/١. والألوسي، بلوغ الأرب ٣٣٨/١-٣٤٤.

(٣) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين ١٦٢/٢-١٦٣، والحيوان ١٦٩/١ و ١٠٥/٥، وابن قتيبة، عيون الأخبار ١٢/٤. والقالي، الأمالي ٢٣٥/٢، ٢٥٦. وذيل الأمالي، ص ١٠٧، ١١٩، والتوحيدي، البصائر والذخائر ٢/٢٩، ١٣٥ و ٢١٢/٤ و ١٥٦/٨، والميداني، مجمع الأمثال ١٠٩/٢.

(٤) الإسليح: بقلة تنبت في الشتاء، تسليح الإبل إذا استكثر منها. الإطريح: الذي طال ثم مال في أحد شقيه. (٥) الجاحظ، البيان والتبيين ١٦٢/٢-١٦٣.

(٦) النطيط: الذي لا لحيه له.. النطيط: الكثير الكلام، يأتي بالخطأ والصواب من غير معرفة.

(٧) القالي، ذيل الأمالي، ص ١٠٧.

(٨) الأحم: الكثير اللحم. الكسوب: الكثير الكسب.

(٩) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١٢/٤.

(١٠) الألوسي، بلوغ الأرب ٣٤٠/١.

- يعمر الشدّاخ:

هو يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة^(١)، كان زعيما لقومه وفارسا وشاعرا^(٢)، وكان حكما من حكام كنانة، وعالما خبيراً بأنساب العرب وأحسابهم^(٣).

لقب يعمر بن عوف (بالشدّاخ) إثر تحكيمه بين قصي وخزاعة في أمر البيت، بعدما وقع بينهم النزاع واقتتلوا، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعا، ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلا من العرب، فحكموا يعمر بن عوف الكناني، ف قضى بأن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن لا ترحل خزاعة عن مكة، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة وبني بكر، موضوع يشدّخه^(٤) تحت قدميه، وأن ما أصابت خزاعة من قريش ففيه الدية، وأن يخلّى بين قصي وبين الكعبة ومكة^(٥).

ومن شعر الشدّاخ الذي أورده البحرني في حماسته، قوله مفتخرا بقومه^(٦):

أَيْنَا فَلَاعُطِي مَلِكًا ظَلَامَةً وَلَا سُوقَةً إِلَّا الْوَشِيحَ الْمَقُومًا
وَالْأُحْسَامَ يُبْرِقُ الْعَيْنَ لَمَحَةً كَصَاعِقَةٍ فِي غَيْثٍ مُزْنٍ تَرَكَّمَا

هؤلاء هم أبرز حكام العرب، وهناك عدد آخر من الحكام ذكرتهم المصادر المختلفة^(٧)، غير أن المجال لا يتسع للحديث عنهم بالتفصيل، وهم: الجعد بن صبرة الشيباني^(٨)، وأبو جهل بن هشام، وحرملة بن الأشعر المري^(٩)، وحنظلة بن نهد القضاعي^(١٠)، والزبير بن عبد المطلب،

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٦٠. وابن حبيب، المحبر، ص ١٣٣. وابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٨٠.

(٢) الأندلسي، نشوة الطرب ١/٣٢٤.

(٣) الألويسي، بلوغ الأرب ١/٣٣٠.

(٤) يشدّخه: يكسره، ويريد أنه يبطل تلك الدماء، ولم يجعل لها حظا، ولذلك قيل تحت قدميه.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٦٠. والأندلسي، نشوة الطرب ١/٣٢٤-٣٢٥. وابن منظور، لسان العرب ٥٣/٧ (شدخ).

(٦) البحرني، الحماسة، ص ٣٤.

(٧) انظر: ابن حبيب، المحبر، ص ١٣٢-١٣٧. واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٨. والفيروز أبادي، القاموس المحيط، ص ٩٨٨.

(٨) لم أعثر على ترجمته.

(٩) لم أعثر على ترجمته.

(١٠) حنظلة بن نهد بن زيد بن ليث القضاعي: قاض جاهلي، كانت له منزلة بعكاظ في المواسم، وكان بيته أول بيت في قضاة، وهو حكمهم الذي يحكم بينهم. قال اليعقوبي: كان من قضاة العرب في الجاهلية (الأعلام ٢/٢٨٧).

وأبو سفيان بن حرب، وسلم (سلمة) بن نوفل^(١)، وسويد بن حذار^(٢)، وأبو سيارة العدوان^(٣)، وصخر بن يعمر بن نفثة^(٤)، وصفوان بن أمية^(٥)، وأبو طالب بن عبد المطلب، والعاص بن وائل^(٦)، وعامر بن جشم^(٧)، وعامر بن الضحيان^(٨)، وعبد المطلب بن هاشم، والعلاء بن حارثة^(٩)، وعمرو بن حممة الدوسي^(١٠)، وعوف بن الأحوص العامري^(١١)، وعيينة بن حصن الفزاري^(١٢)، والقلمس الكناني^(١٣)، ومالك بن جبير^(١٤)، ومتمم بن نويرة، ومخاشن بن

(١) سلم (سلمة) بن نوفل بن معاوية بن عروة بن صخر بن يعمر بن نفثة بن عدي الديلم، من أجواد الجاهلية، ومن أشهر حكام كنانة. وفيه يقول الشاعر: يسود أقوام وليسوا بسادة بل السيد المعروف سلم بن نوفل (البصائر والذخائر ١/٥١-٥٢).

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) أبو سيارة العدوان، عميلة بن خالد بن سعد بن الحارث، أحد حكام العرب في الجاهلية، كان يدفع بالناس في المواسم، ويركب حمارا عاش أربعين سنة حتى ضرب به المثل ف قيل: "أصح من غير أبي سيارة".

(٤) لم أعثر على ترجمته.

(٥) صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجهمي القرشي: صحابي، فصيح جواد، كان من أشراف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم. شهد اليرموك، ومات بمكة (الأعلام ٣/٢٠٥).

(٦) العاصم بن وائل بن هاشم السهمي: من قريش، أحد الحكام في الجاهلية، أدرك الإسلام وظل على الشرك، ويعد من المستهزئين الذين ماتوا كفارا. وهو والد عمرو بن العاص فاتح مصر (الأعلام ٣/٢٤٧).

(٧) عامر بن جشم بن حبيب بن كعب اليشكري: كان حكما للعرب في الجاهلية، ويقال له: ذو المجاسد، وهو أول من أعطى الذكر حظين والأنثى حظا (ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ٣٠٨. والأعلام ٣/٢٥٠).

(٨) عامر الضحيان، وهو عامر بن سعد بن الخزرج، ساد ربعة أربعين عاما، يأخذ المربع منهم، وهو أحد حكام العرب الذين ذكرهم اليعقوبي (جمهرة أنساب العرب ٣٠١).

(٩) العلاء بن حارثة بن نضلة بن عبد العزى بن رياح: من حكام قريش في الجاهلية، كانت له مكانة ومنزلة ونفوذ، وكان له علم واسع بأحوال العرب وأنسابهم (بلوغ الأرب ١/٣٢٩).

(١٠) عمرو بن حممة بن رافع الدوسي، من الأزد: أحد المعمرين، من حكام العرب في الجاهلية. يقول بنو تميم: إنه هو الذي كان يقال له (ذو الحلم) وفيه المثل: "إن العصا قرعت لذي الحلم"، والمشهور أن ذاك عامر بن الظرب العدوان (الأعلام ٥/٧٧).

(١١) عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، والأحوص لقبه، وأصل الحوص: ضيق في العين. كان سيدا في قومه وصاحب رأيهم، وكان من زعمائهم وقوادهم، وذكره اليعقوبي فيمن ذكر من حكام العرب.

(١٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري: سيد بني فزارة وزعيمهم وقائدهم، ذكر ابن حبيب أنه كان يتبعه ألف قناة. أدرك الإسلام وأسلم ثم ارتد وعاد. سماه النبي (ﷺ) (الأحقق المطاع) كان غليظا جافيا.

(١٣) القلمس بن أمية بن عوف الكناني، يقال إن اسمه (جنادة) والقلمس لقبه، ومعناه السيد أو الداهية البعيد الغور، يلقب به كل من تولى نساء الشهور، وهو من الخطباء الوعاظ قبل الإسلام. ابن الجوزي: كان يخطب بفناء الكعبة، وكانت العرب لا تصدر عن مواسمها حتى يعظها ويوصيها (الأعلام ٥/٢٠٣).

(١٤) لم أعثر على ترجمته.

معاوية^(١)، ومعاوية بن عروة^(٢)، والمنذر بن حرام^(٣)، ونفيل بن عبد العزى^(٤)، ووكيعة بن سلمة^(٥)، والوليد بن المغيرة.

ومن المهم الإشارة إلى أن من سبق ذكره من الحكام الذين أوردتهم المصادر المختلفة هم من اشتهر وعرف بالقضاء والإفتاء في الجاهلية القريبة من الإسلام، وممن تمكنت ذاكرة أهل الأخبار من اصطيادهم. ومن المحتمل أن يكون هناك حكام آخرون عاشوا في مواضع أخرى من جزيرة العرب، ولم يصل خبرهم إلى علم أهل الأخبار، فصرنا نحن من ثم في جهل من أمرهم^(٦).

(١) مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة، من تميم: من قضاة العرب في الجاهلية، كان يجلس على سرير من خشب، فسمي (ذا الأعواد) وإياه عنى الأسود بن يعفر بقوله:

ولقد علمت سبوى الذي نبأتني
أن السبيل سبيل ذي الأعواد (الأعلام ١٩١/٧).

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي، من بني النجار، من الخزرج: شاعر من ذوي السيادة والرأي في الجاهلية، وحكم من حكام العرب في الجاهلية، وهو جد حسان بن ثابت الشاعر (الأعلام ٢٩٣/٧).

(٤) نفيل بن عبد العزى بن رياح، من بني عدي بن كعب، من قريش: أحد قضاة العرب في الجاهلية. كانت قريش تتحاكم إليه في خصوماتها ومنافراتها. وهو جد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (الأعلام ٤٥/٨).

(٥) وكيع بن سلمة بن زهير الإيادي: من قضاة العرب في الجاهلية. ولي أمر البيت الحرام بعد جرهم، فبنى صرحاً بأسفل مكة، وجعل فيه سلماً؛ فكان يرقاه ويزعم أنه يناجي الله تعالى. وكان العرب الجاهليون يزعمون أنه من الصديقين (الأعلام ١١٧/٨).

(٦) جواد علي، المفصل ٥٠٥/٥.

الفصل الثاني

أدب الحكماء العرب :

(دراسة موضوعية)

أولاً: موضوعات الشعر

١- شعر الحرب.

٢- شعر المنافرات والمفاخرات والمناظرات.

٣- شعر الحكمة والوصايا.

٤- أغراض شعرية أخرى.

ثانياً: موضوعات النثر

١- الخطب.

٢- المنافرات والمناظرات.

٣- الوصايا.

٤- الحكم والأمثال.

أدب حكام العرب: دراسة موضوعية

أولاً: موضوعات الشعر:

عند الحديث عن موضوعات الشعر الجاهلي، لابد من الالتفات إلى أقوال العلماء والنقاد في هذا المجال؛ فقد كانت لهم آراء متعددة، التقت في بعض المواضع واختلفت في مواضع أخرى. وربما كان أبو تمام أول من تصدى لفكرة (تصنيف) أغراض الشعر وتحديد موضوعاته في عشرة أنواع وذلك في كتابه (الحماسة)، وذكر فيه أن موضوعات الشعر الرئيسية هي الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات، والسير، والنعاس، والملح، ومذمة النساء^(١). وهذه الموضوعات التي ذكرها أبو تمام ربما تكون قد ذكرت لأنه أراد أن يصنف كتابه في عشرة أبواب فلم يهتد إلى غيرها رغم أنه أهمل - ربما عن غير قصد - أغراضاً أكثر شيوعاً كالاعتذار والعتاب، بينما أورد في وصف الخمر أبياتاً قليلة دون أن يخصص لها (باباً) من أبواب كتابه.

وجاء بعد أبي تمام علماء آخرون حاولوا رسم معالم واضحة لأغراض الشعر، وكانت لهم اجتهادات وآراء متباينة، غير أن ما يلفت النظر هو التقاؤها النسبي مع التصنيف الذي وضعه أبو تمام رغم اختلافهم في (عدد) هذه الأنواع الشعرية؛ فقد جعلها ابن رشيق في كتاب (العمدة)^(٢) تسعة موضوعات ليس بينها وبين ما أورده أبو تمام كثير اختلاف، وكان قدامة بن جعفر قد جعلها - قبل ذلك - ستة أغراض، وحاول أن يعيد هذه الأغراض الستة إلى موضوعين هما المديح والهجاء^(٣)، أما أبو هلال العسكري فيقول إن أقسام الشعر كانت خمسة في الجاهلية، ثم زاد النابغة فيها الاعتذار فأصبح سادساً^(٤). والملفت في هذا التقسيم الذي قدمه العسكري إغفاله باب الحماسة وهو من أهم الأبواب وأكثرها شيوعاً في الشعر الجاهلي.

ولو أننا ألقينا نظرة على شعر حكام العرب في العصر الجاهلي فإننا سنجد معظم الأبواب أو الأغراض التي ذكرها النقاد السابقون ماثلة في هذا الشعر، ولا غرابة في ذلك؛

(١) انظر كتاب الحماسة لأبي تمام، ص

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١٣٤/٢ وما بعدها.

(٣) قدامة بن جعفر، (ت ٣٣٧هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٨.

(٤) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت بعد ٣٩٥هـ)، ديوان المعاني، ج ١، ط ١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٩١.

فالحكام كانوا أبناء لمجتمعهم في المقام الأول ولم يكونوا منسلخين عن هذا المجتمع، فكانوا يتفاعلون معه، ويتواصلون مع همومه وقضاياهم وأماله وآلامه، ولهذا فإن من يقرأ أشعارهم لابد أن يجدها حافلة بتلك الأغراض والأبواب، غير أن الأغراض التي طرقها الشعراء الحكام تتفاوت كثرة وقلة، وسوف يتبين لنا من خلال هذا الفصل أهم الموضوعات التي تناولها الحكام في أشعارهم.

١- شعر الحرب: تعد الحرب من الدوافع القوية لقول الشعر، وذلك بسبب ما تثيره من مشاعر الفخر بالذات والاعتداد بالقوة، وما تتطلبه من إقدام وشجاعة وتضحية بالنفس والمال، بالإضافة لما يواكب تلك الحروب والنزاعات من مساجلات شعرية بين شعراء الأطراف المتحاربة، حين يحاول كل فريق تقديم صورة زاهية عن قومه وبطولاتهم، فيفخر بهم وبصولتهم على أعدائهم، بينما يصور الأعداء وقد حلت بهم الهزائم، ملصقا بهم أبشع الصفات والخصائل، سالبا إياهم كل فضيلة. وهكذا فقد كانت الحروب معينا يستمد منه الشعراء موضوعات شعرهم، ولا نغالي حين نقول إن معظم الأغراض الشعرية التي عرفت عن الشعر العربي الجاهلي ترتد في أصولها إلى شعر الحرب، فالفخر بالقوم ومدح الرؤساء وهجاء الخصوم ورثاء الأبطال، وحتى الغزل بالمرأة وغير ذلك من فنون شعرية، نشأت عن شعر الحرب؛ إذ نرى الشاعر يصف المعركة وما دار فيها من أحداث، ويتكلم على بطولاته، ويمدح أبناء قبيلته، ويهجو أعداءها، ويتغزل بمحبوبته حين يقدم لنفسه صورة تجعل تلك المحبوبة أسيرة الإعجاب والفخر والتباهي، ومن أجل ذلك كله، وإدراكا لدور الحرب في إذكاء جذوة الشعر، نجد ابن سلام يجعلها سببا لكثرة الشعر، يقول^(١): "... وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا. وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف في طرف".

لقد عاش حكام العرب في تلك البيئة التي اتخذت - ربما من غير وعي - شعارا عنوانه (البقاء للأقوى)، وفي مجتمع يرى القوة والغزو والغارة والنهب أهم مقومات وجوده سواء للدفاع عن الذات في مواجهة القوى المعتدية أو لأي سبب آخر، وقد كان الحكام رؤساء قبائلهم وفرسانها وشعراءها وأصحاب الرأي فيها، فكان لابد من انعكاس أثر تلك الحروب في أشعارهم. وقد تمثل الحديث عن الحرب في شعر حكام العرب في الأمور التالية:

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ٢٥٩/١.

أ- وصف المعركة: اهتم الشعراء الجاهليون بوصف ما يجري من أحداث على أرض المعركة، ورصد تلك الأحداث وتسجيلها، فكان الشاعر أشبه بالناطق الرسمي الذي يذيع البيانات العسكرية عقب انتهاء المعركة، ويتكلم عما دار فيها، وعن بلائه وقومه، وكيف أنهم صبروا في القتال حتى تمكنوا من إلحاق الهزيمة المنكرة بالأعداء، وكما يفعل (الناطق العسكري) في ذكر خسائر العدو وإحصائها، فإن الشاعر يعدّد تلك الخسائر ويذكر اسم من قتل من رؤساء الأعداء وفرسانهم وأبطالهم المشهورين، ويتغنى بالأبطال من بني قومه واصفا كرمهم على صفوف أعدائهم وضربهم وطعنهم ورميهم، ومعيّرا الأعداء بالهزيمة بعدما باتوا غير قادرين على الصمود في ساحة المعركة، فلم يجدوا بدا من الفرار بعدما أثنوا ضربا وطعنا. ونجد في شعر الفرسان من حكام العرب أمثلة على ذلك، فمنه قول الحصين بن الحمام يصور جوّ المعركة التي خاضها قائدا لقومه، ويذكر ما جرى في تلك المعركة التي اضطر إلى خوضها بعدما أدرك أن أولئك الأعداء لم يلتفتوا إلى حسن عشرته ولم يقابلوا معروفه بمعروف، وإنما كان نصيبه منهم التكرّر والصدود والبغضاء وإظهار العداوة، فعند ذلك كان لا بد من مقاتلتهم والصبر عند مواجهتهم، ويصوّر كيف كانت سيوف قومه تغلق رؤوس الأعداء الذين كانوا إلى وقت قريب أعزة عليه ولكنهم بغوا وعقوا وظلموا، فكان جزاؤهم القتل في ساحة الحرب، يقول الحصين^(١):

ولمّا رأيتُ الوُدَّ ليس بِنَافِعِي	وَأَنْ كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ مُظْلِمًا
صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً	بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعُنَ كَفَا وَمَعْصَمًا
يُفْلَقْنَ هَامًا مِنْ رَجَالٍ أَعِزَّةٍ	عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا
وَجُوهَ عَدُوٍّ وَالصَّدُورُ حَدِيثَةً	بُودٌ فَلَوْدَى كُلُّ وَدٍّ فَاتَعَمَّا
فَلَيْتَ أَبَا شَبْلٍ رَأَى كَرَّ خَيْلِنَا	وَخَيْلَهُمْ بَيْنَ السَّتَارِ وَأَظْلَمًا

كما يصوّر أولئك القوم وقد انهزموا بينما تخترق الرماح أجسادهم، وكيف دنا الليل والقتال مستعر على أشده، حتى إن الناظر لا يمكنه تمييز الخيل سوى من كان منها معلما، وكيف كثر القتلى بين صفوف الأعداء وتكسرت فيهم الرماح، فلم تعد الخيل تستطيع الجري إلا بمشقة وجهه بسبب تعثرها بالجثث^(٢):

نُطَارِدُهُمْ نَسْتَقْذِرُ الْجُرْدَ كَالْقَنَا وَيَسْتَنْقِذُونَ السَّمْهَرِيَّ الْمُقَوَّمَا

(١) مهدي عبيد جاسم، شعر الحصين بن الحمام المري، مجلة المورد، المجلد ١٧، العدد ٣، ١٩٨٨م، ص.ص ١١٢-١١٥.

(٢) المرجع السابق.

عَشِيَّةٌ لَا تُغْنِي الرِّمَاحُ مَكَانَهَا وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفِيُّ الْمُصَمَّمَا
لَدُنْ غَدْوَةٌ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ مَا تَرَى مِنْ الْخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مُسَوَّمَا
يَطَانُ مِنَ الْقَتْلِ وَمَنْ قَصَدَ الْقَنَا خَبَاراً فَمَا يَجْرَيْنُ إِلَّا تَجَشُّمًا^(١)

وتكثر في شعر الحروب الإشارات الموحية بالحرب النفسية التي كانوا يجيدون استخدامها، ويتفننون في توجيه سهامها المسمومة إلى قلوب أعدائهم لإلقاء الرعب في نفوسهم وتخويفهم من اللقاء ومن المصير الذي لا بد أن يلقيه في حال إصرارهم على مواجهة هؤلاء القوم، ويضربون لهم المثل بأقوام آخرين سبق لهم أن ذاقوا مرارة الهزيمة فأصابهم ذل الانكسار ولازمهم الخزي والعار، ومن ذلك قول سنان بن أبي حارثة في قصيدة يستهلها بمخاطبة عدوه مهتدا متوعدا، واصفا قوة جيشه وفتكه بالأعادي، ونفاذ طعنه في صدور الرجال الذي يشبه الحريق المستعر الذي يلتهم كل شيء أمامه، أما ضرب سيوفهم فهو المنية ذاتها يسقون كأسها من تجراً على قتالهم فيتجرع كأساً مكروهة إلى نفسه لأنها مرة كالعقم، يقول سنان^(٢):

قُلْ لِلْمُتَلَمِّمِ وَأَبْنِ هُنْدٍ مَالِكٍ: إِنْ كُنْتُ رَائِمَ عَزْنَا فَاستَقْدِمِ
تَلَقَّ الَّذِي لاقَى الْعَدُوَّ وَتَصْطَبِحُ كَأْسًا صَبَابَتْهَا كَطْعَمِ الْعَلْقَمِ
نَحْبُو الْكَيْبَةِ حِينَ يَقْتَرِشُ الْقَنَا طَعْنًا كَالْهَابِ الْحَرِيقِ الْمُضْرَمِ
وَلَقَدْ خَبَطْنَ بَنِي كِلَابٍ خَبْطَةً الصَّقْنَهُمْ بِدَعَائِمِ الْمُتَخَيِّمِ
حَتَّى سَقَيْنَاهُمْ بِكَاسٍ مُرَّةً مَكْرُوهَةً حَسَوَاتِهَا كَالْعَلْقَمِ^(٣)

ب- الفخر: عمد الشعراء العرب إلى الفخر بالذات عند الحديث عن الحروب والوقائع، وذلك من أجل حفز الهمم وتقوية العزائم في مواجهة الأعداء، ولإدب الرعب في قلوب أولئك الأعداء، حين يصور الشاعر نفسه بطلا شجاعا فاتكا لا يقوم أمامه بطل إلا صرعه، ويصور

(١) الجرد: الخيل القصيرة الشعر. السميري: الرمح. المشرفي: سيف منسوب إلى المشارف، وهي قرى للعرب تدنو إلى الريف، أو إلى (مشرف) رجل من تقيف، المصمم: الذي يعني في صميم العظم وبيريه. الخارجي من الخيل: الجواد في غير نسب تقدم له. المسوم: المعلم بعلامة في الحرب، ولا يفعل ذلك إلا الفارس الشجاع. قصد القنا: القطع المكسرة من الرماح. الخبر: الأرض اللينة التي فيها جحور. التجشم: حمل النفس على المشقة والمكروه.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، ٣٤٩. والأصمعي، الأصمعيات، ٢٠٨.

(٣) رائم: من (رام). يريد إن كنت تريد أن تنال من عزنا بقتالنا فتقدم، يتهدده بذلك. تقتارش: تتقارص، تتداخل ويقع بعضها على بعض. المتخيم: موضع بناء الخيمة. حسوات: جمع حسوة، وهي القليل مما يشرب قدر ملء الفم.

قومه كأنهم أسود كاسرة يلتهمون جيش الأعداء ويهزمونهم شر هزيمة. وقد كثر الحديث عن الفخر بالنفس وبالجماعة في شعر الفرسان المحاربين من حكام العرب الذين كانوا يشاركون قومهم ويقودونهم في حروبهم وغزواتهم، ولم يكن فخرهم مقتصرًا على التغني بالشجاعة والإقدام والبطولة والفتك، وإنما فخروا كذلك بمزايا وصفات أخرى كانوا يتحلون بها كالكرم والنجدة والحلم ونفاذ البصيرة.

ونجد في شعر الحكام العرب أمثلة كثيرة من الفخر، كقول بشامة بن الغدير^(١):

وَلَقَدْ غَضِبْتُ لِخَنْدَفٍ وَلِقَيْسِيهَا	لَمَّا وَنَى عَنْ نَصْرِهَا خَذَّالَهَا
دَافَعْتُ عَنْ أَعْرَاضِهَا فَمَتَّعْتُهَا	وَلَدَيْ فِي أَمْنَالِهَا أَمْنَالَهَا
إِنِّي أَمْرُؤُ أَسِيمُ الْقَصَائِدِ لِلْعَدَى	إِنَّ الْقَصَائِدَ شَرُّهَا أَغْفَالُهَا
قَوْمِي بَنُو الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِجَمْعِهِمْ	وَالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْقَنَا إِشْعَالُهَا
مَازَالَ مَعْرُوفًا لِمُرَّةٍ فِي الْوَعَى	عَلَّ الْقَنَا وَعَلَيْهِمْ إِنْهَالُهَا
مَنْ عَهْدٌ عَادَ كَانَ مَعْرُوفًا لَنَا	أَسْرُ الْمُلُوكِ وَقَتْلُهَا وَقِتَالُهَا ^(٢)

وكذلك قول حاجب بن زرارة^(٣):

لَعَمْرُ أَيْبِكَ الْخَيْرُ يَا حَارِ إِنِّي	لَأُمْنَعُ جَارًا مِنْ كُلَيْبِ بْنِ وَائِلٍ
وَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ الْمَعْدِيُّ أَنَّنَا	عَلَى ذَاكَ كُنَّا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَأَنَا إِذَا مَا خَافَ جَارٌ ظَلَامَةً	لَبِسْنَا لَهُ ثَوْبِي وَفَاءِ وَنَائِلِ
وَأَنْ تَمِيمًا لَمْ تُحَارِبْ قَبِيلَةَ	مِنْ النَّاسِ إِلَّا أُولِعْتَ بِالْكَوَاهِلِ
وَأَنَا هَجَانٌ أَهْلُ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ	وَعِزٍّ قَدِيمٍ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَابْنِ سَيِّدٍ	أَغْرَ نَجِيبٍ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ
فَسَائِلُ أَيْبِ اللَّعْنِ عَنَّا فَبِإِنَّا	دَعَانِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ ^(٤)

(١) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة بن الغدير المري، مجلة المورد، المجلد ١، العدد ١، ١٩٧٧م، ص ٢٢١.

(٢) خندف: لقب ليلي امرأة إلياس بن مضر نزار، وإنما لقبت بذلك لقولها لزوجها يوماً: ما زلت أخندف في أشركم، والخندفة: مشية كالهرولة. اسم القصائد: أعلمها بما يصير كالسمة عليها حتى لا تتسبب إلى غيري. العل: الشربة الثانية والأولى التهل.

(٣) عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ط ١، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤) حار: ترخيم حارث، والمقصود هنا هو الحارث بن ظالم المري. كليب بن وائل: سيد بني تغلب المضروب به المثل في العزة (أعز من كليب بن وائل) والذي بسبب مقتله قامت حرب البسوس بين بكر وتغلب. ظلامه: إهانة. الكواهل: السادة. هجان: فحول. الجلائل: عظام الأمور.

وهذا ضمرة بن ضمرة، أحد الحكام الفرسان، يفخر بشجاعته وفروسيته، وتصديه
لكتائب الأعداء غير مبال بما فيها من رجال أشداء وأسلحة كثيرة، ويتحدث عن إكرامه
للضيف في وقت العسر والشدّة، وعن ذوده عن قبيلته ومحافظة على هيبتها وعزتها، يقول
ضمرة^(١):

وَمُشْعَلَةٌ كَالطَّيْرِ نَهْنَهْتُ وَرَدَهَا	إِذَا مَا الْجَبَانُ يَدَّعِي وَهُوَ عَانِدُ
عَلَيْهَا الْكَمَاءُ وَالْحَدِيدُ فَمِنْهُمْ	مَصِيدٌ لِأَطْرَافِ الْعَوَالِي وَصَانِدُ
شَمَاطِيْطُ تَهْوِي لِلسَّوَامِ كَأَنَّهَا	إِذَا هَبَّتْ غَوَاطُ كِلَابٍ طَوَارِدُ
وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّ أَرْوَمَتِي	يَفْعَاحُ إِذَا عَدَّ الرَّوَابِي الْمَوَاجِدُ
وَقِرْنُ تَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ	عَلَيْهِ نَجِيعٌ مِنْ دَمِ الْجَوْفِ جَاسِدُ
حَشَاهُ السَّنَانُ ثُمَّ خَرَّ لَأَنْفِهِ	كَمَا قَطَرَ الْكَعْبُ الْمُؤَرَّبُ نَاهِدُ
وَطَارِقُ لَيْلٍ كُنْتُ حَمَّ مَيْتِيهِ	إِذَا قَلَّ فِي الْحَيِّ الْجَمِيعِ الرَّوَاغِدُ
وَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا	وَأَكْرَمْتُهُ حَتَّى غَدَا وَهُوَ حَامِدُ
وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي لِيُحْرَزَ نَفْسُهُ	وَلَكُنْتُ عَنْ عَوْرَةِ الْحَيِّ ذَانِدُ ^(٢)

ج- التباهي بالنصر والشماتة بالأعداء: تنتهي المعركة في أغلب الأحوال بانتصار أحد
الطرفين المتحاربين على الآخر؛ مما يعد مجالا فسيحا للافتخار لدى الطرف المنتصر الذي
يلجأ إلى تضخيم انتصاره وتصوير هول الهزيمة التي ألحقها بعدوه، شامتا بذلك العدو ومهددا
إياه بالويل والثبور إن أعاد الكرة. وقد درج شعراء العرب على هذا الأمر حتى لا نكاد نجد
ديوانا لشاعر منهم يخلو من مثل هذا الشعر، وهو - فضلا عن الافتخار بالنصر وتعيير
الأعداء بالهزيمة - يؤدي وظيفة خطيرة في ذلك الصراع القبلي الذي يمتد سنوات طويلة في
بعض الأحيان، وذلك بما يمثله من حرب إعلامية ونفسية تجاه ذلك العدو المباشر، كما إنه
يمثل رسالة إلى القبائل الأخرى التي قد تفكر في دخول الحرب ضد هذه القبيلة، وتحذيرها من
النتيجة الحتمية التي ستفضي إليها في تلك الحال، فتكون وظيفته هنا وظيفة وقائية دفاعية

(١) هاشم طه شلاش، شعر ضمرة بن ضمرة، مجلة المورد، المجلد ١٠، العدد ٢، ١٩٨١م، ص .

(٢) المشعلة (بفتح العين): الكتيبة تشعل للحرب تشبيها بالنار المشعلة. نهنت: كفت. الورد: القطيع من
الجنح والطيور. يدعي: ينتسب. العاند: المنحرف. العوالي: أعالي الرماح. شماطيط: متقطعة. السوام: الإبل
الراعية، كالسائمة. الغوط: جمع غائط، وهو الواسع المظمن من الأرض. طوارد: قوائم. اليفاع: المرتفع.
المواجد: العظيمة. القرن: الكف في الشجاعة. النجيع: الشديدة الحمرة. الجاسد: الملتصق. حشاه السنان: دخل
في أحشائه. قطره: رماه على قطريه أي ناحيته. الكعب: عظم يلعب به. الناهد: الصبي المرتفع. حمم: قصد.
الرفد: المعونة. يحرز: يحفظ ويصون.

وكانها خط الدفاع الأول عن القبيلة، وبذلك يكون الشاعر قد شيد لقبيلته حصناً منيعاً للوقوف في وجه أعدائها قبل النزال وقراع الأبطال.

ويبرز هذا الجانب في شعر حكام العرب بشكل جلي؛ فهذا غيلان بن سلمة يتصدى لجموع خثعم التي غزت ثقيفا بالطائف، فيقاتلهم قتالاً شديداً، ويهزمهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة، ويأسر عدة منهم، ثم يمنّ عليهم وينشد مفتخراً^(١):

ألا يا أخت خثعم خبرينا	بأيّ بلاء قوم تُفخرينا
جلبنا الخيل من أكتاف وجّ	وليث نحوكم بالدار عينا
راينا هنّ معلّمة رواحاً	يقيتان الصباح ومعتدينا
فأمست مسي خامسة جميعاً	نضابغ في القياد وقد وجينا
وقد نظرت طوالعكم إلينا	بأعينهم وحققنا الظنونا
إلى رجراجة في الدار تُعشي	إذا استنتت عيون الناظرينا
تركن نساءكم في الدار نوحاً	يُبكون البعولة والبنينا
جمعتم جمعكم فطلبتمونا	فهل أثبتت حال الطالبينا؟ ^(٢)

وهذا متمم بن نويرة يفتخر بمحاربة النعمان بن المنذر وأسر ابنه قابوس الذي كان بطلاً يفتك بالفرسان، ولكن بطولته لم تغن عنه شيئاً فوقع في الأسر، يقول متمم^(٣):

ونحن عقرنا مَهْرَ قابوس بعدما	رأى القوم منه الموت والخيل تُلحِبُ
عليه دلاص ذات نسج وسيفه	جُراز من الجنثي أبيض مقضب
طلبنا بها إنا مداريك قبلها	إذا طلب الشاؤ البعيد المغرب ^(٤)

(١) بدر أحمد ضيف، غيلان بن سلمة الثقيفي وما تبقى من شعره، مجلة المورد، المجلد ٢٥، العدد ١٩٩٧، ١٩٩٧، ص ٩٢.

(٢) وج: موضع بالبادية، وقيل بلد الطائف. وليث بكسر أدلة وسكون ثانيه: واد بأسفل السراة. المعلمة: الممیزة. . ويقيتان: يقال: أقات الشيء: قدر عليه. والصباح: الغارة تفجأ صباحاً. مسي خامسة: في مساء الليلة الخامسة. ونضابغ: تمدّ أظباعها (ج ضبيع وهو العضد) في سيرها. والقياد: ما يقاد به كالمقود. وجين: حفين؛ يقال وجي الماشي يوجى وجى: حفي. الرجراجة: الكتبية العظيمة. وتعشي العيون: تجعلها لا ترى. واستنتت: أسرعت.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٧٧/٦. وابن الأثير، الكامل ٥٣٢/١.

(٤) تلحِب: تضرب بالسوط. ودلاص: درع. جراز: مقطوع. الجنثي: الحديد. مقضب: قاطع. مداريك: نبال ونبلغ ما نريد. الشاؤ البعيد: الغاية البعيدة.

د- وصف أدوات المعركة: يعد الحديث عن أدوات المعركة من سلاح وخيل ودروع وغيرها من العناصر المهمة في شعر الحرب عند العرب، ومن الطبيعي أن يكون كذلك؛ لأن السلاح عنصر أساسي من عناصر الحرب، ففي قوته وقوة حامله تتحدد النتائج، وفي حسن استخدامه تتضح ملامح القدرة القتالية للمقاتلين. وقد بقي السلاح موضع تقدير العرب واعتزازهم واحترامهم لأنهم أدركوا قيمته، وعرفوا حقه، فكانوا يتحدثون عنه بكثير من الإعجاب والحب لأنه وسيلتهم في تحقيق الحياة وصيانة الشرف والدفاع عن النفس والقبيلة، ولعزة موقعه في نفوسهم، وقيمته في حياتهم كانوا يرهونونه إذا أصابهم أمر عظيم أو حلت بهم كارثة. وتمثل قيمة السلاح شرف الرجل، وهو قائم بما رهنه له مهما كلفه الأمر، وفي قصة حاجب بن زرارة ورهنه لقوسه تتمثل هذه المعاني وتتجسد الخصال العزيزة التي ظل حريصا على الوفاء بها.

إن الحديث عن أدوات المعركة يبدو ماثلاً في شعر الحرب عند حكام العرب، فالسيف قاطع بتار، والقناة لدنة، والرمح نافذ، والدرع مضعف لا تنفذ فيه طعنات الأعداء ولا تؤثر فيه ضرباتهم، ومن ذلك قول الحصين بن الحمام واصفا عدة الحرب التي تجهز بها لحرب أعدائه^(١):

وَيَوْمَ تَسْعَرُ فِيهِ الْحُرُوبُ	لَبِسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا
مُضَعَّفَةَ السَّرْدِ عَادِيَّةَ	وَعَضْبَ الْمَضَارِبِ مِقْصَالَهَا
وَمُطْرَدًا مِنْ رُدِّيَّةِ	أَذُودَ عَنِ الْوَرْدِ أَبْطَالَهَا ^(٢)

وكذلك قوله في قصيدة أخرى وصف فيها أسلحة قومه وأدوات قتالهم وخيلهم، فوصف سيوفهم الباترة، ودروعهم التي أحكم نسجها في قوله^(٣):

صَفَائِحَ بَصْرَى أَخْلَصْتُهَا فَيُوثُهَا	وَمُطْرَدًا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مِنْبَهُمَا ^(١)
--	--

(١) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١١٠.

(٢) تسعر: تتقد. السربال هنا: الدرع. مضعفة السرد: مضاعفة النسج. عادية: نسبة إلى عاد. العضب: القاطع. المفصال: مبالغة في فاصل. الردينية: الرماح المنسوبة إلى ردينة زوجة سمير الذي عرفت الرماح السميرية باسمه.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٢.

ووصف رماحهم التي نفذت في صدور الأعداء فارتوت من دمائهم^(٢):
يَهْزُونَ سُمْرًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْيَةٍ إِذَا حُرَّكَتْ بَضَّتْ عَوَامِلُهَا دَمًا^(٣)

كما وصف خيلهم التي أبليت أحسن البلاء في كرها وفرها، وهي تحمل الفرسان الذين يصلون على الأعداء^(٤):

فَلَيْتَ أبا شَيْبَلٍ رَأَى كَرًّا خَيْلَنَا
لَذُنْ غَدْوَةٌ حَتَّى أَتَى اللَّيْلُ مَا تَرَى
وَأَجْرَدٌ كَالسَّرْحَانِ يَضْرِبُهُ النَّدَى
عَلَيْهِنَّ فِتْيَانٌ كَسَاهُمْ مُحَرَّقٌ
وَحَيْلُهُمْ بَيْنَ السَّتَارِ وَأَظْلَمَا
مِنْ الْخَيْلِ إِلَّا خَارِجِيًّا مُسَوِّمًا
وَمَحْبُوكَةً كَالسَّيِّدِ شَقَاءَ صِلْدِمَا
وَكَانَ إِذَا يَكْسُو أَجَادَ وَأَكْرَمَا^(٥)

ومن الحكام الذين نجد لأدوات الحرب وصفا في شعرهم بشامة بن الغدير، ومن ذلك قوله^(٦):
وَحَشَّوْا الْحُرُوبَ إِذَا أَوْقَدَتْ
وَمِنْ نَسِجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةٍ
رَمَاحًا طَوَالًا وَخَيْلًا فَخُولًا
تَرَى لِلْقَوَاضِبِ فِيهَا صَلِيلًا^(٧)

وعبد المطلب بن هاشم الذي يصف فعل سيفه وحسن بلائه في المعركة، فيقول^(٨):
مَنْ خَانَهُ سَيْفُهُ فِي يَوْمٍ مَلْحَمَةٍ
كَمْ قَطَّ مِنْ سَاعِدٍ يَوْمًا وَجُمُجُمَةٍ
فَإِنْ عَطْشَانٌ لَمْ يَنْكُلْ وَلَمْ يَخَنْ
وَمِعْغَرٌ فَرْدُمَانِيٍّ وَمِنْ بَدَنٍ^(٩)

(١) الصفائح: السيوف العريضة. القين: الحداد. المطرد: المتتابع الذي ليس فيه اختلاف.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٢.

(٣) بضت: سالت. العامل من الرمح: أسفل من السنان بذراع، ويقال: بل العامل الرمح كله.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٢.

(٥) الستار وأظلم: موضعان. الخارجي من الخيل: الجواد في غير نسب تقدم له كأنه نبغ بالجودة. المسوم: المعلم للحرب، يقال: سوم الرجل فرسه: جعل له علامة، ولا يفعل ذلك إلا الشجاع. الأجرد: فرس عربي قصير الشعر. السرحان والسيد: من أسماء الذئب. المحبوكة: المحكمة الخلق. محرق: عمرو بن هند.

(٦) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٥.

(٧) حشوا: أوقدوا. الموضونة: الدروع التي نسجت حلقتين حلقتين مضاعفة. القواضب: السيوف. الصليل: الصوت على الشيء اليابس، يريد أن السيوف لا تعمل فييا فتصل إذا ضربت: أي تصوت.

(٨) أحمد خضير الجبوري، شعر فريش في الجاهلية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة اليرموك، ١٩٩٥م، القطعة رقم (٤٧).

(٩) عطشان: سيف عبد المطلب. قط: قطع. مغفر: درع ينسج من الحديد على قدر الرأس ويوضع تحت القلنسوة.

٢- شعر المنافرات والمفاخرات والمناظرات: المنافسة هي المفاخرة والمحاكمة

في الحسب، وهي أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكما رجلا بينهما كما فعل عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريان حين تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري. وكان العرب يتنافرون إلى الحاكم، ويسألونه: أينأ أعزّ نفرأ؟.

وقد كانت المنافرات سببا في وقوع كثير من النزاعات والمشاحنات بين أفراد القبيلة الواحدة كما رأينا في منافرة علقمة بن علاثة و عامر بن الطفيل^(١)، تلك المنافسة التي كادت تتطور إلى نزاع دموي تسفك فيه دماء وتزهق أرواح، لولا فطنة هرم بن قطبة وذكاءه وحسن تصرفه، فحال دون وقوع حرب بين أفراد القبيلة الواحدة. وقد تكون المنافسة بين رجلين من قبيلتين مختلفتين مما يكون أدعى إلى تحول المنافسة إلى (اشتباكات مسلحة) بين القبيلتين قد تمتد سنوات طويلة فتحصد كثيرا من الرؤوس وتخلف الحشرات والأهات ودعوات الثأر.

ومثلما كانت الحروب سببا لازدهار الشعر وكثرته إلى الحد الذي دفع ابن سلام لجعلها العامل الأهم في هذا الأمر^(٢)، فإن المنافرات التي كانت من أسباب تلك الحروب قد ساهمت أيضا^١ إذكاء جذوة الشعر، وأمدت الشعراء بأسباب، وفتحت لهم أبوابا جديدة لقول الشعر، وربما كانت أغراض المدح والفخر والهجاء ناشئة عن مثل هذه المنافرات التي تحفل أخبارها بكثير من الشعر الذي قاله المتنافرون أنفسهم أو بعض مناصريهم من شعراء قبيلتهم أو حتى من شعراء القبائل الأخرى. ومن أمثلة المنافرات التي أسهم فيها شعراء من غير المتنافرين، منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، فقد حظيت هذه المنافسة باهتمام عدد من الشعراء الذين أدلى كل منهم بدلوه فيها محاولا ترجيح كفة طرف على طرف عبر إبراز خصاله الحميدة أو إبراز ما لدى الآخر من مساوئ للتأثير على الحكم ودفعه لإصدار حكم في مصلحة من يقف هذا الشاعر في صفه؛ ولعل أكثر من سعى هذا السعي لبيد بن ربيعة؛ إذ نجد في ديوانه وفي كتب الأدب عددا من المقطوعات والأبيات التي قالها في هذه المناسبة، ومن ذلك قوله بعدما انتهت المنافسة، وتجمع الناس ليعرفوا رأي الحكم، فخطب هرما ومدحه

(١) انظر تفاصيل ذلك في: الأصفهاني، الأغاني ٣٠٤/١٦-٣١٥. والالوسي، بلوغ الأرب ٢٨٨/١-٢٩٧.

(٢) ينظر: ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٢٥٩/١.

(في محاولة للتأثير عليه)، وذكره بأهمية القضية التي ينظر فيها، طالبا أن يكون الحكم في صالح من يقف في صفه، مبينا أن عامرا هو خير من علقمة^(١):

يَا هَرَمَ ابْنَ الْأَكْرَمِينَ مُتَصَبَا
إِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ حُكْمًا مُعْجَبَا
فَاحْكُمْ وَصَوِّبْ رَأْيَ مَنْ تَصَوَّبَا
إِنَّ الَّذِي يَغْلُو عَلَيْهَا ثَرْثَبَا
لَخَيْرُنَا عَمَّا وَأَمَّا وَأَبَا
وَعَامِرٌ خَيْرُهُمَا مُرَكَّبَا
وَعَامِرٌ أَدْنَى لِقَيْسٍ لِنَسَبَا^(٢)

إن المنافرات هي المجال الأنسب للكشف عن طبيعة الحكام وما يقومون به من تحكيم بين المتنافرين؛ ففيها تبرز القيم المشتركة التي يحرص الجميع على التعبير عنها وتكريسها في الحياة العامة، كالكرم والشهامة والنخوة، ونبل الأصل وكرم المحتد وعراقة النسب، وهي ميدان التنافس بين المتخاصمين الذين يحرص كل منهم على إبرازها وتضخيمها لديه، مثلما يحرص على النيل من خصمه من خلال الطعن عليه بعدم امتلاك تلك الخصال والمزايا الرفيعة، وإن المتتبع لأخبار المنافرات يجد هذا الأمر بكل جلاء ووضوح؛ إذ إن معظمها يدور حول التنازع على اكتساب تلك القيم الإيجابية الخيرة، والتتصل من كل ما من شأنه أن يلحق العيب أو العار أو يصم المرء بوصمة لا تمحى آثارها.

وقد أدرك الحكام أثر تلك القيم في الحياة الجاهلية، فاتخذوها معايير للتفضيل بين الخصوم، ووجهوا الناس إلى الاهتمام بها وتعزيزها وغرسها في نفوس أبنائهم، سعيا منهم لتحقيق نوع من الوئام الاجتماعي بين أفراد المجتمع الذي يسعى كل فرد فيه لأن يكون الأُمير في كل شيء، وإدراكا منهم - أيضا - للوظيفة التي يقومون بها كحكام؛ فهم بمثابة صمام الأمان الذي يسيطر على نزوات الطائشين، وحماقات الحمقى الذين يجرون على قبائلهم الوليات والحروب بسبب ما يقتربون من أفعال.

(١) ديوان لبديد بن ربيعة، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ٣٨. والأغاني ٣١٤/١٦-٣١٥.

(٢) الترتب: الأمر الثابت الدائم. المركب: الأصل والمنبت.

وقد سجل الحكام في شعرهم بعضا مما كان يتصل بهذه المفاخرات حين يحكمون بين طرفين متنازعين، فكانوا يلجؤون إلى ذكر مزايا أحد الطرفين وعيوب الطرف الآخر، ويشرحون الأسباب التي من أجلها يفضلون هذا على ذاك وينفرونه عليه تبعا لتلك الأسباب. ونجد مثلاً على هذا في منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، فقد وقع بين الاثنين تماحك ولجاج أدى بهما إلى التنافر، فجعلا بينهما النجاشي ملك الحبشة، فأبى أن ينفر بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح، فقال لحرب: يا أبا عمرو! أنتافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأوسم منك وسامة، وأعظم منك هامة، وأقل منك لامة، وأكثر منك ولداً وأجزل منك صفداً، وأطول منك مِذوداً، وإني لأقول هذا وإن فيك لخصالاً: إنك لبعيد الغضب رفيع الصيت في العرب، جلد المريرة تحبك العشيرة، ولكنك نافرت منقرا. ثم نقر عبد المطلب، فغضب حرب وأغلظ لنفيل وقال: من انتكاس الدهر أن جعلناك حكماً، فأنشأ نفيل يقول^(١):

لِيَهْنُ قَوْماً لَهُمْ فِي النَّاسِ سَابِقَةٌ	حَمَلُ الْمِثْنِ وَسَبَقَ مَالَهُمْ وَرَعٌ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ ثَوْرًا يُسْتَضَاءُ بِهِ	إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْطَا نَوْءَهَا التَّجَعُ
وَهُمْ عَرُوقُ الثَّرَى مِنْهُمْ أَرُومَتُنَا	مَا جَادَهَا الْيَوْمَ فِي تَرْبَائِهِمْ ضَرَعٌ
أَوْلَادُ شَيْبَةِ أَهْلِ الْمَجْدِ قَدْ عَلِمَتْ	عُلْيَا مَعْدً إِذَا مَا هَزَّهِزَ الْوَرَعُ
يَا حَرْبُ مَا بَلَغْتَ مَسْعَاتِكُمْ هُبْعَا	تَسْقِي الْحَجِيجَ وَمَاذَا يَحْمِلُ الْهَبْعُ
أَبُوكُما وَاحِدٌ وَالْفَرْعُ بَيْنَكُما	مِثْنُ الْخِشَاشِ وَمِنْهُ النَّاصِرُ الْيَنْعُ
فَاعْرِفْ لِقَوْمِ هُمُ الْأَرْبَابُ فَوْقَكُمْ	لَا يُدْرِكُكَ شَرٌّ مَالَهُ دَقْعُ
هُمُ الرَّبَى مِنْ ثَرِيشٍ فِي أَرُومَتِهَا	وَالْمُطْعِمُونَ إِذَا مَا مَسَّهَا الْقِشْعُ ^(٢)

ونلاحظ في هذه القصيدة أن قائلها قد عمد إلى ما يشبه المديح عند حديثه عن عبد المطلب وقومه بني هاشم، فهم السابقون إلى كل مكرمة سبقا لا يدركه أحد من الناس، وهم أهل المجد والكرم والشهامة والمروءة، وهم المطعمون في أوقات الجذب والشدة والجوع؛ فلا عجب أن يفضلهم على من سواهم من الناس، وأن ينقرهم على من نافرهم كائننا من كان، حتى ولو كان هذا الخصم من القبيلة نفسها، فهو لا يرقى إلى هؤلاء القوم؛ لأنهم هم الرؤوس والسادة. وقد

(١) فاطمة المزروعى، المفاخرات في الأدب الجاهلي، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة اليرموك، ١٩٩٨م، ص ٢٠٦. نقلاً عن: ابن حبيب، المنمق، ص ٩٤-٩٨.

(٢) النجع، (جمع نجعه): طلب الكل والعرف، ويستعار فيما سواهما فيقال: فلان نجعتي أي أُملي. الهَبْعُ: الفصيل الذي ينتج في الصيف وسمي (هبعاً) لأن الرباع تنتج في ربيعة النتاج أي في أوله، وينتج (الهبع) في الصيف فينتج الرباع قبله فإذا ماشاها أبطرت ذراعاً أي حملته على ما لا يطيق لأنها أقوى منه، فـ(هبع) أي استعان بـعنقه في مشيه. الخشاش: الشرار من كل شيء. القشع (جمع قشعة): القطعة الخلق اليابسة من الجلد (ابن منظور، لسان العرب).

ساق الحكم هذه المسوغات والأسباب سعيًا لإقناع الطرف المنفور بصحة حكمه وعدالته، فكأنه يقول: إن أي حكم يخالف هذا الحكم لابد أن يكون جائراً، فبرغم الخصال الكريمة التي يتحلى بها حرب إلا أن هذه الخصال لم تشفع له في هذه المنافرة لأن خصمه يمتلك من تلك الخصال أضعاف ما عنده، وهذا ما بينه الحكم (نفيل) لحرب عندما قال له: ولكنك نافرت منقرا.

وتكثر في الشعر الجاهلي عموماً القصائد التي يقولها الشعراء في التغني بحميد خصالهم وكريم فعالهم، وفي الفخر بأقوامهم وعشائرهم، وقد تقدم الحديث عن أهمية الشاعر ومكانته في ذلك العصر من حيث إنه الوسيلة الإعلامية الأبعد أثراً والأكثر انتشاراً بين الناس. أما الشعراء من حكام العرب فإن هذا الشعر يبدو حاضراً على نحو واضح في كثير من قصائدهم، فتراهم يفخرون بأنفسهم وبما يحملونه من صفات ومزايا كالكرم والشجاعة والنجدة والإقدام والحلم والعفة والذكاء، مثلما يفخرون بقبائلهم وقوتها وأيامها وفتكها بأعدائها وعزتها ومنعتها؛ فممن فخر بقومه أمية بن أبي الصلت في قصيدته التي يعدد فيها مآثره، ويتغنى بقومه وببطولاتهم، ويقول بأن نسبه من أعلى النسب وأشرفه، وأن المجد معرق في أجداده الذين ورثوه من بعدهم من البنين والأحفاد، ثم ينتقل إلى الحديث عن الوقائع التي خاضها قومه وكان الظفر حليفاً لهم حتى ملأت أسماع الدنيا أخبار انتصاراتهم، فهابتهم القبائل جميعاً، وأصبحت مهابتهم تأسر قلوب الأعداء والأصدقاء، يقول أمية^(١):

فإِذَا سَأَلِي عَنِّي لَبِيتِي	وَعَنْ نَسَبِي أَخْبَرَكِ الْيَقِينَا
ثَقِي أَنِّي النَّبِيَةُ أَبَا وَأَمَّا	وَأَجْدَادَا سَمَوْا فِي الْأَقْدَمِينَا
وَرَثْنَا الْمَجْدَ عَنْ كُبْرَا نِزَارِ	فَاوْرَثْنَا مَآثِرَنَا الْبَنِينَا
تُخْبِرُكَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ	إِذَا عَدُّوا سِعَايَةَ أَوْلِينَا
بِأَنَّا التَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ	وَأَنَا الضَّارِبُونَ إِذَا التَّقِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ إِذَا أَرَدْنَا	وَأَنَا الْمُقْبِلُونَ إِذَا دُعِينَا
وَأَنَا الْحَامِلُونَ إِذَا أَنَاخَتْ	خَطُوبٌ فِي الْعَشِيرَةِ تَبْتَلِينَا
وَأَنَا الرَّافِعُونَ عَلَى مَعَدٍّ	أَكْفَا فِي الْمَكَارِمِ مَا بَقِينَا
نُشَرِّدُ بِالْمَخَافَةِ مَنْ أَتَانَا	وَيُعْطِينَا الْمَقَادَةَ مَنْ يَلِينَا

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٨٤-٨٥. وجمهرة أشعار العرب، ص ٢٣٩-٢٤١.

ونَدْخُلُ دارَ قَوْمٍ آخِرِينَا^(١)

نَسِيرُ بِمَعْتَسِرٍ: قَوْمٌ لِقَوْمٍ

وهذا معاوية بن مالك (معوذ الحكماء) يعدد صفاته الحميدة، وخلاله الكريمة، ويفتخر بنفسه وبقومه، فهو رجل يسعى في الصلح بين المتخاصمين بعدما وقع بينهم الشرّ وتفرّقوا بعد اجتماع، ولا يكتفي بالعمل على رأب الصدع بين الطرفين الممتازين، وإنما يعطي من ماله في سبيل إتمام الصلح؛ فيسجل سابقة كريمة ومأثرة عظيمة يقتدي بها من يجيء بعده من الحكام والسادة والرؤساء، ويفتخر أنه بفعله هذا قد سبق رجلين كريمين شريفيين ثم يعود فيمدحهما. ويقول إن ما يقوم به من عمل يكسب عشيرته الصيت والذكر الجميل، ويشرك بني قومه في فخره لأنهم يعينونه على هذه الأفعال الكريمة، وهم قوم أعزة كرام يملكون من وسائل القوة والمنعة ما يحقق لهم غاياتهم. يقول معاوية بعد مقدمة غزلية ووقوف على أطلال الأحياء^(٢):

وكان الصَّدْعُ لا يَعدُّ ارتِئاباً
ولا ظُلماً أرَدْتُ ولا اختِلاباً
إذا ما الحقُّ في الأشْياع ناباً^(٣)
ولو دُعِيَ إلى مثل أجاباً
وأورثُ مَجْدَها أبداً كِلاباً
نَهَضْتُ ولا أدبٌ لها دِباباً
رَعَيْنَاهُ وإنْ كانوا غِضاباً^(٤)

رَأَيْتُ الصَّدْعَ مِنْ كَعْبٍ فَاوَدَى
حَمَلْتُ حَمَالَةَ الْفُرَشِيِّ عَنْهُمْ
أَعُوذُ مِثْلَها الْحُكَمَاءُ بَعْدِي
سَبَقْتُ بِها قَدَامَةً أَوْ سُميراً
سَأَحْمِلُها وَتَعْقِلُها غَنِيٌّ
وَكُنْتُ إذا الْعَظِيمَةُ أَقْرَعَتْهُمْ
إذا نَزَلَ السَّحَابُ بَارِضَ قَوْمٍ

ولعوف بن الأحوص قصيدة يفخر فيها بنفسه، ويعدّد خصاله الكريمة ومآثره، فهو كريم قد جعل بيته مأوى للضيوف، وأوقد ناره لكي يراها طالب القرى في الليل، ثم يفخر بأنه يطعم وقت الجذب والشدة، فإذا لم يكن هناك لبن في ضروع إبله نحرها وأطعم لحمها للجياح، يقول عوف^(٥):

(١) لبينى: اسم امرأة. أناخت الخطوب: حدثت المصائب والويلات، أراد أنهم كافلو قومهم عند المصائب والمحن.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٣٥٧-٣٦٠. والأصمعي، الأصمعيات، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) في منتهى الطلب: إذا ما نائب الحدثان نابا. وبهذا البيت سمي (معوذ الحكماء).

(٤) لا يعد ارتئاباً: لم يكن يرجى صلاحه. الحمالة: ما يعطى من الإبل في الدية. الخلاصة: الخداع. يعقلها: يؤدي عقلها.

(٥) المفضل الضبي، المفضليات، ص ١٧٦-١٧٨.

ومُسْتَنْبَح يَخْشَى الْقَوَاءَ وَدُونَهُ
رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا
فَلَا تَسْأَلِينِي وَاسْأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي
تَرَى أَنَّ قَدْرِي لَا تَزَالُ كَانَتْهَا
مُبَرَّرَةً لَا يَجْعَلُ السَّيْرُ دُونَهَا
إِذَا الشَّوْلُ رَاحَتْ ثُمَّ لَمْ تَفِدْ لَحْمَهَا
مِنْ اللَّيْلِ بَابًا ظَلَمَةً وَسَنُورَهَا
زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهْرَ غُفُورَهَا
إِذَا رَدَّ عَافِي الْقَدْرُ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا
لِذِي الْفُرُوعِ الْمَقْرُورِ أَمْ يَزُورُهَا
إِذَا أَحْمَدُ النَّيْرَانُ لَاحَ بِشِيرُهَا
بِالْبَانِيهَا ذَاقَ السَّنَانَ عَقِيرُهَا^(١)

أما صفاته الخلقية فإنه يتجنب الأحقاد والضغائن مستندا إلى فلسفة حكيمة، فهو يخشى هذه الضغائن أن تجني عليه، ويرى أن معظم النار من مستصغر الشرر، كما أنه لا يلتفت إلى الأمور التافهة ولا يهتم إن سمع كلاما قبيحا وإنما يخلق أذنيه عن سماع مثل هذا الكلام. ثم يفخر ببني قومه وحلفائهم ويشير إلى مضاء عزيمته وعدم تردده في اقتحام غمرات الأهوال^(٢):

وإِنِّي لَتَرَاكَ الضَّغِينَةَ قَدْ بَدَا
مَخَافَةَ أَنْ تَجْنِي عَلَيَّ، وَإِنَّمَا
إِذَا قِيلَتِ الْعَوْرَاءُ وَلَيْتَ سَمِعَهَا
لِعَمْرِي لَقَدْ أَشْرَفْتَ يَوْمَ عُنَيْرَةٍ
وَلَكِنْ هَلْكَ الْأَمْرُ أَنْ لَا ثِمَرَةَ
تَرَاهَا مِنَ الْمَوْلَى فَلَا اسْتَعِيرُهَا
يَهِيحُ كَبِيرَاتِ الْأُمُورِ صَغِيرُهَا
سِوَايَ وَلَمْ أَسْأَلْ بِهَا: مَا دَبِيرُهَا
عَلَى رَغْبَةٍ لَوْ شَدَّ نَفْسًا ضَمِيرُهَا
وَلَا ضَمِيرَ فِي ذِي مَرَّةٍ لَا يُغَيِّرُهَا^(٣)

ومن الحكام الذين نجد للمفاخرة والمنافرة صدى في شعرهم ذو الإصبع العدوانى وذلك في قصيدته التي يعاتب فيها ابن عمه ويوبخه ويحذره من عاقبة قطع الرحم ومن مغبة الاستمرار في الكيد له ومعاداته والتربص به. والقصيدة حافلة بالحكم والمواعظ والاعتداد بالنفس مما ينبئ بأن قائلها رجل عرك الحياة وذاق حلوها ومرها؛ فبعد مقدمة غزلية يحدثنا عن ابن عمه الذي يبغضه ويسعى في مذمته وإيذائه رغم أنه لا يتميز عنه ولا يفوقه حسبا أو

(١) المستنبح: الذي يضل الطريق فينبج لتجبيه الكلاب، فيستدل على الحي فيقصدهم. القواء: الخالي من الأرض، أي يخشى أن يهلك فيه. عافي القدر: ما يبقى فيه من طعام. ذو الفروع: السائل المستجدي. المقرور: الذي اشتد به البرد. بشيرها: ضوءها، يبشر الناظر إليه ويستدل به على الخير. الشول: الإبل التي شولت ألبانها أي ارتفعت.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٣) تراها: أثرها. المولى: ابن العم هنا. صريم: قبيلة. جلال وذات كهف: موضعان. القور: جمع قارة. وهو المرتفع في صلابة. العوراء: الكلمة القبيحة. دبيرها: عاقبتها. رياح: هو رياح بن الأشل الغنوي. العرف: المعروف. حيث استمر مريرها: حيث جد أمرها، والمريرة: الحبل إذا فتل. يوم عنيزة: يوم من أيام العرب. لو شد نفسا ضميرها: أي لو اشتد العزم. أن لا تمره: أن لا تحكمه، وأصل الإمرار إحكام الفتل. يغيرها: من الإغارة، وهي شدة الفتل.

نسباً، كما أنه لا يتفوق عليه في أي شيء، وليس بصاحب يد عليا في الشدائد التي قد تطرق الشاعر. وبعد أن يعدّد مظاهر الإساءة التي يتعرض لها من ابن عمه ويتوعدّه بالكف عن أذاه وإلا نال منه ما يستحق من رادع العقاب. ثم يعمد إلى الحديث عن صفاته ونبله وكرمه وشجاعته، فهو إنسان راجح العقل سليم الرأي، أبيّ لا يقبل الظلم والهوان ولا يغضي على الإساءة، وهو فضلاً عن ذلك يمدّ يده بالخير إلى الآخرين ولا يعلق بابه عن صاحب حاجة، وهي صفات تكاد تتكرر لدى جميع الشعراء الذين يطرقون هذا الباب من أبواب الشعر، غير أننا نلاحظ شيئاً من التميز لدى ذي الإصبع يكاد يجعله منفرداً في حرصه على دوام الألفة والمحبة واجتماع الكلمة وذلك حين يختم قصيدته بنداء يوجهه إلى ابن عمه، هذا النداء تفوح منه رائحة المودة واللفظ والعطف وكأنه يختصر قصيدته كلها في هذا البيت، أما القصيدة فيقول فيها^(١):

يا مَنْ لِقَلْبٍ طَوِيلٍ الْبَثَّ مَحْزُونٍ	أَمْسَى تَذَكَّرَ رِيًّا أَمْ هَارُونَ
أَمْسَى تَذَكَّرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَحَطْتَ	وَالدَّهْرُ ذُو غِلْظَةٍ حِينَا وَذُو لِينٍ
وَلِي أَبْنُ عَمٍّ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ	مُخْتَلِفَانِ، فَأَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي
أَزْرَى بِنَا أَنَّنَا شَالَتْ نَعَامَتُنَا	فَخَالَنِي ذُونُهُ بَلْ خِلْتُهُ ذُونِي
لَا هِ أَبْنُ عَمِّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبِ	عَنِّي وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَخَزُونِي
وَلَا تَفُوتُ عِيَالِي يَوْمَ مَسْغَبَةٍ	وَلَا بِنَفْسِكَ فِي الْعَزَاءِ تَكْفِينِي
لَوْلَا أَوَاصِرُ قُرْبَى لَسْتُ تَحْفَظُهَا	وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِي مَوْلَى يُعَادِينِي
إِذَا بَرَيْتُكَ بَرِيًّا لَا أَتْجَبَّرُ لَهُ	إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَنْفُكُ تَبْرِينِي
يَا عَمْرُو إِلَّا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصَتِي	أَضْرِبُكَ حَتَّى تُقُولَ الْهَامَةُ أَسْقُونِي
عَنِّي إِلَيْكَ فَمَا أَمِّي بِرَاعِيَةٍ	تَرْعَى الْمَخَاضَ وَلَا رَأْيِي بِمَغْبُونٍ
إِنِّي أَبِيَّ أَبِيَّ ذُو مُحَافَظَةٍ	وَأَبْنُ أَبِيَّ أَبِيَّ مِنْ أَبِيَّيْنِ
لَا يُخْرِجُ الْقَسْرُ مِنِّي غَيْرَ مَايِيَةٍ	وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَبْتَغِي لِينِي
كُلُّ أَمْرٍ صَائِرٍ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ	وَأِنْ تَخْلُقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينٍ
وَاللَّهُ لَوْ كَرِهَتْ كَفِّي مُصَاحِبَتِي	لَقُلْتُ إِذَا كَرِهَتْ قُرْبَى لَهَا: بَيْنِي
يَا عَمْرُو لَوْ لَيْتَ لِي الْفَيْتِي يَسْرًا	سَمَحًا كَرِيمًا أَجَازِي مَنْ يُجَازِينِي ^(٢)

(١) ديوان ذي الإصبع، ص. ٨٨-٩٩.

(٢) البث: الهم. رياءً وأم هارون: اسم امرأة. شحطت: ابتعدت ونأت. أقليه: أهجره وأبغضه. شالت نعامتنا: يقال: شالت نعامتهم إذا انتقلوا عن الموضع فلم يبق فيه منهم أحد ولم يبق لهم فيه شيء. ديان: قاهر. العزاء: السنة الشديدة. المولى هنا: ابن العم. الهامة: طائر خرافي زعم العرب في جاهليتهم أنه كان يقف على رأس القتيل ويقول: "اسقوني... اسقوني" أي من دم القاتل، ولا يطير حتى يؤخذ بثار القتيل. مغبون: فاسد. بيني: ابتعدي أو فارقني.

وهكذا فإن شعر المنافرات والمناظرات والمفاخرات عند شعراء العرب بعامّة، يدور في معاني الفخر بالذات والتغني بالخصال الحميدة والصفات الكريمة، وتمجيد البطولات الفردية والجماعية، وتأكيد القيم السامية في المجتمع من كرم وشهامة ونخوة ونجدة وعفة وإصلاح بين المتخاصمين وإطعام الطعام، وكل هذه المعاني تسمو بصاحبها وترفعه في عيون الأصدقاء والأعداء وتظهره بمظهر الكمال الذي ينشده كل إنسان.

٣- شعر الحكمة والوصايا: مرّ بنا عند الكلام على معنى كلمة (حكم) من الناحيتين

اللغوية والاصطلاحية أن العرب كانوا يطلقون على الحكم لفظة (حكيم)، والحكيم في تعريف علماء اللغة هو الشخص العالم صاحب الحكمة، المصيب برأيه، الذي يقضي على الشيء بأنه كذا أو ليس كذا، وهو الذي يحسن دقائق الصناعات ويتقنها. ومن معاني الحكيم: الحاكم، وهو القاضي، وأن (المحكم) هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة، ولذلك يقال للرجل إذا كان حكيمًا: قد أحكمته التجارب^(١). مما يدل على أن العرب كانوا يعنون بالحكمة التبصر في الأمور، واستقراء الحوادث ودراستها للاستفادة منها واستخراج العبر المفيدة والتجارب النافعة، ولهذا فقد أدخلوا عملية الحكم بين الناس، والفصل في القضايا التي تقع بينهم وإصدار الأحكام بشأنها من جملة أمور الحكمة وذلك بسبب ما يتمتع به الحكام من فطنة وعلم ودراية وتجربة وسعة اطلاع في مناحي الحياة المختلفة.

لقد توافرت في حكام العرب جملة أسباب تجعل كل واحد منهم حكيمًا بمقتضى المفهوم السابق لكلمة (حكيم)، ففضلاً عن الذكاء وسعة العلم والتجربة والحلم، فإن من عادة الحكمة أن تصدر عن شخص مسنّ خاض كثيراً من التجارب في الحياة، وليس عن شاب في مقتبل عمره؛ لأن العقل يكتمل وينضج وتتسع مداركه بتقدم الإنسان في العمر، ولذا فقد جاءت الحكمة في كثير من الأحيان مضافة إلى الشيوخ الذين يكونون قد وصلوا مراحل متقدمة في السن تؤهلهم للنطق بالحكمة، وهذا ما نجده عند معظم حكام العرب الذين عدّ كثير منهم في جملة المعمرين.

أما الوصايا فهي مجموعة النصائح التي يقدمها الشخص المجرب إلى الآخرين لكي يستفيدوا منها في مواجهة المواقف الحياتية المختلفة. وعادة ما تصدر الوصية عن الموصي

(١) ينظر ص ١ من هذا البحث.

حين يتقدم به العمر ويشعر بدنو أجله، فيبادر إلى بث خبرات حياته وتجاربه وحكمه في وصية تكون موجهة في أغلب الأحيان إلى أحد أبنائه أو إلى قومه وعشيرته، وتدور هذه الوصية حول أفضل السبل لمعاملة الناس وكسب محبتهم وتجنب العداوات والمشاحنات فيما بينهم، وقد يوصي ببعض الأمور الخاصة كتقسيم الأموال بين الورثة أو غير ذلك.

ولما كان الشعر ديوان العرب، يسجلون فيه مفاخرهم ومآثرهم وأيامهم، ومختلف شؤون حياتهم، فقد كان لابد من انعكاس حكمة حكمائهم وتجاربهم ونصائحهم ووصاياهم في هذا الشعر، ويبدو هذا الأمر جلياً في شعر حكام العرب الذين سجلوا بعضاً من هذه الحكم والوصايا في قصائدهم، وتدور معظم هذه الحكم حول التفكير في أمور الدنيا وأحوالها ومصير البشر بعد رحلة حياتهم فيها، والتفكير في الكون والمخلوقات وعظمة الخالق وكذلك حول النصائح والوصايا التي تختص بالحياة اليومية وما يواجهه الناس من مصاعب، ووصايا الأبناء عند الموت، وغيرها من الحكم والوصايا العامة.

ولعل من أبرز المسائل التي كانت تشغل اهتمام الناس في ذلك الزمان عموماً مسألة البقاء والفناء، فإننا نلاحظ ما يشبه الهيمنة لدى معظم الشعراء إزاء هذه المسألة حتى لا يكاد واحد منهم يتجاهلها، فكانها تلح على الجميع بحضورها القوي المؤثر، ولذا فإن الشعراء من حكام العرب قد تناولوا هذه المسألة في شعرهم، فبرزت حتى كادت تحتل المكان الأبرز في شعر الحكمة لدى هؤلاء الشعراء. ومن الذين عنوا بهذه القضية في شعرهم قس بن ساعدة الإيادي الذي تكثر في قصائده الحكم والمواعظ والوصايا الداعية إلى التدبر والتفكير والنظر والاعتبار، كقوله في إحدى القصائد^(١):

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ جَوَاهِ أَدْكَارُ	وَلِيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَسِجَالٌ هَوَاطِلٌ مِنْ غَمَامِ	تُرْنُ مَاءٍ وَفِي جَوَاهُنَّ نَارُ
ضَوْوُهَا يَطْمِسُ الْعُيُونَ وَارْعَا	دَ شِدَادَ فِي الْخَافَقَيْنِ تُطَارُ
وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتْ الْخَيْبَ	سَرَّ وَأُخْرَى خَلَّتْ بِهِنَ قِفَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخُ رَاسِيَاتٍ	وَبِحَارٍ مِيَاهُهُنَّ غِرَارُ
وَنُجُومٌ تَلُوحُ فِي ظِلْمِ اللَّيْلِ	لَ نَرَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ثُمَّ شَمْسٌ يَحْتُثُّهَا قَمَرُ اللَّيْلِ	لَ وَكُلُّ مُتَابِعٍ مَوَّارُ

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ١٨٢/٢. ولويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٢١٢.

وصغيرٌ وأشْمَطٌ وكبيرٌ
وكبيرٌ ممَّا يُقَصِّرُ عَنْهُ
فالذي قدْ ذُكِرْتُ دَلٌّ عَلَى اللَّهِ
كُلَّهُمْ فِي الصَّعِيدِ يَوْمًا مَزَارُ
حَدْسُهُ الْخَاطِرُ الَّذِي لَا يَحَارُ
سَهْ نَفُوسًا لَهَا هُدًى وَاعْتِبَارُ

ويظهر من خلال الأبيات السابقة مدى الوعي والإدراك الذين وصل إليهما قس بن ساعدة، كما يظهر كذلك أثر التدبر والنظر في مظاهر الكون المختلفة من ليل ونهار وشمس وقمر، وجبال وأنهار، ومخلوقات متنوعة؛ هذه النظرة لا بد أن تكون ناتجة عن سلامة فكر وإحساس فطري عميق بقدرة خالق هذا الكون الذي يصرفه بإرادته كيف يشاء، والذي يقدر الموت والفناء على جميع الأحياء صغيرهم وكبيرهم، فالمال واحد للجميع: الموت.

ومن أشهر ما يروى لقس أبياته التي قالها ضمن خطبة له بسوق عكاظ، وهي الخطبة التي شهدها رسول الله (ﷺ) ورواها، أما الشعر فيقول قس^(١):

فِي الدَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ
أَيُّقُنْتُ أَنِّي لَا مَحَا
سَنَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
يَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكْبَارُ
وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
لَهُ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

وهي دعوة واضحة صريحة للتبصر وأخذ العظة والاعتبار من مصير الأمم السابقة، وإدراك بحتمية انتهاء حياة الإنسان وفنائه، فالموت لا يدع صغيراً ولا كبيراً، والزمن الذي يمضي لن يعود، وهذا إحساس وصل إلى درجة اليقين الذي لا يخالطه شك، فمصير كل إنسان لا بد أن يكون كمصير الذين سبقوه من القرون الغابرة.

ويعد متم بن نويرة من أبرز الشعراء الحكام الذين التفتوا إلى قضية تقلب الزمان وتبدل الحال، إذ يقول في قصيدة له طويلة، متحدثاً عن الدهر وأحواله وكيف أفنى الأمم والممالك، داعياً إلى أخذ العظة والعبرة من هذه التغيرات التي تبدو كأنها نتيجة طبيعية لسير الحياة وسنن الكون، مبدياً ترقبه وانتظاره للشدائد والأحوال واستعداده لمغادرة الحياة عند انتهاء رحلته في هذه الدنيا إقراراً بأن المصير المحتوم لا بد أن يكون بانتظاره وأنه سوف

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١. وابن كثير، البداية والنهاية ١٨٣/٢. ولويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٢١٣.

يلحق بمن سبقه من أبائه وأجداده، فكأنه يلتبس العزاء لنفسه حين يذكر كل هؤلاء الذين مضوا ولم يبق منهم سوى أخبارهم يقول متمم^(١):

ولقد سبقت العاذلات بشرية	رياً وراووقى عظيم مترع
ولقد غبطت بما ألقى حبة	ولقد يمر علي يوم أشنع
أفبعد من ولدت نسيبة أشكي	زو المنية أو أرى أتوجع
ولقد علمت ولا محالة أنني	للحادثات فهل تريني أجزع
أقنين عاداً ثم آل محرق	فتركهم بلداً وما قد جمعوا
ولهن كان الحارثان كلاهما	ولهن كان أخو المصانع تبع
فعددت أبائي إلى عرق الثرى	فدعوتهم فعلمت أن لم يسمغوا
ذهبوا فلم أدركهم ودعتهم	غول أتوها والطريق المهيع
لأبد من تلف مصيب فانتظر	أبارض قومك أم بأخرى تصرع
ولياتين عليك يوم مرة	يبكى عليك مقتعاً لا تسمع ^(٢)

ولا يبتعد ذو الإصبع العدوانى عن المعاني السابقة حين يستذكر أيام شبابه التي انقضت وحل بعدها المشيب والهرم، فيبدو كأنه موقن بما سيؤول إليه حاله، وأن مصيره لن يختلف عن مصير من سبقوه مهما طال عمره وامتدت أيامه، يقول ذو الإصبع^(٣):

لا يبعدن عصر الشباب ولا	لذاته ونباته التضمر
والمرشقات من الخدود كايـ	حماض الغمام صواحب القطر
وطراد خيل مثلها التقفا	لحفيظة ومقاعيد الخمر
لولا أولئك ما حفلت متى	غولبت في حرج إلى قبر
هزئت زنيبة أن رأت ثرمي	وأن اتحنى لتقادم ظهري
من بعد ما عهدت فادلفني	يوم يجيء وليلة تسري
حتى كائني خاتل قنصاً	والمرء بعد تمامه يحري
لا تهزئي مني زنيب فما	في ذاك من عجب ولا سخر
أولم ترى لقمان أهلكه	ما اقتات من سنة ومن شهر

(١) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٤٨-٥٤. وابن ميمون، منتهى الطلب ٦/٣٧٠-٣٧٩.

(٢) شربة ريا: تروي صاحبها. الراووق: أصله الخرقعة التي تجعل على فم الإناء يصفى بها، ثم كثر استعماله حتى أطلق على الباطية. مترع: ملآن. نسيبة: أم الشاعر. زو المنية: القدر. للحادثات: أي غرض للحادثات. بلداً: تراباً. المصانع: القصور. تبع: ملك من ملوك اليمن. عرق الثرى: أراد به آدم عليه السلام، لأنه الأصل القديم الذي خلق من طين، قال أبو عبيدة: "دون أعراق التراب: يعني آدم، لأن الله خلقه من تراب". الغول: ما اغتال الشيء وذهب به، والغول: المنية. المهيع: البين الواضح، عني به الموت. التلف: الهلاك. مقتع: ملفف في أكفانه.

(٣) ديوان ذي الإصبع، ص ٣٨-٤٠.

وَبَقَاءِ نَسْرِ كُلَّمَا انْقَرَضَتْ
مَا طَالَ مِنْ أَمَدٍ عَلَى لَبَدٍ
أَيَّامُهُ عَادَتْ إِلَى نَسْرِ
رَجَعَتْ مَحْوَرَّتُهُ إِلَى قَصْرِ
وَعَلِمْتُ مَا آتَى مِنَ الْأَمْرِ^(١)

وهناك شعراء آخرون تناولوا هذه المسألة (الحياة والموت أو البقاء والفناء) من جانب غير مباشر، وذلك من خلال الحديث عن انقضاء الشباب وأيامه الجميلة الزاهية بما تمثله من قوة ونشاط وفتوة، والتحسر على تلك الأيام وتمني عودتها، ومن هؤلاء الشعراء بشامة بن الغدير الذي يبدو في قصيدته مفجوعاً بشبابه الغض، وغصنه الأخضر اللين بعدما فقد هذا الشباب وأصبح شيخاً هرماً لا يقوى على النهوض ولا يرجى منه خير أو شر بعدما كان يملأ السمع والبصر، ويعترف بأن هذا من فعل الزمان الذي لا يمكن لمخلوق أن يقهره أو يقف في وجهه، يقول بشامة^(٢):

قَالَتْ أَمَامَهُ يَوْمَ بَرْقَةٍ وَاسِطٍ
أَصْبَحْتُ بَعْدَ شَبَابِكَ الْغَضَّ الَّذِي
شَيْخاً دِعَامَتِكَ الْعَصَا وَمُشَيَّعاً
فَاجِبَتْهَا: أَمَّنْ يُعَمِّرُ يَعْتَرِفُ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ شَبِيهَ مَا عَيَّرْتَنِي
وَجَعَلْتُ يُغْضِبُنِي الْيَسِيرُ وَمَلَّنِي
يَا بَنَ الْغَدِيرِ لَقَدْ جَعَلْتَ تَنْكَرُ
وَلَّتْ شَبَابُكَ وَغَصْنُكَ أَخْضَرُ
لَا تَبْتَغِي خَبَرًا وَلَا تُسْتَخْبِرُ
مَا تَزْعُمِينَ وَيَنْبُ عَنْهُ الْمَنْظَرُ
يَسْرِي عَلَيَّ بِهِ الزَّمَانُ وَيَبْكُرُ
أَهْلِي وَكُنْتُ مُكْرَمًا لَا أَكْهَرُ
نَحْوَ الْجَمَاعَةِ مِنْ بَنِي الْأَصْغَرِ^(٣)

(١) لا يبعدن: دعاء تحسر يتضمن رجاء بديمومة الشباب التي لا تكون. المرشقات: صفة للحدود التي أحسن خلقها، فهي بهية جميلة. الحفيظة: الغضب والحمية. الحرج: خشب يشد بعضه إلى بعض، يحمل عليه الموتى. الثرم: سقوط مقادير الأسنان. أدلّني: من دلف الشيخ، إذا مشى وقارب الخطو من الوهن والضعف. السري: السير ليلاً. حرى الشيء: نقص، يقال: يحري كما يحري القمر، وأحراه الزمان، والحارية: الأفعى التي نقص جسمها من الكبر، وذلك أخبث ما يكون منها. لبد: هو آخر نسور لقمان بن عاد، والعرب تزعم أن لقمان قد خُيّر فاختار أن يعمر عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ فرخ النسر، فيجعله في مكان من الجبل، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع واسمه (لبد) فكان أطولها عمراً، فلما انقضى عمره رآه واقفاً فناداه: انهض لبد، فأراد النهوض فلم يستطع، فسقط ومات، ومات لقمان معه، فضرب به المثل، فقيل: طال الأبد على لبد، فيكون لقمان قد عاش - بزعمهم - ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة!! (مجمع الأمثال ١/٥٢٧-٥٢٨). المحور: ما يرجع من الخبر والذكر. حلبت الدهر أشطره: مثل يضرب للرجل العالم بالدهر، والأشطر جمع شطر: وأصله في حلب الناقة، لأنك تحلب شطراً، ثم تحلب الشطر الآخر. والمعنى: أنه جرب الدهر في جميع أحواله (جمهرة الأمثال ١/٣٤٦).

(٢) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٩.

(٣) برقة واسط: اسم موضع. تنكر: تتغير. المشيع: الذي يحتاج معونة غيره عند السير. ينب: من نبا، ونبت صورته، فبحت فلم تقبلها العين. أكهر: أنهر وأقهر. القعب: قدح مقعر مصنوع من الخشب.

وقد تنبه الحكماء منذ القدم إلى العلاقات الاجتماعية بين البشر وما يسودها من قيم إيجابية كالصدق والأمانة والعفة والكرم والنجدة فعملوا على تعزيزها في نفوس الناس والحض عليها، ومدحوا من يتحلى بهذه الصفات، بينما كانت أضداد هذه القيم والصفات كالكذب والخيانة والبخل والفجور والجبن من الصفات السلبية المعيبة التي يتجنبونها ويحرصون على الابتعاد عنها، ولهذا فقد كثرت في قصائد الشعراء الإشارات المباشرة وغير المباشرة إلى مثل هذه الأمور، فكانوا يقدمونها على شكل حكم ونصائح وعظات ووصايا، ومن أمثلة ذلك ما قاله سويد بن الصامت عن الصديق الزائف الذي لا يحفظ عهد الصداقة، فيخون صديقه لأنفه الأسباب ويطعنه في ظهره، وبينما يكون في ظاهره أمينا صادقا مخلصا وفيما فإنه في الحقيقة يخفي الغدر والغش والبغضاء، ويتمنى لصديقه المكاره والشرور، يقول سويد^(١):

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى	مَقَالَتُهُ بِالْغَيْبِ سَاءَ مَا يَقْرِي
مَقَالَتُهُ كَالشَّهْدِ مَا كَانَ شَاهِدًا	وَبِالْغَيْبِ مَأْثُورٌ عَلَى ثُعْرَةِ النَّحْرِ
يَسْرُكُ بَادِيَهُ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ	نَمِيمَةٌ غَشٌّ تَبْتَرِي عَقَبَ الظَّهْرِ
ثَبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَاتِمٌ	مِنْ الْغَلِّ وَالْبَغْضَاءِ بِالنَّظَرِ الشَّزْرِ
فَرَشَنِي بِخَيْرِ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي	فَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ بَرِيشُ وَلَا يَبْرِي ^(٢)

أما الأقرع بن حابس فإن له قطعة شعرية يصف فيها حاله مع صديقه وصفا هو أقرب إلى الفخر لأنه يقدم نفسه رجلا حليما كريما يحتمل زلة الصديق ويلتمس له العذر ولكنه مع ذلك لا يترضاه إذا كان مخطئا، فإذا لم يجد بدا من الهجر والقطيعة فإنه يحفظ عهد صاحبه ويصون سره، يقول الأقرع^(٣):

أَصْدُ صَنْدُودِ أَمْرِي مُجْمَلٌ	إِذَا خَالَ ذُو الْوَدِّ عَنْ خَالِهِ
وَلَسْتُ بِمُسْتَعْتَبٍ صَاحِبًا	إِذَا جَعَلَ الْهَجْرَ مِنْ بَالِهِ
وَلَكِنِّي قَاطِعُ حَبْلِهِ	وَذَلِكَ فِعْلِي بِأَمْتَالِهِ
وَإِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ لَهُ	مِنْ ادِّبَارِ أَمْرِ وَإِقْبَالِهِ
لِرَاعٍ لَأَحْسَنَ مَا يَبِينُنَا	بِحِفْظِ الْإِخَاءِ وَإِجْلَالِهِ ^(٤)

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢.

(٢) يفري: يختلق ويكذب. المأثور: السيف الموشى. تبتري: تقطع. عقب الظهر: عصبه. راشه: قواه. براه: أضعفه.

(٣) عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم، ص ٣٤٥.

(٤) المجمل: المتأنى المعتدل. حال: تغير. استعتب: طلب العتبي، أي الرضا.

وهذا الزبير بن عبد المطلب ينظر في أمور الدنيا والحياة ويتدبر أحوال البشر، ثم يصوغ نظراته حكما شعرية، يدرك معانيها ومراميها من يعمل عقله وتفكيره، وهي مجموعة من الحكم صيغت على نحو يدل على وعي وإدراك وبصيرة^(١):

لَقَدْ تَرَجُّوْا فَيَعْسُرُ مَا تَرْجَى	عَلَيْكَ، وَيَنْجَحُ الْأَمْرُ الْعَسِيرُ
وَمَا تَدْرِي أَفِي الْأَمْرِ الْمَرْجَى	أَمْ الْأَمْرُ الَّذِي تَخْشَى السُّرُورُ
لَوْ أَنَّ الْأَمْرَ مُقْبِلُهُ جَلِيٌّ	كَمُدْبِرِهِ لَمَا عَيَّ الْبَصِيرُ
إِذَا مَا الْعَقْلُ لَمْ يَعْقُدْ بِقَلْبِ	فَلَيْسَ يَجِيءُ بِالْعَقْلِ الدُّهُورُ
وَلَيْسَ الْفَقْرُ مِنْ إِقْلَالِ مَالِ	وَلَكِنْ أَحْمَقُ الْقَوْمِ الْفَقِيرُ
صَغِيرُ الْقَوْمِ فِي التَّأْدِيبِ يُرْجَى	وَلَا يُرْجَى عَلَى الْأَدَبِ الْكَبِيرُ
تُصِيبُ الْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ	وَيُخْلِفُ ظَنُّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
مَتَى تُطْفِئَ كَبِيرَ الشَّرِّ يُطْفِئِ	وَإِنْ أَوْقَدْتَهُ كَبُرَ الصَّغِيرُ
كَمَالُ الْمَرْءِ حُسْنُ الدِّينِ مِنْهُ	وَيَنْقُصُهُ - وَإِنْ كَمَلَ - الْفُجُورُ
إِذَا لَمْ تَدْرُ مَا الْإِنْسَانُ فَانْظُرْ	مَنْ الْخَدْنُ الْمَفَاوِضُ وَالْوَزِيرُ ^(٢)

وإن المتأمل في هذه القصيدة يلمس مدى تأثر الشاعر بمهمة القضاء، بما فيها من استعمال للعقل في التأمل والتفكير وتدبير الأمور، ويدرك النظرة الموضوعية التي يتحلّى بها الشاعر - القاضي، وذلك من خلال اهتمامه بجواهر الأشياء لا مظاهرها، وبألبابها بدلا من قشورها؛ فقد ينخدع الإنسان بمظهر شخص ما، دون أن يعلم حقيقته المخفية وراء هذا المظهر الذي ربما كان زائفا خادعا، ولذا فإن في هذه الأبيات دعوة للتأني قبل إطلاق الأحكام والتسرع إلى اتخاذ القرارات. كما أن فيها - كذلك - دعوة إلى التحلي بكريم الخلق والابتعاد عن الفجور، مثلما تولى أهمية كبيرة لمسألة اختيار الصديق الذي لا بد أن يكون مرآة لصديقه.

وللزبير قطعة شعرية من خمسة أبيات في كل بيت منها حكمة أو نصيحة، وهي تتم عن عقل مدرك مجرب؛ فالرسول يجب أن يكون عاقلا حكيما يدرك الهدف الذي أرسل من أجله، لكي ينجح في الحاجة التي أرسل من أجلها، أما مشورة العقلاء فإنها سبيل ينبغي على المرء سلوكها حين تلتبس عليه الأمور. ويهتم الزبير بأدب المجالس، فيرى ضرورة التثبت مما يقوله الرجل عند مجالسته الآخرين؛ فلا يتكلم دون وعي وإدراك، كما يؤكد على أهمية

^(١) علي بن أبي الفرج البصري (ت ٦٥٦هـ)، الحماسة البصرية، ط ١، ج ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٨٦٣.

^(٢) الطرير: ذو النظر والهيئة. الوزير: الذي تلتجئ إلى رأيه وتدبيره.

الأمانة في نقل أحاديث الناس، وعدم تشويهها بصورة تقلب الحقائق وتحيل الحق باطلا والباطل حقا. أما أصحاب الحقوق، فيجب إعطاء كل منهم ما يستحق دون مطل أو بخس أو نقصان لأن أيا من هذه الأعمال يعد ظلما يوجب القطيعة والعداوة والبغضاء بين الناس، يقول الزبير^(١):

إذا كُنتَ في حاجةٍ مُرسِلاً	فأرسلَ حكيماً ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليكِ التَّوى	فشاوِرْ لبيباً ولا تُعصِه
ولا تنطقِ الدَّهرَ في مَجْلِسٍ	حديثاً إذا أنتَ لم تُحْصِه
ونصَّ الحديثَ إلى أهله	فإنَّ الأمانةَ في نصِّه
وذو الحقِّ لا تنقِصْ حقَّه	فإنَّ القطيعةَ في نقْصِه

أما الوصايا فقد عني بها الشعراء من حكام العرب، وتركزت في غالبيتها على وصايا الأبناء للأبناء عند الموت، ومن هذه الوصايا قطع عديده لعبد المطلب بن هاشم يوصي بعض بنيه، فيقول في إحداها مخاطباً أبا طالب يوصيه خيراً بمحمد (ﷺ)، ويذكر في هذه القصيدة - المقطوعة أن محمدا سيكون له شأن عظيم، مما يشير إلى معرفته وإطلاعه على الأخبار، وذلك من خلال علاقاته بالناس عامة وبأهل العلم والمكانة والزعامة خاصة، ولعل خير مثال على ذلك ما جرى بينه وبين الملك سيف بن ذي يزن عندما وفد عليه عبد المطلب مهتماً باسترداد ملكه من الحبشة، وما دار^{بينهما} من حديث أنبأ فيه الملك عبد المطلب بما سيكون من شأن النبي (ﷺ)^(٢) - وقد سبق أن تحدثنا في الفصل الأول من هذه الدراسة عن العلاقات المتميزة التي كان الحكام يقيمونها بشكل عام، وعن وفادتهم على الملوك بشكل خاص -^(٣).

أما الوصية، ففيها إشارة صريحة إلى ما يتوقعه عبد المطلب من مستقبل لحفيده (ﷺ)، مستتداً إلى بشرى سيف بن ذي يزن، وإلى ما يقوله الأحبار والرهبان وأهل الأخبار بشأن صفات النبي المنتظر، ولذا فإنه يوصي أبا طالب بالاعتناء بابن أخيه وحمايته مما يكاد له، والحذر عليه من الأشرار والحساد^(٤):

أوصي أبا طالبٍ بعدي بذي رَحِمٍ مُحَمَّدٍ وَهُوَ فِي ذَا النَّاسِ مَحْمُودٌ

(١) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال ٩٨/١.

(٢) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٦٠/١-٢٦٤. والأصفهاني، الأغاني ٣١٢/١٧-٣١٦.

(٣) انظر ص ١ من هذا البحث.

(٤) أحمد الجبوري، شعر قريش، قافية الدال المهملة، القطعة رقم (٨).

هذا الذي تَزَعُمُ الْأَحْبَارُ أَنَّ لَهُ
فِي كُتُبِ مُوسَى وَعِيسَى مِنْهُ بَيِّنَةٌ
فَأَحْذَرُ عَلَيْهِ شِرَارَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
أَمْرًا سَيُظْهِرُهُ نَصْرٌ وَتَأْيِيدُ
كَمَا يُحَدِّثُنِي الْقَوْمُ الْعَبَائِدُ
وَالْحَاسِدِينَ، فَإِنَّ الْخَيْرَ مُحْشُودٌ^(١)

ويبدو أن محبة عبد المطلب لحفيده (ﷺ) وخوفه عليه جعله لا يكتفي بتلك القطعة الشعرية فعاد يكرّر الوصية لأبي طالب، ولكن هذه المرة على شكل أرجوزة، وهي تدور حول نفس معاني القطعة السابقة ولا تكاد تختلف عنها يقول عبد المطلب^(٢):

أَوْصَيْتُ مَنْ كَتَبْتُهُ بِطَالِبٍ
بَابْنِ الَّذِي قَدْ غَابَ غَيْرَ أَنْبٍ
مُحَمَّدٌ ذُو الْعَرْفِ وَالذَّوَانِبِ
فَلَسْتُ بِالْأَنْسِ غَيْرَ الرَّاعِبِ
عَبْدٌ مُنَافٍ وَهُوَ ذُو تَجَارِبٍ
بَابْنِ الْحَبِيبِ أَقْرَبَ الْأَقَارِبِ
قُلُوبِي إِلَيْهِ مُقْبِلٌ وَأَنْبٍ
بِأَنَّ يُحِقَّ اللَّهُ قَوْلَ الرَّاهِبِ
فِيهِ وَأَنْ يَقْضَلَ آلَ غَالِبِ^(٣)

وهذه وصية أخرى من وصايا عبد المطلب، ولكنها هذه المرة موجهة إلى ابنه الزبير بن عبد المطلب، يطلب منه المحافظة على عهد كان قد عقده مع قوم آخرين، ويوصيه بصيانة الحلف وعدم نقضه، لأن أولئك القوم كانوا مخلصين في وفائهم لحليفهم^(٤):

سَأَوْصِي زُبَيْرًا إِنْ تَوَافَتْ مَتَيَّتِي
وَأَنْ يَحْفَظَ الْحِلْفَ الَّذِي سَنَّ شَيْخُهُ
يَأْمَسَاكِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي عَمْرُو
وَلَا يُلْحِدَنَّ فِيهِ بِظُلْمٍ وَلَا عُدْرٍ
أَبَاكَ فَكَانُوا ذُونَ قَوْمِكَ مِنْ فَهْرٍ
هُمْ حَفِظُوا إِلَّا الْقَدِيمَ وَخَالَفُوا

وتعد وصية ذي الإصبع العدواني لولده من الوصايا المهمة في هذا المجال، وذلك بسبب شموليتها ووضوحها، فهو وإن كان يخاطب ابنه في هذه الوصية، إلا أن الخطاب يبدو وكأنه موجه إلى عامة الناس لما فيه من حض على التمسك بالكرام والسعي لنيلها عبر كثير من السبل التي بيّنها في وصيته ومنها: بذل المال، ومؤاخاة الكرام وملازمتهم، والابتعاد عن اللئام، والمحافظة على الأخ والصديق، وعدم التواني في الطلب، وإكرام الضيف، وبذل النفس عند الحاجة للدفاع عن الشرف والعرض والحسب، وهي جملة أمور درج العرب على المناداة بها وتربية أبنائهم عليها. والوصية ذات شقين نثري وشعري، أما النثري فسوف يتم الحديث

(١) العبايد: أي المتفرقين المختلفين.

(٢) المرجع السابق، قافية الباء، القطعة رقم (٢).

(٣) أنب: عائد أو راجع. الأنس: اليأس.

(٤) المرجع السابق، قافية الراء القطعة رقم (١٩).

عنه عند الحديث عن موضوعات النثر في أدب حكام العرب، وأما الشعري فيقول ذو الإصبع^(١):

أَسِيدُ إِنِّ مَالًا مَلَكُ	سَتَ فَسِيرٌ بِهِ سَيْرًا جَمِيلًا
أَخَ الْكِرَامِ إِنِّ اسْتَطَعُ	سَتَ إِلَى إِخَائِهِمْ سَبِيلًا
أَبْنَى إِنِّ الْمَالَ لَا	يَبْكِي إِذَا فَقَدَ الْبَخِيلًا
أَسِيدُ إِنِّ أَرْمَعَتُ مِنْ	بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ رَحِيلًا
فَاحْقُظْ وَإِنِّ شَحَطَ الْمَزَا	رُ أَخَا أَخِيكَ أَوْ الزَّمِيلَا
وَدَعَ التَّوَانِي فِي الْأُمُو	ر وَكُنْ لَهَا سَلِسًا ذُلُولَا
وَابْسُطْ يَمِينَكَ بِالتَّدَى	وَامْذُدْ لَهَا بَاعًا طَوِيلَا
وَابْذُلْ لِضَيْفِكَ ذَاتَ رَحَى	لِكَ مُكْرَمًا حَتَّى يَزُولَا
وَأَنْزِلْ إِلَى الْهَيْجَا إِذَا	أَبْطَالَهَا كَرَّهُوا التَّزُولَا
وَإِذَا دُعِيَتْ إِلَى الْمُهْ-	مَ فَكُنْ لِفَادِحِهِ حَمُولَا ^(٢)

٤ - أغراض شعرية أخرى: لقد تركز اهتمام الشعراء الحكام على الأغراض الشعرية

التي سبق الحديث عنها وهي: شعر الحروب، وشعر المفاخرات والمنافرات والمناظرات، وشعر الحكمة والوصايا. إلا أن هذا لا يعني عدم التفاتهم إلى الأغراض الأخرى التي عني بها الشعراء الجاهليون كالمدح والثناء والغزل وغيرها مما كان سائداً في ذلك العصر؛ فالناظر في شعر حكام العرب قد يصادف بعض القصائد التي تصنف في باب المديح أو الرثاء أو غير ذلك، لكن هذه الأغراض قليلة الشيوع في شعر الحكام ولا تشكل غرضاً مستقلاً كالأغراض الأخرى، غير أن هذا لا يمنع الحديث عنها، ولا يسوغ إهمالها أو غض الطرف عنها.

ففي مجال شعر المديح نجد بعض القصائد التي نظمها الحكام في مدح بعض الأشخاص كما كان معروفاً آنذاك، ومن ذلك قصيدة أبي طالب بن عبد المطلب في مدح النبي (ﷺ)، وهي قصيدة طويلة عدّها ابن سلام أبرع ما قال أبو طالب من الشعر ووصفها بأنها

(١) ديوان ذي الإصبع العدواني، ص ٧٢-٧٤. والأصفهاني، الأغاني ٣/٩٥-٩٧. ولويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٦٣٢-٦٣٣. والألوسي، بلوغ الأرب ٣/١٧٠.

(٢) أ أسيد: في الديوان والأغاني بالفتح، وفي شعراء النصرانية بالضم. شحط المزار: بعد. الرحل: مسكن الإنسان وما يستصعبه من الأثاث. يزول: يرتحل أو يغادر. المهم: صفة لكل أمر عظيم جليل.

"صحيفة جيدة"^(١). وقال ابن كثير: إنها "قصيدة عظيمة بليغة جدا، لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع وأبلغ في تأدية المعنى منها"^(٢). وقد بدأ أبو طالب قصيدته بالتعوذ بحرم مكة، وذكر فيها عزمه على مواصلة الدفاع عن النبي (ﷺ)، وتأكيد عهده على نصرته والقتال دونه بكل ما يملك هو وأهل بيته، ثم يعاتب رجالا من قريش على معاداتهم لبني هاشم ووقوفهم في وجه الدعوة الإسلامية، ويفخر ببني هاشم الكرام الأبطال السادة البهاليل، يقول أبو طالب^(٣):

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْغُرَا وَالْوَسَائِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَاءٍ سَمْحَةٍ وَأَبْيَضُ غَضَبٍ مِنْ ثَرَاثِ الْمَقَاوِلِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مَلِجٍ بِبَاطِلِ
فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مَعَاذٍ لِعَائِذٍ وَهَلْ مِنْ مُعِذٍ يَتَّقِي اللَّهَ عَائِلِ
كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ نُبْرَى مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَتَنَاضِلِ
وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلُ عَنْ أَبْنَانِنَا وَالْحَلَائِلِ
وَإِنَّا لَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ جَدَّ مَا أَرَى لَتَلْتَبَسَنَّ أَسْيَافُنَا بِالْأَمَائِلِ^(٤)

ثم يمتدح أبو طالب ابن أخيه محمداً (ﷺ) فهو الذي يستسقى به عند انحباس المطر في سني القحط والشدة، وهو ملجأ الأيتام والأرامل والمساكين وذوي الحاجات، الذي يحذب على الصغير والكبير والمسن والضعيف. ويصرح أبو طالب في قصيدته بمحبته لابن أخيه، ويعدد بعض صفاته الحميدة، وخصاله الكريمة وأنه من أجل تلك الصفات والمزايا قد أحبه ذلك الحب العظيم حتى عدّه واحداً من أبنائِهِ لأنه يتحلّى بمزايا أهل الفضل والحكمة والعقل والحلم والعدل، ولذلك فهو صادق أمين مؤيّد بنصر الله. ويصرح أبو طالب برغبته في اتباع دعوة النبي (ﷺ)، لأنه يعلم يقيناً بصدق ابن أخيه، لكنه يخشى من أن يعير بسبب ذلك، ورغم هذا فإنه يبقى على موقفه من الدفاع عن النبي (ﷺ) ومن الحذب عليه ورعايته، وبذل كل ما يستطيع من أجله^(٥):

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ تِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

(١) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٢٤٥/١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٤٠٥/٢.

(٣) ديوان أبي طالب بن عبد المطلب، صنعة أبي هفان البصري، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط ١، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م، ص. ٧٠-٨٥.

(٤) المقاول: الملوك. نُبْرِى: نُسَلِّب ونُغَلِّب عليه. نناضل: نرامي بالسهم. الحلائل: الزوجات.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحات.

وَإِخْوَتِهِ دَابَّ الْمَحِبِّ الْمَوَاضِلُ
إِذَا قَاسَهُ الْحَكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
يُؤَالِي إِلَهًا لَيْسَ عَنْهُ بَغَائِلُ
تُجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازِلِ
لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذَّرَا وَالْكَلَاكِلِ^(١)

لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلِ
حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرُ طَائِشِ
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ
لَكُنَّا أَتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنْ ابْتَنَّا لَا مُكَدَّبَ
حَدِثْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتُهُ

ومن الشعراء الحكام الذين روي لهم شعر في المديح أمية أبي الصلت، فقد كان نديماً لعبد الله بن جدعان^(٢)، أحد زعماء مكة وسادتها، فمدحه في أكثر من قصيدة، منها قصيدته التي قالها حين دخل عليه يوماً وقد ثقلت ديونه، فضمن له عبد الله قضاء تلك الديون دون السؤال عن مبلغها، فقال أمية في ذلك^(٣):

حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحِيَاءُ
لَكَ الْحَسَبُ الْمُهْدَبُ وَالسَّنَاءُ
عَنِ الْخُلُقِ السَّنِيَّ وَلَا مَسَاءُ
بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ التَّنَاءُ
إِذَا مَا الْكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشَّتَاءُ
بِأَنَّ الْقَوْمَ لَيْسَ لَهُمْ جَزَاءُ
كَمَا بَرَزْتَ لِنَظَرِهَا السَّمَاءُ
وَهَلْ بِالشَّمْسِ طَالَعَةً خَفَاءُ
دَمًا وَهُمْ مِنْ الْكَلَمِ الشَّفَاءُ^(٤)

أَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَاتِي
وَعِلْمُكَ بِالْأُمُورِ وَأَنْتَ قَرْمٌ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ
فَارْضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ بَنَاهَا
إِذَا أَتَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا
ثُبَارِي الرِّيحِ مَكْرَمَةٌ وَمَجْدًا
إِذَا خَلَقْتَ عَبْدَ اللَّهِ فَاعْلَمْ
فَابْرَزَ فَضْلَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ
فَهَلْ تَخْفَى السَّمَاءُ عَلَى بَصِيرِ
بُنَاءِ مَكَارِمٍ وَأَسَاءِ كَلَمِ

ويتضح في القصيدة تركيز الشاعر وإلحاحه على خصلة الكرم لدى الممدوح؛ فهو كريم دائماً لا يثنيه شيء عن البذل والعطاء، وهو سخي يهب المال بكثرة وخصوصاً في أوقات الشدة

(١) ثمال اليتامى: الذي يثملهم ويقوم بهم، يقال: هو ثمال مال: أي يقوم به. سبّة: عار. السورة (بضم السين): المنزلّة. حدبت: عطفت ومنعت. الذرا: جمع ذروة وهي أعلى ظهر البعير. الكلاكل: جمع كلكل وهو عظم الصدر.

(٢) عبد الله بن جدعان: أحد حكام العرب، انظر ص ٤٧ من هذا البحث.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ١٩.

(٤) القرم: السيد المهذب. الخلق السني: الرفيع. أجحره: أدخله الحجر. الكلم: الجرح.

و الضيق التي تلم بالناس. وهذه المعاني كلها قد جاءت بقصد من الشاعر لتوظيفها في خدمة الهدف الذي ينشده وهو أن يحظى بعتاء هذا الممدوح.

ومن الأغراض الأخرى التي طرقها الشعراء الحكام في شعرهم الرثاء، ويبرز في هذا المجال متمم بن نويرة اليربوعي الذي تعد قصائده في رثاء أخيه مالك من عيون المراثي في الشعر العربي، وخاصة قصيدته العينية؛ فقد جاء أن عمر بن الخطاب سأل الحطيئة: هل رأيت أو سمعت بأبكي من هذا؟ فقال: لا والله ما بكى بكاءه عربي ولا يبكيه^(١). وهي قصيدة طويلة جاءت روايتها في المفضليات في واحد وخمسين بيتاً، بدأها الشاعر بإظهار الجلد والصبر على فقد أخيه، ثم انتقل للحديث عن فضائل أخيه وصفاته ومآثره كالكرم والجود والشجاعة وقهر الأعداء، وبعد ذلك راح يصور هول الفاجعة التي أصابته بمقتل أخيه بعدما فرق الموت بينهما، ويظل ينتقل في حديثه عن أخيه فيدعو لقبره بالسقيا تارة، ويحاور زوجته مبينا لها أسباب حزنه تارة أخرى، ويطلب منها أن لا تلومه فتكأ جراحه وتوجهه، ثم يصور حزنه ويقارنه بحزن النوق اللاتي فقدن حوارهن، لكن حزنه ولوعته أشد من حزنهن، وفي ختام قصيدته يخاطب من فرح لمقتل مالك وشمته بموته، ويذكره بتقلب الدهر وتداول الأيام. يقول متمم^(٢):

ولا جَزَعٌ مِمَّا أَصَابَ فَاوْجَعَا	لَعَمْرِي، وَمَا دَهْرِي بِتَابِينَ هَالِكِ
فَتَى غَيْرِ مِيطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا	لَقَدْ كَفَنَ الْمِثْهَالَ تَحْتَ رَدَائِهِ
إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ أَمْرِي السَّوْءَ مَطْمَعَا	ثَرَاهَ كَصَدْرِ السَّيْفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى
وَلَا طَائِشًا عِنْدَ اللَّقَاءِ مُدْقَعَا	وَمَا كَانَ وَقَافًا إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ
إِذَا أَثَرَتِ الرِّيحُ الْكَنِيفَ الْمُرْقَعَا	فَغَيْثِي هَلَّا تَبْكِيَانِ لِمَالِكِ
أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا	أَبَى الصَّبْرَ آيَاتٍ أَرَاهَا وَأَنْتِي
وَكُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا	وَأَنِي مَتَى مَا دُعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ
أَصَابَ الْمَنَايَا رَهْطُ كَسْرِي وَتُبْعَا	وَعَشْنَا بِخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ وَقَبْلَنَا
لِطَوَّلِ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا	فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَّصِدَعَا	وَكُنَّا كُنْدَمَانِي جُدَيْمَةَ حِقْبَةَ

(١) الفضل الضبي، الفضليات، ص ٢٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٥-٢٧٠. والقرشي، جمهرة أشعار العرب، ص ٣٤١-٣٤٦. وابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/٣-٢٠٨. وابن ميمون، منتهى الطلب ٦/٣٨٠-٣٨٩. والبصري، الحماسة البصرية ٦٣٠/٢٦٦/٢.

سقى الله أرضاً حلّها قبرُ مالكِ
فوالله ما أسقى البلادَ لحبّها
فلو أنّ ما ألقى يصيبُ متّالِعاً
فلا يَهْتِي الواشينَ مَقْتلُ مالكِ

ذهاب الغواذي المُدْجَناتِ فأمراً
ولكنني أسقى الحبيبَ المؤدّعاً
أو الرُكنَ من سَلَمي إذا لتَضَعُضعا
فقد أبَ شانيه إياباً فودّعاً^(١)

ومن الحكام الذين روي لهم شعر في الرثاء غيلان بن سلمة؛ فقد خرج ولده عامر بن غيلان مع خالد بن الوليد، فمات بعمواس^(٢)، وكان فارس ثقيف وبطلها، فرثاه أبوه بقصيدة باكية ذكر فيها بطولة ابنه وشجاعته وإقدامه عند اشتداد هول المعارك، ويتمنى لو أنه كان يستطيع حمايته من الموت ولكن هيهات، فالموت مصير كل حي، وهذه بعض أبيات القصيدة^(٣):

عَيَّنِي جُودُ بَدَمْعِهَا الْهَتَّانِ
يا غامَ مَنْ لِلْخَيْلِ لَمَّا أَحْجَمَتْ
لو اسْتَطِيعَ جَعَلْتُ مَنِّي عَامِراً
يا عَيْنُ بَكَيِّ ذَا الْحِزَامَةِ عَامِراً
وَلَهُ بِتَثْلِيثَاتِ شَدَّةٍ مُعْلَمِ
فَكَأَنَّهُ صَافِي الْحَدِيدَةِ مِخْدَمِ

سَحّاً وَتَبَكِّيَ فَارِسُ الْفَرَسَانِ
عن شَدَّةٍ مَرْهُوبَةٍ وَطِعَانِ
بَيْنَ الضَّلُوعِ وَكُلِّ حَيٍّ فَاِنْ
لِلْخَيْلِ يَوْمَ تَوَاقَفِ وَطِعَانِ
مِنْهُ وَطْعَةُ جَابِرِ بْنِ سِنَانِ
مِمَّا يُحِيرُ الْفَرَسَ لِلْبَادَانِ^(٤)

وإذا تجاوزنا الأغراض الشعرية التي سبق الحديث عنها، فإننا نجد لبعض حكام العرب قصائد قيلت في مناسبات معينة، ومن ذلك قصيدة لأمية بن أبي الصلت يخاطب ابنه له

(١) ما دهري: أي همي وإرادتي وعادتي. التأبين: مدح الميت. المنهال: اسم الرجل الذي كفن مالكا في ثوبيه. غير ميطان العشبات: لا يعجل بالعشاء، ينتظر الضيوف. الأروع: الذي يروعك بجماله وحسنه. أذرت: ألقت. الكنيف: حظيرة من شجر تجعل للابل نقيها البرد. الندمان: جميع نديم، وقصد بهما نديمي جذيمة الأبرش حين ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي، فحكهما فاختارا منادمتهم، فكانا نديميه دهرا، ثم قتلها. يتصدعا: يفترقا. الذهاب: جمع ذهب، وهي المطرة الغزيرة. الغواذي: التي تغدو بالمطر. أمرع: أتى بالخصب. أسقى: ادعو بالسقيا. متالع وسلمي: جيلان. الشاني: المبعض.

(٢) عمواس: بلدة على بعد ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ثم فشا في أرض الشام فمات فيه خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم، وذلك في سنة ١٨ للهجرة، ومات فيه من المشهورين أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، وقيل: مات فيه خمسة وعشرون ألفا من المسلمين (معجم البلدان ٣/ ٣٥٤).

(٣) الأصفهاني، الأغاني ١٣/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٤) الهستان: المنصب. سحا: أي سال من فوق. عام: ترخيم عامر. تثليث: موضع بالحجاز قرب مكة. ويوم تثليث: من أيام العرب بين بني سليم ومراد. المعلم: الفارس الذي جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب. المخدّم: القاطع. يحير: يرد ويرجع. بادان: ملك اليمن.

ويعاتبه على ما بدر منه تجاه أبيه من عقوق وسوء عشرة، بعدما كان قد رباه صغيراً وحذب عليه ورعاه حتى كبر، ويذكره بما كان يلاقيه من سهر وخوف حين يصاب ابنه بمرض، فيمضي ليله ساهراً باكياً يخاف عليه الموت رغم يقينه بأنه لا بد أن يقع؛ ثم يمضي في عتابه ويؤنبه على ما بدر منه تجاهه مبيناً له فساد رأيه وسوء تدبيره، ومحاولاً أن يردّه إلى جادة الحق والصواب. وهي قصيدة يجدر بكل الأبناء قراءتها وتدبرها لما فيها من معان وصور مؤثرة، ولما تحمله من عاطفة أبوية ينكرها العاقون من الأبناء في كل زمان يقول أمية^(١):

غذوّتك مولوداً وغلّتك يافعاً	تعلّ بما أحّبي عليك وتنهّل
إذا ليلة نابّتك بالشكّو لم أبت	لشكّواك إلا ساهراً أتملّل
كأنّي أنا المطرُوقُ دُونك بالذي	طرقنت به دُوني فعينّي تهملّ
تخاف الرّدّى نفسيّ عليك وإنّها	لتعلم أن الموت حثمٌ مؤجّل
فلما بلغت السنّ والغاية التي	إليها مدى ما كنت فيك أوّمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة	كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حقّ أبوّتي	فعلت كما الجار المجاور يفعل
زعمت بأنّي قد كبرت وعيّنّي	ولم يمض لي في السنّ سنون كملّ
وسمّيتني باسم المفند رأيه	وفي رأيك الثقيّد لو كنت تعقل
ثراقب منّي عشرة لو تنالها	هبلت وهذا منك رأي مضلل
وما صولة الحقّ الضئيل وخطره	إذا خطرت يوماً قساور بزلّ
تراه مُعدّاً للخلاف كأنه	بردّاً على أهل الصّواب مؤكّل
ولكن من لا يلق أمراً يتوبه	بعدّته ينزل به وهو أغزل ^(٢)

وربما كان عبد المطلب بن هاشم من أكثر الشعراء الذين نظموا الشعر في المناسبات والأحداث المختلفة، فإن الناظر في كتب التاريخ والسيرة يجد لعبد المطلب كثيراً من القصائد والمقطوعات والأراجيز التي قالها في مناسبات شهدها أو مرت عليه وعلى قومه، كغزو الحبشة مكة ومحاولة أبرهة هدم الكعبة، أو مولد النبي (ﷺ) أو غير ذلك من أحداث. ومن هذه

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص. ٥٧-٥٩.

(٢) اليافع: الشاب. تعلّ: تسقى، والعلل الشربة الثانية والنهل الأولى. تهمل: تفيض بالدمع. المفند: الخرف. الحق: من أولاد الإبل إذا بلغ أن يركب ويحمل عليه. القساور: الأسود، ومن الإبل: الشديدة القوية. البازل: الجمل أو الناقة في تاسع سنه.

الأحداث ما رواه الطبري "أن نوفل بن عبد مناف [عم عبد المطلب*] ظلم عبد المطلب بن هاشم على أركاح له - وهي الساحات - ، وكانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من الخزرج، فتتصّف عبد المطلب عمه فلم ينصفه، فكتب إلى أخواله [قصيدة]، فقدم عليه منهم ثمانون راكبا، فأنأخوا بفناء الكعبة، فلما رآهم نوفل بن عبد مناف قال لهم: أنعموا صباحا، فقالوا له: لا نعم صباحك أيها الرجل، أنصف ابن أختنا من ظلامته. قال: أفعل بالحب لكم والكرامة، فردّ عليه الأركاح وأنصفه، فانصرفوا عنه إلى بلادهم"^(١).

أما (الرسالة) التي أرسلها عبد المطلب إلى أخواله فكانت قصيدة استغاثة وطلب نجدة، وفيها يصف ما أصابه من حزن وغم بسبب ظلم عمه واغتصابه حقه، ويذكر كيف كان حاله في كنفهم عزيزا لا يخشى ظلم أحد، وكيف انقلب حاله بعدما ارتحل مع عمه المطلب إلى مكة، فبقي في حمايته ورعايته إلى أن وافاه الأجل، مما شجع عمه الآخر للاعتداء عليه عندما راه بلا ناصر ولا حليف دون مراعاة لحرمة القرابة والدم. ويختم قصيدته باستثارة همم أخواله واستنفارهم لرد الضيم عن ابن أختهم وعدم خذلانه، يقول عبد المطلب^(٢):

يا طول ليلى لأخزاني وأشغالي	هل من رسول إلى النّجار أخوالي
يتبى عدياً وديناراً ومازنها	ومالكا عصمة الجيران عن حالي
قد كنت فيكم ولا أخشى ظلامة ذي	ظلم، عزيزا منيعا ناعم البال
حتى ارتحلت إلى قومي وأزعجني	عن ذاك مطلب عمي بترحال
وكنت ما كان حيا ناعما جذلا	أمشي العرضة سحبا لأديالي
فغاب مطلب في قعر مظلمة	وقام نوفل كي يغدو على مالي
أ أن رأى رجلا غابت عموته	وغاب أخواله عنه بلا وال
أنحى عليه ولم يحفظ له رحما	ما أمتع المرء بين العم والخال
فاستنفروا وامتغوا ضيم ابن أختكم	لا تخذلوه وما أنتم بخذل
ما مثلكم في بني قحطان قاطبة	حي لجار وإنعام وإفضال
أنتم ليان لمن لانت عريكة	سليم لكم وسمام الأبلخ الغالي ^(٣)

* [] وما بينهما زيادة من الباحث.

(١) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٣/١.

(٢) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٣) العرضة: مشية فيها نشاط ومرح. أنحى تعمد وقصد. الأبلخ: العظيم في نفسه، الجريء على ما أتى من الفجور (لسان العرب ٤٧٩/١ بلخ).

ثانياً: موضوعات النثر

يدرك الباحث في مجال الأدب العربي عموماً، والجاهلي خصوصاً، صعوبة ولوج هذه اللغة، وخوض غمارها؛ وذلك حين يكون بحثه معنياً بالحديث عن جانب النثر من ذلك الأدب، ولذلك أسباب فطن إليها المتقدمون والمحدثون ممن عني بالحديث عن الأدب العربي في عصوره المختلفة. ولعل أول ما يلفت انتباه الباحث في هذا المجال ذلك الإهمال الذي لقيه النثر الجاهلي قديماً وحديثاً إذا ما قيس الأمر بالشعر وما لقيه من اهتمام المهتمين حتى خيل لبعضنا أن المقصود بقولنا (الأدب الجاهلي) هو الشعر فقط، ظناً بأن الأدب الجاهلي يقتصر على هذا الفن فقط، حتى ذهب بعض مؤرخي الأدب إلى أن ما يعد أدباً على وجه العموم هو "ثمار الشعر بأوسع معانيه فحسب"^(١) وأن مؤرخ الأدب يضطر إلى "الاقتصار على الشعر"^(٢).

وفضلاً عن الإهمال الذي لقيه النثر الجاهلي، وعدم الاهتمام به جمعاً وحفظاً ونقداً ودراسة، فإن المرء يلحظ قلة الآثار النثرية التي تعود إلى تلك الفترة، مما يعطي انطباعاً بضياغ تلك الآثار وعدم وصولها إلى المهتمين والباحثين عبر القرون والسنوات الماضية، وهذا أمر أعاده المعنيون إلى جملة أسباب، منها تركيز اهتمام العرب على الشعر لما له من مكانة رفيعة عندهم، فحفظوه واهتموا به دون غيره من الفنون الأدبية، لأنه كان "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون"^(٣) وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه"^(٤).

ولا شك في أن ما يمتاز به الشعر من إيقاع موسيقي يسهل على الذاكرة حفظه وخرنه وهو ما لا يتوافر في النثر الذي يتعذر على الذاكرة الإلمام بأجزائه لسرعة تبدده وقلة قيوده، وخلوه من الإيقاع الذي يسهل مثل هذا الحفظ، أضف إلى ذلك افتقار العرب في ذلك الوقت إلى الكتابة والتدوين؛ فوجدوا الشعر أسهل الوسائل لتخليد مآثرهم وأيامهم وأخبارهم وحكمهم، فاعتمدوه وسيلة بديل الكتابة والكتب لتسجيل وقائع حياتهم الحافلة، فكان الأمر كما ذكر

(١) ينظر مثلاً: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٣/١.

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٢٤/١.

(٤) المصدر السابق نفس الصفحة.

المرزوقي من أن الله تعالى أقام الشعر للعرب "مقام الكتب لغيرها من الأمم"^(١). ورغم ما للشعر من فضائل تعينه على البقاء والانتشار بين الناس، وما له من سلطان على نفوس العرب حتى عدّوه ديوانهم الذي يحفظ مآثرهم وأيامهم ومفاخرهم، رغم كل ذلك فإن هذا لم يمنع من ضياع أكثر هذا الشعر، واندثاره مع مرور الزمن، ويؤكد هذا الضياع أبو عمرو بن العلاء حين يقول^(٢): " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير". فإذا كان الأمر كذلك مع الشعر الذي توافرت له أسباب الاهتمام والرعاية والحفظ، فكيف سيكون حال النثر الذي لم يحظ بشيء مما حظي به الشعر؟ إن خير وسيلة لحفظ الآثار النثرية تدوينها، وإلا ضاعت واندثرت، وهذا ما فعله المسلمون من الصحابة بعد وفاة الرسول (ﷺ) حين عمدوا إلى جمع القرآن الكريم وتدوينه خوفاً عليه من الضياع بعد استشهاد عدد كبير من حفظته في حروب الردة. غير أن التدوين لم يكن متاحاً في عصور الجاهلية، ولذلك فقد ضاع أكثر الآثار النثرية، ولم يصل إلينا من تلك الثروة إلا أقل القليل، ولعل الفضل في حفظ هذا القليل يعود إلى أن معظمه قد تم تدوينه في بلاط الملوك، أو أن الرواية الواعية المتمثلة بأولئك النفر من الرواة الثقات قد قامت بحمل هذه الآثار عبر السنوات الطويلة إلى أن تم تدوينها لاحقاً.

لقد كان حكام العرب جزءاً من المجتمع العربي الجاهلي، وكان أدبهم جزءاً من أدب تلك المرحلة، فكان لابد من تعرضه لما تعرض له الأدب الجاهلي عموماً من ضياع، وخصوصاً في الجانب المتعلق بالنثر منه، ولذلك فإن الباحث في هذا المجال سوف يكتشف قلة الآثار النثرية في أدب حكام العرب، وخاصة ما يتعلق بالرسائل والمنافرات والخطب أما ما يتصل بالحكمة والوصايا والأمثال فإن حظها أوفر من سابقاتها إذ نجد أمثلة ونماذج متعددة لهذه الفنون النثرية تعيننا على تسليط الضوء عليها. ولا شك في أن ما تمتاز به الأمثال والحكم من إيجاز في العبارة ووضوح في المعنى قد ساهم في انتشارها وسيرورتها على ألسن الناس وحفظها من الضياع والنسيان، فكانت هذه الأنواع النثرية أكثر الآثار موثوقية وأغزرها حضوراً في كتب الأدب.

(١) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة ٣/١.

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٢٥/١.

عني حكام العرب بما كان سائداً في عصرهم من فنون أدبية نثرية، فجاء إنتاجهم النثري متنوعاً شمل الخطب والحكم والأمثال والوصايا، وقد تنوعت هذه الموضوعات بتنوع مناسباتها وأشخاصها وظروفها، وسوف نعرض بالدراسة الموضوعية لهذه الأغراض النثرية من أجل تحديدها وتبين ملامحها العامة، وذلك من خلال بعض النصوص التي لها علاقة بهذا الأمر.

١ - الخطب: اهتم العرب بالخطابة لاتصالها الوثيق بكل ناحية من نواحي حياتهم، فكانت ديوانهم الثاني إلى جانب الشعر، وكان ساداتهم يرأسون وفودهم إلى الملوك والأمراء، كما كانوا ينوبون عنهم في خطب المناسبات كالمصاهرة والاستسقاء، ويقومون بوعظهم وإرشادهم في مختلف أمور دنياهم ودينهم. وقد تمتع الخطباء بمكانة اجتماعية مرموقة بين أفراد المجتمع الجاهلي إلى الحد الذي جعل أبا عمرو بن العلاء يرفع منزلة الخطيب فوق منزلة الشاعر حيث يقول^(١): "كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفتح شأنهم... فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوق، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر". فقد كان الخطيب يعبر عن رأي قومه في الصلح أو الحز على القتال أو السفارة، وكانت حاجة السيد إلى الخطب شديدة في كل عارض يعرض لقبيلته في حياتها الغنية بعلاقاتها الداخلية أو الخارجية مع غيرها من القبائل. ولما كانت القدرة الخطابية أو الفصاحة وقوة البيان شرطاً من الشروط الأساسية اللازمة لتولي زمام السيادة في القبيلة، فقد اكتسبت مقاما رفيعا تبعا لمقام صاحبها^(٢). ولما كان حكام العرب من السادة والزعماء؛ فقد كانوا كذلك خطباء امتازوا بالفصاحة والبيان، فاشتهر من بينهم عدد من الخطباء البلغاء الذين عدوا من أعلام الخطابة العربية كقس بن ساعدة الإيادي، وأكثم بن صيفي، والحارث بن عباد، وهاشم بن عبد مناف، وذو الإصبع العدواني، وأبي سيارة العدواني، وضمرة بن ضمرة، وعبد المطلب بن هاشم، وعامر بن الظرب، وحاجب بن زرارة، وغيرهم.

وقد تعددت أغراض خطب حكام العرب حتى شملت جميع مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية، كخطب التهاني والتعازي والزواج والصلح والحرب والوعظ والمنافرات؛

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٢٤١. وانظر ابن رشيق، العمدة ١/٨٢-٨٣.

(٢) محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٩.

فمن خطب التهاني خطبة عبد المطلب بن هاشم بين يدي سيف بن ذي يزن يهنئه باسترداد ملكه بعدما ظفر بالحبشة، فأنته وفود العرب وأشرافها لتهنئته وتمدحه، فاتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم، فاستأذن عبد المطلب في الكلام، فلما أذن له قال^(١): "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى - أَيُّهَا الْمَلِكُ - أَحَلَّكَ مَحَلًّا رَفِيعًا، صَعَبًا مَنِيْعًا، بَادِخًا شَامِخًا، وَأَثْبَتَكَ مَثْبُتًا طَابِتًا أَرْوَمْتَهُ، وَعَزَّزْتَ جُرْثُومَتَهُ، وَنَبَّلَ أَصْلَهُ، وَبَسَقَ فَرْعَهُ، فِي أَكْرَمَ مَعْدِنٍ، وَأَطْيَبِ مَوْطِنٍ، فَأَنْتَ - أَيْتَ اللَّعْنِ - رَأْسُ الْعَرَبِ، وَرَبِيعُهَا الَّذِي بِهِ تُخْصَبُ، وَمَلَكُهَا الَّذِي بِهِ تَتَّقَادُ، وَعُمُودُهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقَلُهَا الَّذِي إِلَيْهِ يَلْجَأُ الْعِبَادُ، سَلَفُكَ خَيْرُ سَلَفٍ، وَأَنْتَ لَنَا مَنْ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ خَلْفٍ، فَلَنْ يَهْلِكَ مَنْ أَنْتَ خَلْفُهُ، وَلَنْ يَحْمَلَ مَنْ أَنْتَ سَلْفُهُ. نَحْنُ - أَيُّهَا الْمَلِكُ - أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ وَذِمَّتِهِ وَسَدَنَةِ بَيْتِهِ، أَشْخَصْنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَبْهَجَكَ بِكَشْفِ الْكَرْبِ الَّذِي فَدَحْنَا، فَحْنُ وَقَدْ التَّهْنَةُ لَا وَقَدْ الْمَرْزُوءَةُ"^(٢).

ويتضح في هذه الخطبة مدى القدرة التي يتمتع بها عبد المطلب وتفريعه للمعاني، وإدراكه الواعي لأصول مخاطبة الملوك، فعمد إلى مدح الملك وإعلاء شأنه، فهو من أصل كريم طيب، وهو ملك العرب جميعا، يقودهم ويعتمدون عليه ويلجؤون إليه، ثم قدم نفسه وقومه إلى الملك بعبارة أحسن صوغها واختيارها (نحن أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته)، وبعد ذلك بين سبب زيارته هو ومن معه من وجهاء قريش وهو أنهم قدموا لتهنئة الملك على ما تحقق له من ظفر وانتصار.

ومن خطب التعزية خطبة أكثم بن صيفي معزيا عمرو بن هند بوفاة أخيه، وهي خطبة مليئة بالحكم والمواعظ الداعية للتفكير والتدبر في أمور الدنيا وأحوالها، فجميع الأحياء صائرون إلى الهلاك والفناء، ومرتلون عن هذه الدار إلى سواها؛ فالموت حق لا بد أن يقع، وفراق الأهل والأحبة لا مفر منه، فلا بد من الصبر والرضا بحكم الخالق المقتدر، يقول أكثم^(٣): "أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الدَّارِ سَفَرٌ لَا يَحْلُونَ عَقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا فِي غَيْرِهَا، وَقَدْ أَتَاكَ مَا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عَنْكَ، وَارْتَحَلَ عَنْكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ سَيَظَعُنْ عَنْكَ وَيَدْعُكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَيَّامٌ: فَامْسُ: عِظَةٌ وَشَاهِدٌ عَدْلٌ، فَجَعَكَ بِنَفْسِهِ، وَأَبْقَى لَكَ وَعَلَيْكَ

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٦٠-٢٦٢. والمسعودي، مروج الذهب ٩١/٢-٩٢. والأصفهاني، الأغاني ٣١٦-٣١٧/١٧. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٧٦/١-٧٧. مع اختلاف يسير في الروايات.

(٢) الجرثومة: الأصل والحسب. بسق: ارتفع وعلا.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٤٦/٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٧/١-٣٨.

حَكَمَتَهُ، واليوم: غَنِيمةٌ وصَديق، أَتَاكَ ولم تَأْتِهِ، طَالَتْ عَلَيْكَ غَيْبَتُهُ، وَسْتَسْرِعُ عَنْكَ رَحْلَتُهُ. وغد: لا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ، وسيأتِيكَ إن وجدتكَ! فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله^(١).

ومن المناسبات الاجتماعية المهمة في المجتمع العربي عموماً مناسبة الزواج، وقد جرت العادة أن يتوجه طالب الزواج وبصحبه بعض وجهاء قومه إلى بيت المرأة التي يرغب في الزواج منها، فيقوم أحد الوجهاء ويتكلم طالباً موافقة أولياء المرأة على تزويجها من ذلك الرجل؛ ومن هذا القبيل خطبة أبي طالب بن عبد المطلب في زواج الرسول (ﷺ) بالسيدة خديجة (رضي الله عنها)، وهي خطبة بدأها بحمد الله تعالى وعدّد بعض النعم والفضائل التي أسبغها - جل جلاله - على قريش، ثم بين الخصال الحميدة التي يتصف بها النبي (ﷺ)، فهو أفضل فتيان قريش وأكرمهم نسباً وأوفرهم عقلاً وفضلاً، ثم طلب تزويج ابن أخيه (ﷺ) من السيدة خديجة مبيناً رغبة كل منهما في هذا الزواج وموافقتهما عليه، ومعلنًا استعداداه لتقديم الصداق الذي يطلبه أهل الزوجة!.

وتبدو في الخطبة سمات القدرة التي يمتلكها أبو طالب، فقد أحسن سوق المقدمات المفضية إلى نتائج، وبنى على هذه النتائج حكماً خلاصته أن محمداً (ﷺ) خير فتى في قريش، ولذلك فهو جدير بالتزويج، وهذه خطبته^(٢): "الحمد لله الذي جَعَلَنَا مِنْ زَرْعِ إِبْرَاهِيمَ، وَذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ، وَجَعَلَ لَنَا بِلْدًا حَرَامًا، وَبَيْتًا مَحْجُوجًا، وَجَعَلَنَا الْخُكَّامَ عَلَى النَّاسِ. ثُمَّ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ أَخِي مِنْ لَا يُوَاظَنُ بِهِ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا رَجَحَ عَلَيْهِ: بَرًّا وَفَضْلًا، وَكِرَامًا وَعَقْلًا، وَمَجْدًا وَثَبَلًا، وَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قَلٌّ، فَإِنَّمَا الْمَالُ ظِلٌّ زَائِلٌ، وَعَارِيَةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ، وَلَهُ فِي خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ، وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَمَا أَحْبَبْتُمْ مِنَ الصَّدَاقِ فَعَلِيَّ".

وقد مرّ بنا أن العرب كانوا يتتافرون إلى الحكام، ويتحاكمون إليهم في كل ما يقع بينهم من خلاف ونزاع، وفي بعض الحالات، وبعد أن ينظر الحكم في أسباب هذا النزاع وظروفه وحيثياته يرى أن إصدار حكم لصالح أحد الفريقين المتخاصمين لن يحقق العدالة، أو

(١) الطعن: المفارقة.

(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٧٧.

أن هذا الحكم سيؤدي إلى نشوب صراع دموي بين المتنازعين، فيلجأ إلى تهدئة النفوس الثائرة، ويخطب القوم لإخماد نار الحقد والبغضاء المتأججة في صدورهم، ويعلن عدم ترجيح طرف على طرف، فالكل سواء متعادلون لا يفضل الواحد الآخر، ومن أمثلة هذا النوع من الخطب خطبة هاشم بن عبد مناف حين تنافرت إليه قريش وخزاعة، فقام فيهم خطيباً، وذكرهم بما لهم من منزلة كريمة ومكانة عظيمة بين العرب، ورغبهم بالصبر والحلم والجود واصطناع المعروف، وحذرهم من الجهل والطيش واتباع الهوى، وأمرهم بالابتعاد عن دنيء الأخلاق وذميمها لأنها هادمة للمجد، واضعة للشرف، ودعا الكبراء من الفريقين إلى تحمل مسؤولياتهم التي تقتضيها زعامتهم لأقوامهم، وردع السفهاء والجهلة الذين يثيرون النزاعات بين الحين والآخر لأسباب مختلفة، وقال^(١): "أيها الناس، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب ومعدن المجد، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم، يا بني قصي: أنتم كعصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحب، والسيف لا يسان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج أخرجته إلى البغي.

أيها الناس: الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفة، والآيام ذول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، وماخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء، وأكرموا الجليس يغمر ناديتكم، وحاموا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد، وإن تهتة الجاهل أهون من جريرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به"^(٢). فقالت قريش: "رضيناك أبا نضلة" وهي كنيته.

وقد عرف عن بعض حكام العرب ميلهم إلى التفكير في شؤون الكون والمخلوقات وفي وجود الإنسان ومصيره بعد الموت، وفي الممارسات الدينية التي كانت سائدة حينئذ؛ فعمدوا إلى تتبیه الناس ونصحهم ووعظهم، ودعاهم إلى النظر والتدبر، ومن هؤلاء من برع في الخطابة كقس بن ساعدة الذي يعد أشهر خطباء المواعظ، فله أكثر من خطبة أشهرها تلك التي

(١) الألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٢/١-٣٢٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٧٥/١-٧٦.

(٢) أمحكه: أغضبه. الدهر غير: أي ذو غير، يعني تقلبه. النههة: الكف والزجر.

رواها الرسول (ﷺ)، ومن أجل ذلك وضعه الجاحظ على رأس خطباء العرب^(١)، وهي خطبة تحض على إعمال النظر والفهم في أمور الحياة والموت، وأن ما في هذا الكون من مظاهر كخلق الليل والنهار والسماء والبحار والجبال لا بد لها من خالق أوجدها على هذه الهيئة، وأن هناك ديناً أفضل من الدين الذي يدين به الناس في ذلك الوقت، منكرًا عليهم أفعالهم. يقول في خطبته^(٢): "أيها الناس: اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، لَيْلٌ دَاجٍ، وَنَهَارٌ سَاجٍ، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَنَجُومٌ تَزْهَرُ، وَبَحَارٌ تَزْخَرُ، وَجِبَالٌ مُرْسَاةٌ، وَأَرْضٌ مَدْحَاةٌ، وَأَنْهَارٌ مُجْرَاةٌ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا، مَا بَالُ النَّاسِ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ، أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تَرَكُوا فَنَامُوا؟ يَفْسِمُ قَسَمًا لَا إِثْمَ فِيهِ لَئِنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ رِضًى لَيَكُونَنَّ بَعْدَهُ سُخْطٌ. إِنَّ اللَّهَ دِينًا هُوَ أَرْضَى لَهُ، وَأَفْضَلُ مِنْ دِينِكُمْ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ مِنَ الْأَمْرِ مُنْكَرًا، ثُمَّ أَنْشُدْ:

فِي الدَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ	سَنَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا	لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا	يَمْضِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ	وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
أَيَقْنَتُ أَنِّي لَا مَحَا	لَهُ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

وقريب من هذا تلك الخطب التي كان يلقيها الحكام لحض أقوامهم على فعل الخيرات والتحلي بمكارم الأخلاق، كالحلم والصبر والكرم وصلة الأرحام والتسامح، ونبذ كل ما من شأنه الحط من كرامة المرء، والابتعاد عن الرذائل وسوء الخلق، وقد تكون الخطبة من أجل حث القوم على القيام بأمر ما أو النهي عن ارتكاب فعل غير مرغوب، ومن ذلك ما خطب به أكتف بن صيفي قومه حين بلغه ظهور النبي (ﷺ) بمكة ودعوته الناس إلى الإسلام، فبعث إليه ابنه حبيشا فأتاه بخبره، ثم جمع بني تميم وخطب فيهم قائلاً^(٣): "يا بني تميم لا تُحْضِرُونِي سَفِيهَا فَاتَهُ مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ. إِنَّ السَّفِيَةَ يُوهِنُ مَنْ فَوْقَهُ وَيُثَبِّتُ مَنْ دُونَهُ، لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ، كَسِبَتْ سِيئِي وَدَخَلْتُ فِي ذِلَّةٍ، فإِذَا رَأَيْتُمْ مِنِّي حَسَنًا فاقْبَلُوهُ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنِّي غَيْرَ ذَلِكَ

(١) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين ٥٢/١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٨-٣٠٩. وابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٥/٤. والأصفهاني، الأغاني ٢٣٧/١٥. وابن كثير، البداية والنهاية ١٧٨-١٧٩. والبغداد، خزنة الأدب ١٨٩/٩. والالوسي، بلوغ الأرب ٢٤٥/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٨/١. مع اختلافات في الرواية.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٣٣٨-٣٣٩. والميداني، مجمع الأمثال ٤٣٢/٢-٤٣٣. والالوسي، بلوغ الأرب ٢٤٥/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٨/١. مع اختلافات في الرواية.

فَقَوْمُونِي أَسْتَبْقُمْ. إِنَّ ابْنِي شَافَهُ هَذَا الرَّجُلُ مُشَافَهُةً وَأَتَانِي بِخَبْرِهِ وَكِتَابَهُ يَأْمُرُ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَأْخُذُ فِيهِ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَخَلْعِ الْأَوْثَانِ، وَتَرْكِ الْحَلْفِ بِالنَّيِّرَانِ. وَقَدْ حَلَفَ دُوُو الرِّأْيِ مِنْكُمْ أَنَّ الْفَضْلَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَنَّ الرِّأْيَ تَرْكُ مَا يَنْهَى عَنْهُ. إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِمَعُونَةِ (مُحَمَّدٍ) وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ، فَإِنْ يَكُنْ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا فَهُوَ لَكُمْ دُونِ النَّاسِ، وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا كُنْتُمْ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَالسُّتْرِ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ أَسْقَفُ نَجْرَانَ يُحَدِّثُ بِصِفَتِهِ، وَكَانَ سَفِيَانُ بْنُ مُجَاشَعٍ يُحَدِّثُ بِهِ قَبْلَهُ، وَسَمَّى ابْنُهُ مُحَمَّدًا، فَكُونُوا فِي أَمْرِهِ أَوَّلًا وَلَا تَكُونُوا آخِرًا. انْتَوَا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ، إِنَّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ لَوْ لَمْ يَكُنْ دِينًا كَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا، أَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا أَمْرِي أَسْأَلُ لَكُمْ أَشْيَاءَ لَا تَنْزَعُ مِنْكُمْ أَبَدًا وَأَصْبَحْتُمْ أَعَزَّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ، وَأَكْثَرَهُمْ عَدَدًا، وَأَوْسَعَهُمْ دَارًا، فَابْتِئِ ارْأَى أَمْرًا لَا يَجْتَنِبُهُ عَزِيزٌ إِلَّا ذَلًّا، وَلَا يُلْزِمُهُ ذَلِيلٌ إِلَّا عِزًّا، إِنَّ الْأَوَّلَ لَمْ يَدْعُ لِلْآخِرِ شَيْئًا وَهَذَا أَمْرٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ، مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ عَمَرَ الْمَعَالِي وَاقْتَدَى بِهِ النَّالِي، وَالْعَزِيمَةُ حَزْمٌ وَالْاِخْتِلَافُ عَجْزٌ^(١).

وتقع في هذا الباب خطبة عامر بن الظرب التي يدعو فيها قومه إلى التفكير والتدبر، وهي خطبة فيها من الحكم والمواعظ ما يدعو المرء لإعمال فكره حقًا، لأنها تنم عن وعي وتبصر وتجربة، وكان قائلها قد أدرك كثيرًا من الحقائق، ووعى سنة الحياة وحكمة الخالق في هذا الكون حتى كاد يصرح بإيمانه بالبعث والنشور بعدما صرح بإيمانه بحسن تدبير الخالق وتقسيم المعاش بين المخلوقات. أما مناسبة هذه الخطبة - كما ترونها المصادر - فهي أن رجلاً خطب ابنته، فأجابته وزوجه، ثم جمع قومه وخطب فيهم قائلاً^(٢): "يَا مَعْشَرَ عَدُوَانِ: أَخْرَجْتُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ كَرِيمَتَكُمْ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ عَنْكُمْ، وَلَكِنْ مَنْ خَطَّ لَهُ شَيْءٌ جَاءَهُ، رُبَّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حَاصِدٌ سِوَاهُ، وَلَوْ لَا قَسَمُ الْخُطُوطِ عَلَى قَدَرِ الْجُدُودِ، مَا أَدْرَكَ الْآخِرُ مِنَ الْأَوَّلِ شَيْئًا يَعِيشُ بِهِ، وَلَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَ الْحَيَا، أَثْبَتَ الْمَرَعَى، ثُمَّ قَسَمَهُ أَكْلًا لِكُلِّ فَمٍ بِقَلَّةٍ، وَمِنْ الْمَاءِ جَرْعَةً، إِنَّكُمْ تَرَوْنَ وَلَا تَعْلَمُونَ، لَنْ يَرَى مَا أَصِيفُ لَكُمْ إِلَّا كُلُّ ذِي قَلْبٍ وَاعٍ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ رَاعٍ، وَلِكُلِّ رَزْقٍ سَاعٍ، إِمَّا أَكْنِيسُ وَإِمَّا أَحْمَقُ، وَمَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا سَمِعْتُ حِسَّهُ، وَوَجَدْتُ مَسَّهُ، وَمَا

(١) من يسمع يخل: معناه من يسمع أخبار الناس ومعانيهم يقع في نفسه عليهم المكروه (لسان العرب، خيل). أسقف نجران: قس بن ساعدة. سفيان بن مجاشع: رجل من تميم سمع أنه سيخرج نبي من العرب اسمه (محمد) فسمى ابنه محمدًا رجاء أن يكون ذلك النبي.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١/٣٠٨-٣٠٩. وابن عبد ربه، العقد الفريد ٤/١٨٥. والميداني، مجمع الأمثال ١/٣٨٤-٣٨٥. والألوسي، بلوغ الأرب ٢/٢٤٥. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٣٨. مع اختلافات في الرواية.

رَأَيْتُ مُؤْضُوعًا إِلَّا مُصْنُوعًا، وَمَا رَأَيْتُ جَانِيًا إِلَّا دَاعِيًا، وَلَا غَانِمًا إِلَّا خَائِبًا، وَلَا نِعْمَةً إِلَّا وَمَعَهَا بُؤْسٌ، وَلَوْ كَانَ يُمِيتُ النَّاسَ الدَّاءُ لِأَحْيَاهُمْ الدَّوَاءُ، فَهَلْ لَكُمْ فِي الْعِلْمِ الْعَلِيمِ؟ قِيلَ: مَا هُوَ؟ قَدْ قُلْتَ فَاصْبِرْ، وَأَخْبَرْتَ فَصَدَقْتَ، فَقَالَ: أُمُورًا شَتَّى، وَشَيْئًا شَيْئًا، حَتَّى يَرْجِعَ الْمَيِّتُ حَيًّا، وَيَعُودَ لَا شَيْءَ شَيْئًا، وَلِذَلِكَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ رَاجِعِينَ، فَقَالَ: وَيْلُمَهَا نَصِيحَةٌ لَوْ كَانَ مَنْ يَقْبَلُهَا".

ولقد كان من عادة العرب إذا أرادوا الحرب وتجهزوا للقتال، أن يبرز الشعراء والخطباء لتشجيع المقاتلين وتحريضهم وحثهم على الصبر وحسن البلاء في المعركة، ومن تلك الخطب خطبة أكرم بن صيفي حين زحفت مذحج لغزو بني تميم فأتى هؤلاء أكرم بن صيفي فاستشاروه، فأشار عليهم بتوحيد الكلمة ورص الصفوف، والثبات عند مواجهة العدو، ونصحهم بعدم اصطحاب النساء في المعركة، وحذرهم من الفرقة والاختلاف، ومن رهبة الموت وحب الحياة، وقال لهم بعدما اختاروه رئيساً^(١): "لا حاجة لي في الرئاسة، ولكني أشير عليكم... احفظوا وصييتي، لا تحضروا النساء الصفوف، فإن نجاة اللئيم في نفسه ترك الحريم، وأقلوا الخلاف على أمرائكم، ودعوا كثرة الصياح في الحرب فإنه من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، فإن أحمق الحمق الفجور، وأكيس الكيس التقى، كونوا جميعاً في الرأي، فإن الجميع معزز للجميع، وإياكم والخلاف فإنه لا جماعة لمن اختلف، ولا تلبثوا ولا تسرعوا، فإن أكرم الفريقين الركين، ورب عجلة تهب ريثاً، وإذا عزا أخوك فهن، البسوا جلود الثمور، وبرزوا للحرب، وادرعوا الليل واتخذوه جملاً، فإن الليل أخفى للويل، والثبات أفضل من القوة، وأهنا الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمه المال، ولا ترهبوا الموت عند الحرب، فإن الموت من ورائكم، وحب الحياة لدى الحرب زلل".

٢- المناظرات والمناظرات: لقد سبق لنا القول - عند الحديث عن موضوعات الشعر

- أن المناظرة هي المفاخرة والمحاكمة في الحسب، وقد تكون هذه المناظرة أو المفاخرة بين رجلين يفخر كل منهما على الآخر بإظهار ما لديه من مزايا ومآثر جليلة سعياً لانتزاع اعتراف من ذلك الخصم بتفوقه عليه، أو التحاكم إلى شخص يفصل بينهما ويقرر من منهما

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار ١/١٨٦. وابن عبد ربه، العقد الفريد ١/٧٨. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/٥١١-٥١٢. والبغدادي، خزائن الأدب ١/٤١١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٣٥. مع اختلافات في الرواية.

الأحق بالنفورة، ومن أمثلة هذا النوع من المنافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين، ومنافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية. ومن المنافرات ما يقع بين قبيلتين أو أكثر كذلك الذي جرى في مجلس كسرى^(١) بين سادة القبائل وزعمائها. ومثله ما كان يجري في مجلس الملك النعمان من منافرات ومفاخرات بين رجال تلك القبائل.

ورغم أن ما ورد من أخبار تلك المنافرات وتفاصيلها ينتمي في معظمه إلى الشعر، وذلك للأسباب التي ذكرت بشأن أهمية الشعر ومكانته، بالإضافة إلى ضياع أكثر النصوص النثرية قياساً بالشعر؛ فإن بعض تلك النصوص قد وصل عن طريق كتب التاريخ والأدب، وهي تعطينا فكرة عما كان يدور في تلك المجالس من منافرات ومفاخرات.

ومن أمثلة المنافرات التي تقع بين رجلين تلك التي جرت بين عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية، فقد تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة، فأبى أن يفر بينهما، وجعل الحكم في ذلك لنفيل بن عبد العزى (جد عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، فقال نفيل مخاطباً حرب بن أمية^(٢): "يَا أَبَا عَمْرُو، أَتَنَافِرُ رَجُلًا هُوَ أَطْوَلُ مِنْكَ قَامَةً، وَأَعْظَمُ مِنْكَ هَامَةً، وَأَوْسَمُ مِنْكَ وَسَامَةً، وَأَقْلُ مِنْكَ مَلَامَةً، وَأَكْثَرُ مِنْكَ وَلَدًا، وَأَجْزَلُ مِنْكَ صَفْدًا، وَأَطْوَلُ مِنْكَ مِدْوَدًا؟ وَإِنِّي لَأَقُولُ هَذَا وَإِنَّكَ لَبَعِيدُ الْغَضَبِ، رَفِيعُ الصَّوْتِ فِي الْعَرَبِ، جَلْدُ الْمَرِيرَةِ، جَلِيلُ الْعَشِيرَةِ، وَلَكِنَّكَ نَافَرْتِ مَنْفَرًا"^(٣). فقال حرب: إن من انتكاك الزمان أن جعلناك حكماً!

أما منافرات القبائل فإن خير مثال عليها ذلك الوفد الذي أرسله النعمان بن المنذر إلى كسرى ليعرفه فضل العرب ومكانتهم بعدما جرى بينهما كلام في ذلك، فأرسل إليه وفداً ضم ثلاثة من حكام العرب هم: أكتم بن صيفي، فتكلم كلاماً يفيض بالحكمة، حتى تعجب منه كسرى وقال له: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. ثم قام حاجب بن زرارة، وخاطب كسرى وعظم شأنه، وامتدح قومه العرب داعياً الملك إلى تألفهم ومحالفتهم لأنهم خير حليف لمن

(١) ينظر مثلاً: الألوسي، بلوغ الأرب ٢٨١/١ وما بعدها.

(٢) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٥/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٠٠/١-١٠١.

(٣) اللامعة (وتروى ملامة): اللوم بسبب العيوب. الصفد: العطاء. المذود: اللسان، لأنه يذاد به عن العرض، قال حسان بن ثابت: لسانني وصيفي صارمان كلاهما ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودي. المريرة: الحبل الشديد الفتل.

حالفهم، أما عدوهم فلا يلقى غير المرارة والهوان، وقال حاجب^(١): "وَرَى زَنْدَكَ، وَعَلَتْ يَدَكَ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ. إِنَّ الْعَرَبَ أُمَّةٌ قَدْ غَلْظَتْ أَكْبَادُهَا، وَاسْتَحْصَدَتْ مِرْثَهَا، وَمُنِيعَتْ دِرْثَهَا، وَهِيَ لَكَ وَامِقَةٌ مَا تَأَلَّفَتْهَا، مُسْتَرْسِلَةٌ مَا لَا يَنْتَهَا، سَامِعَةٌ مَا سَامَحَتْهَا، وَهِيَ الْعَلَقَمُ مَرَارَةٌ، وَالصَّابُ غَضَاضَةٌ، وَالْعَسَلُ حَلَاوَةٌ، وَالْمَاءُ الزَّلَالُ سَلَاسَةٌ، نَحْنُ وَقُودُهَا إِلَيْكَ وَالسِّنْثُهَا لَدَيْكَ، ذِمَّتُنَا مَحْفُوظَةٌ، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةٌ، وَعَشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ، إِنَّ نُوبَ لَكَ حَامِدِينَ خَيْرًا فَلَكَ بِذَلِكَ عُمُومٌ مَحْمَدَيْنَا، وَإِنْ نُدِمَ لَمْ نُخْصَ بِالْذَّمِّ دُونَهَا"^(٢).

يتضح من الخطبة السابقة مقدرة حاجب بن زرارة على اختيار الألفاظ المناسبة لمثل هذا الموقف، فهو وإن كان يخاطب ملكاً عظيماً ذا جاه وسلطان، فإنه لم يخش مواجهته مواجهة السند للنند، وذلك حين عرض عليه أن يعامل العرب بالود واللين والمسامحة؛ لكي يكسب طاعتهم وولاءهم، أما التكرار لهم وتهجين أمرهم فلن يجر سوى المرارة والخسارة على كل من يجرؤ على الانتقاص من قدرهم.

ثم قام الحارث بن عباد وخاطب الملك داعياً له بدوام الرفعة والسمو ونبه إلى أهمية هذا المجلس لأن ما يدور فيه سوف تتناقله الألسن، ويتداوله الناس جميعاً، ودعا الملك إلى التقرب من العرب لأنهم جيرانه وأعداؤه لا يقعدون عن نصرته إذا استنصرهم، ولا يخشون المواجهة في ساحة النزاع. وعندما أراد كسرى الانتقاص من شأن العرب رد عليه الحارث بأن الضعيف لا عزة له، ثم تحول الأمر إلى فخر شخصي عندما راح الحارث يمتدح نفسه، ويصف إقدامه وشجاعته وخوضه غمار الحروب دون خوف، وكأنه يقول لكسرى: "إنني مثال لكل رجل عربي، فجميع العرب أبطال لا يرهبون لقاء أعدائهم، ولذلك فمن الأجدر مصانعتهم ومحالفتهم ومسالمتهم وعدم معاداتهم وانتقاصهم، مما دفع كسرى إلى سؤال من في مجلسه عن حقيقة الحارث فأجابوه بأن فعالة أنطق من لسانه. فقال كسرى: ما رأيت كاليوم وفداً أحشد، ولا شهوداً أوفد. وهذه خطبة الحارث بن عباد^(٣): "دَامَتْ لَكَ الْمَمْلَكَةُ بِاسْتِكْمَالِ جَزِيلِ حَظِّهَا، وَغُلُوِّ سَنَائِهَا. مَنْ طَالَ رِشَاؤُهُ كَثُرَ مَنَحُهُ، وَمَنْ ذَهَبَ مَالُهُ قَلَّ مَنَحُهُ. تَنَافُلُ الْأَقَاوِيلُ

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٥/٤. والالوسي، بلوغ الأرب ٢/٢٤٥. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٨/١.

(٢) الصاب: عصارة شجر مر.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٥/٤. والالوسي، بلوغ الأرب ٢/٢٤٥. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٨/١.

يُعرفُ اللبَّ، وهذا مقامٌ سيّوَجِفُ بما ينطقُ به الركبُ، وتُعرفُ به كُنْهَ حالنا العَجْمُ والعربُ، ونحن جيرانك الأدنُون، وأغوائك المَعِينُون، خيولنا جَمَّةٌ، وجيوشنا فَحْمَةٌ، إن استتجدتنا فغيرُ رُبُض، وإن استطرقتنا فغيرُ جُهْض، وإن طلبتنا فغيرُ غُمُض، لا ننتني لدُعر، ولا ننتكرُ لدُهر، رماحنا طِوال، وأعمارنا قِصار. قال كسرى: أنفسٌ عزيزةٌ وأمةٌ والله ضعيفةٌ. قال الحارث: أيها الملك، وأنى يكون لضعيفٍ عزّةٌ أو لصغيرٍ مرّةٌ؟! قال كسرى: لو قصرَ عُمرُك، لم تَسْئَلْ على لسانك نفسك. قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مُغرراً بنفسه على الموت، فهي منيةٌ استقبلها، وحياةٌ استدبرها، والعربُ تعلمُ أنّي أبعثُ الحرب قِدْماً، وأحبسُها وهي تُصرَفُ بها، حتى إذا جاشت نارُها، وسُغرت لظاها، وكشفت عن ساقِها، جعلتُ مقادها رُمحي، وبرقها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصرُ عن خوض خضاخضِها، حتى أنغمسَ في غمراتٍ لججها، وأكونُ فلْكا لفرسانِي إلى بحبوحةٍ كبشها، فاستمطرها دماً، وأتركُ حماتها جَزَرَ السَّباع وكلَّ سرٍ قشعُم^(١).

إن الناظر في خطبة الحارث بن عباد يلمس دون عناء، ويدرك من غير جهد طبيعة الشخصية العربية الجاهلية التي عبر عنها الحارث خير تعبير؛ فقد بدأ كلامه بشيء من الحكمة الهادئة المتزنة، وعرض على الملك ما عرضه حاجب قبله من وجوب مخالفة العرب ومهادنتهم ومصانعتهم، وقدم لذلك أسباباً منطقية؛ فهم جيرانه الأدنون الذين يسكنون في جوار مملكته، فمن الأفضل أن تسود بين الطرفين حالة الوئام والاحترام المتبادل. ويبدو أن كسرى أراد - بما يمتلك من حنكة ودهاء - أن يختبر شخصية الحارث - ومن ورائه العرب عموماً - ، فعمد إلى استفزازه، فعند ذلك ظهرت نزعة الإباء الكامنة في نفس الحارث، ورد على الملك رداً جعله يتساءل عن حقيقة محدثه، فيأتيه الرد ممن حضر: إن فعالة أنطق من لسانه!.

٣- الوصايا: حفلت الحضارة العربية بالوصايا لأسباب من أهمها طبيعة الحياة العربية القائمة على التنقل والارتحال، مما يستدعي أن يترك المرحّل للمقيم ما يبلغه بارتحاله، ومن معاني الرحيل الملموسة مفارقة الدنيا بسبب الموت الذي ينتظر كل حي، فالوصايا تكون - في العادة - ثمرة العمر، وخلاصة التجربة في الحياة، يقدمها المرء عند إحساسه بقرب الافتراق

(١) الرشاء: الحبل. المَبَج: إخراج الماء من البئر. يوجف: يسرع في المسير. الربض: الرجل المتقاعد عن النهوض حين يندب، جمعه ربض. استطرقه فحلاً: طلبه منه ليضرب في إبله، والمراد هنا: إذا استغنت بنا لم نخب استعانتك. جهض: جمع جهيض، وهو سقط الناقة. غمض: أي لا ننام عن نصرتك. الخضاخض: المكان الكثير الماء. الكبش: السيد والقائد. جزر: قطع. قشعُم: مسن.

وترك الأهل والجماعة، وتدور معظم الوصايا حول الرضى والقبول بالأمر الواقع، والخضوع لسنن الحياة وإرادة الخالق، وتقديم تجارب العمر لكي يفيد منها الأبناء أو من أراد الموصي تقديم وصيته إليهم. وقد اهتم العرب بهذا (الفن)، فألفوا فيه الكتب والفصول والأبواب، على نحو ما نجد من كتاب (تاريخ العرب الأولية) للأصمعي، وهو كتاب يدور حول وصايا قحطان والملوك من أبناء هود، وهناك كتاب (الوصايا) لدعبل الخزاعي، وكتاب (المعمرون والوصايا) لأبي حاتم السجستاني^(١).

والناظر في تاريخ العرب وأدبهم في العصر الجاهلي يلاحظ كثرة الوصايا بسبب النظام الاجتماعي القائم على وحدة القبيلة التي تحرص على وحدة الدم، وتحفظ بالسيادة والاحترام لذوي الأسنان والتجربة، فإن هؤلاء المجربين سوف يلجؤون إلى توصية أبناء قبيلتهم، أو أحد أبنائهم، وقد لا تكون مناسبة الوصية الموت وحده وإنما قد يوصون عند التأهب لخوض معركة، أو الدخول في حلف، أو الارتحال من مكان لآخر^(٢).

إن من لوازم من يريد تقديم النصيحة والمشورة التقدم في السن الذي يعني طول التجربة وعراقة الخبرة في أمور الحياة، بالإضافة لسلامة التفكير وسداد الرأي، وهي أمور نجدها لدى حكام العرب، فقد كانوا من ذوي التجربة المتراكمة عبر سنوات حياتهم التي تعدت المائة والمائتين لدى بعضهم، مثلما عرف عنهم رجاحة العقل وحسن التصرف في كل ما يعرض لهم ولقومهم من مواقف، ولذا فلا بد من أن تنعكس هذه التجارب الطويلة في وصاياهم لأقوامهم وأبنائهم، وهو ما نجده عند بحثنا في موضوعات النشر في أدبهم؛ إذ نجد عددا من تلك الوصايا، وهي إما أن تكون موجهة إلى القبيلة كلها، وإما إلى أبناء الموصي أو إلى أحدهم وهو الابن الأكبر في غالب الأحيان. فمن الوصايا الموجهة إلى الجماعة وصية عامر بن الظرب العدوانى لقومه حين كبر وخافوا عليه أن يموت^(٣) "فاجتمعوا إليه وقالوا: إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا وسيدا وقائلا بعدك، فقال: يا معشر عدوان: كلّفنموني بغيا، إن كنتم شرفنموني فإني أريكنم ذلك من نفسي، فإني لكم مثلي؟ أفهموا ما أقول لكم،

(١) سهام الفريخ، الوصايا في الأدب العربي القديم، ط ١، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨، ص ٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال ٣٧٤/٢. والألوسي، بلوغ الأرب ٣١٨/١-٣١٩. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٢٣/١-١٢٤.

إنه مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَمْ يَجْتَمِعَا لَهُ، وَكَانَ الْبَاطِلُ أَوْلَى بِهِ، وَإِنَّ الْحَقَّ لَمْ يَزَلْ يَنْفِرُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَمْ يَزَلْ الْبَاطِلُ يَنْفِرُ مِنَ الْحَقِّ.

يا معشر عدوان: لَا تَشْتُمُوا بِالذَّلَّةِ، وَلَا تَفْرَحُوا بِالْعِزَّةِ، فَبِكُلِّ عَيْشٍ يَعِيشُ الْفَقِيرُ مَعَ الْغَنِيِّ، وَمَنْ يَرِ يَوْمًا يَرِ بِهِ، وَأَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَابَهُ، إِنَّ مَعَ السَّفَاهَةِ النَّدَامَةَ، وَالْعُقُوبَةَ نِكَالًا وَفِيهَا ذِمَامَةٌ، وَلِلْيَدِ الْغَلِيَا الْعَاقِبَةُ، وَالْقَوْدُ رَاحَةٌ، لَا لَكَ وَلَا عَلَيَّكَ، وَإِذَا شِئْتَ وَجَدْتَ مِثْلَكَ، إِنَّ عَلَيْكَ كَمَا أَنَّ لَكَ، وَلِلْكَثَرَةِ الرُّعْبُ، وَلِلصَّبْرِ الْغَلْبَةُ، وَمَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَجَدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ قَرِيبًا مِنْهُ"^(١).

من الأمور التي يجدر ملاحظتها في هذه الوصية حرص قبيلة عامر بن الظرب على الاستفادة من خبرته وتجربته الطويلة في الحياة، وتقديرهم واحترامهم لهذا السيد الحكيم، وإدراكهم لعظم الفائدة التي يجنونها من مثله، ولذا فقد جاءت المبادرة بطلب النصيحة والتوجيه منهم. أما الوصية فإنها تتناول جوانب الحياة المختلفة، وتركز على النواحي الإيجابية التي ينبغي أن تسود في العلاقات القائمة بين الناس، وتؤكد على تعزيز القيم السامية، وهي ملاحظات نجدها في معظم الوصايا لأنها من المسائل البديهية التي يعتز بها المجتمع العربي. ومثل هذه المعاني تتكرر بصورة أخرى في وصية أبي طالب بن عبد المطلب عندما أحس بدنو أجله، فجمع وجوه قريش وأوصاهم ووعظهم وذكرهم بما يحظون من شرف ورفعة بين العرب، وطلب إليهم مواصلة الاهتمام ببيت الله الحرام وتعظيمه وإجلاله، وصلة الرحم، وترك الظلم لأن عاقبته الهلاك والدمار، وحثهم على التشبث بكمال الأخلاق كالكرم والصدق والأمانة، ثم توجه إليهم طالبا مؤازرة النبي (ﷺ)، وبين لهم ما يتحلى به من كريم السجايا وعظيم الخصال، ودعاهم إلى اتباعه ونصرته قبل أن يسبقهم الآخرون إلى هذا الشرف وتفوتهم هذه الفرصة، قال أبو طالب^(٢): "يا معشر قريش: أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيّد المطاع، وفيكم المقدام الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المأثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكنم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرباً وعلى حربكم الب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه النبئية (يعني الكعبة) فإن فيها مَرْضَاءَ لِلرَّبِّ وَقَوَاماً لِلْمَعَاشِ، وَثِبَاتاً لِلوَطَاءِ، صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ فِي صَلَةِ الرَّحِمِ مَنَسَاءً فِي الْأَجَلِ، وَزِيَادَةً فِي الْعَدَدِ، اثْرُكُوا الْبَغْيَ وَالْعُقُوقَ

(١) الذمامة: العهد والحرمة. القود: القصاص.

(٢) الألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٧/١-٣٢٨. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٦١/١-١٦٢.

ففيهما هلكَت القُرُونُ قَبْلَكُمْ، أَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ، فَإِنَّ فِيهِمَا شَرَفُ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ، وَعَلَيْكُمْ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ فَإِنَّ فِيهِمَا مَحَبَّةٌ فِي الْخَاصِّ وَمَكْرَمَةٌ فِي الْعَامِّ، وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِمُحَمَّدٍ خَيْرًا، فَإِنَّهُ الْأَمِينُ فِي قُرَيْشٍ، وَالصَّدِيقُ فِي الْعَرَبِ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلِّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَقَدْ جَاءَنَا بِأَمْرٍ قَبْلَهُ الْجَنَانُ، وَأَنْكَرَهُ اللَّسَانُ مَخَافَةَ الشَّتَانِ، وَأَيْمُ اللَّهِ كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى صَعَالِيكَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْأَطْرَافِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ النَّاسِ، قَدْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ، وَعَظَّمُوا أَمْرَهُ؛ فَخَاضَ بِهِمْ عَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَصَارَتْ رُؤُسَاءُ قُرَيْشٍ وَصَنَادِيدُهَا أَتْنَابًا، وَدُورُهَا خَرَابًا، وَضَعُفَاوُهَا أَرْبَابًا، وَإِذَا أَعْظَمْتُهُمْ عَلَيْهِ أَحْجَوْهُمْ إِلَيْهِ، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ أَحْظَاهُمْ عِنْدَهُ، قَدْ مَحَضَّتُهُ الْعَرَبُ وَدَادَهَا، وَأَصْنَفَتْ لَهُ بِلَادَهَا، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: كُونُوا لَهُ وَلَاءَةً، وَلِحِزْبِهِ حُمَاةً. وَاللَّهُ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا سَبِيلَهُ إِلَّا رَشِيدًا، وَلَا يَأْخُذُ بِهِدْيِهِ أَحَدًا إِلَّا سَعِيدًا، وَلَوْ كَانَ لِنَفْسِي مَدَّةٌ، وَفِي أَجَلِي تَأْخِيرٌ، لَكَفَفْتُ عَنْهُ الْهَزَاهُزَ، وَلِدَافَعْتُ عَنْهُ الدَّوَاهِيَ"^(١).

ومن أمثلة الوصايا الموجهة إلى القوم أو القبيلة - أيضا - وصية أكتثم بن صيفي إلى قومه بني تميم، وهي تنبئ عن مدى ما امتلك صاحبها من الحكمة والتجربة والعقل. وقد بدأها بتنبيه قومه إلى ضرورة الإصغاء لنصحه والتزام ما يأمرهم به، لأنه يراهم أحق الناس بالانتفاع بحكمته، ثم راح يبين لهم الفضائل ويحثهم على السعي إلى المكارم، ويرغبهم بممارسة الشورى في أمور حياتهم وعدم استئثار فرد أو مجموعة بالرأي دون الآخرين، ويحذرهم من بعض الخصال والتصرفات التي تحط من قدر صاحبها كالطمع والحسد والنميمة. والوصية بشكل عام تمثل صورة العربي (النموذج) في العصر الجاهلي، وأصالته التي تركز على مكارم الأخلاق، ومنها التواضع والكرم، والتحلي بالصبر، واعتماد العقل وحسن التصرف، والحزم والشجاعة والسماحة والحلم، إلى آخر ما هنالك من الأخلاق والسجايا الطيبة التي تعتر بها الأمم، وهي منظومة القيم التي تعارفها الناس وتناقلوها عبر أجيالهم المختلفة، يقول أكتثم في وصيته لقومه^(٢): "يَا بَنِي تَمِيم: لَا يَفُوتَنَّكُمْ وَعَظِي إِنْ فَاتَكُمْ الدَّهْرُ بِنَفْسِي، إِنْ بَيْنَ حَيْرُومِي وَصَدْرِي لِبَحْرٍ مِنَ الْكَلِمِ لَا أَجِدُ لَهُ مَوَاقِعَ غَيْرَ أَسْمَاعِكُمْ، وَلَا مَقَارًا إِلَّا قُلُوبَكُمْ، فَتَلَقَّوْهَا بِأَسْمَاعٍ صَاغِيَةٍ، وَقُلُوبٍ وَاعِيَةٍ، تَحْمَدُوا عَوَاقِبَهَا. إِنْ الْهَوَى يَقْظَانُ

(١) ألب: التدبير على العدو من حيث لا يعلم. منسأة: فسحة وامتداد (من النسء وهو التأخير أو التأجيل). الجنان: القلب. الشنان: البغض والكراهية. أرباب: سادة. محضه الود: أي أخلصه. الهزاهز: تحريك البلايا والحروب للناس.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ٢٥٦/٢-٢٥٧. والتوحيدي، البصائر والذخائر ١٥٤/١-١٥٥. والالوسي، بلوغ الأرب ١٧٢/٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٤/١-١٣٥.

والعقل راقد، والشهوات مُطلقة والحزم معقول، والنفس مُهملة والرؤية مقيدة، ومن جهة التواني وترك الرؤية يتلف الحزم، ولن يعدم المشاور مرشداً، والمستبد برأيه موقوف على مداخض الزلل. مَنْ سَمِعَ سَمِعَ بِهِ، ومصارغ الأبواب تحت ظلال الطمع، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا في مقاتل الكرام، وعلى الاعتبار طريق الرشاد، ومن سلك الجدد أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤري غيظه، ولا يجاوز ضره نفسه. يا بني تميم: الصبر على جرع الجلم أعذب من جني ثمرة الندم، ومن جعل عرضه ذون ماله استهدف للدم، وكلم اللسان أنكى من كلم الحسام، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي سبع حرب أو نار تلتهب، ولكل خافية مختف، وراي الناصح اللبيب دليل لا يجور، ونفاذ الراي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب^(١).

وتمتاز الوصايا الموجهة إلى الأبناء بشيء من الخصوصية لما فيها من تركيز عاطفي يحكم علاقة الوالد المشرف على الهلاك بولده الذي يمثل امتداداً لحياة هذا الوالد، وأملًا في تحقيق ما لم يتمكن الوالد من تحقيقه في حياته، كما تمثل التزاماً من جهة الابن بوجوب الاستماع لوصية أبيه وتوطين نفسه على إمضائها، وقد يطلب الوالد من ابنه موثقاً وعهداً يطمئن به إلى صدق نية الابن في احترام وصيته، أو يلجأ الابن من تلقاء نفسه، وتحت تأثير موقف الوداع المؤثر، إلى التأكيد بأغظ الأيمان والمواثيق على إنفاذ وصية والده، هذا من الناحية النفسية أو العاطفية، أما من الناحية الموضوعية فإننا نلاحظ شيئاً من الخصوصية في وصايا الآباء للأبناء تتمثل في التركيز على بعض الأمور الشخصية مثل تقسيم الأموال، أو الزواج، أو كيفية التعامل مع فئة أو جماعة من الناس. ومن وصايا حكام العرب إلى أبنائهم وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد، إذ يقول فيها^(٢): "يا بني إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت، فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمخ بمالك، وأحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سؤدك".

(١) الحيزوم: وسط الصدر. معقول: محبوبس ومقيد. مداحض: جمع مدحضة وهي المزلة. الجدد: الأرض المستوية. يوري: يوقد.

(٢) ديوان ذي الإصبع، ص. ٧١-٧٢.

أما غيلان بن سلمة الثقفي، فإن في وصيته لأبنائه شيئا من الطرافة؛ لأنها تكاد تقتصر على أمر واحد هو المرأة! وقد يزول استغراب من يستغرب إذا علم أن غيلان كان قد تزوج عشر نسوة؛ الأمر الذي يجعل منه (خبيرا) في شؤون النساء، ولذلك فإنه أراد أن يقدم خلاصة خبرته وتجربته إلى أعز الناس لديه، وهل أعز من الولد؟ يقول غيلان^(١): "يا بني، قد أحسنتُ خِدْمَةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَمَجَدْتُ أُمَّهَاتِكُمْ، فَلَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا غَدَوْتُمْ مِنْ كَرِيمٍ وَغَدَا مِنْكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بَبُيُوتَاتِ الْعَرَبِ، فَإِنَّهَا مَعَارِجُ الْكَرَمِ، وَعَلَيْكُمْ بِكُلِّ رَمْكَاءٍ مَكِينَةٍ رَكِينَةٍ، أَوْ بَيْضَاءٍ رَزِينَةٍ، فِي بَيْتٍ خَدْرٍ يُتَّبَعُ، أَوْ جَدٍّ يُرْتَجَى، وَإِيَّاكُمْ وَالْقَصِيرَةَ الرَّطْلَةَ، فَإِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَيَّ أَنْ يُقَاتَلَ عَنِ ابْنِي أَوْ يُنَاضَلَ عَنِ حَسْبِي الْقَصِيرِ الرَّطْلِ"^(٢).

إننا حين نقرأ هذه الطائفة من وصايا حكام العرب لأقوامهم وأبنائهم نجد قاسما مشتركا في القيم التي يحرص عليها العربي بشكل عام، مما يعني استقرار هذه التوجهات حتى غدت قيما واجبة الاحترام والاتباع، كما يبين أخلاقيات ذلك المجتمع الجاهلي واهتمامه بالأسس الاجتماعية والروحية التي تقوم عليها حياة البشر عموما، وحياة العرب في مجتمعهم ذاك خصوصا، وهي: الحرص على الجماعة ووحدة القبيلة، وصيانة الشرف والدفاع عنه بكل السبل، وبذل المال بسخاء، والشجاعة والنجدة وإغاثة اللهفان، وصون الأمانة، وإجتنب الخيانة، ومصاحبة الأخيار، واحترام علاقة المصاهرة بالبحث عن الأكفاء، والنهي عن كل ما يخرم المروءة والشرف والكرامة كالفحش والسفه والطيش والبغي والقسوة وأكل الحقوق، والدعوة إلى الحلم والتسامح والعفو.

٤ - الحكم والأمثال: الحكم صياغة نثرية للتجارب الإنسانية الخاصة، وهي تعبر عن

فلسفة من يطلقها، وتأتي أهميتها من حيث إنها توفر على اللاحق خوض التجربة التي مر بها السابق، وتختصر الزمان الطويل من حياة المرء في عبارة قصيرة موجزة ومركزة، سهلة الحفظ والتداول، ولذا فهي خالدة تنتقل عبر الأجيال، وهي قديمة قدم العقل المفكر لدى الإنسان، مما يعني تراكمها المستمر جيلا بعد جيل.

(١) لأصفهاني، الأغاني ١٣/٢٢٨-٢٢٩.

(٢) الرمكاء: ما كان في لونها حمرة تختلط بسواد. الرطلة: الحمقاء الضعيفة.

وقد مر بنا عند الحديث عن معنى الحكم والحكيم قول علماء اللغة في تعريفهم للحكيم أنه ذو الحكمة^(١). وتدل تعاريفهم على أنهم كانوا يعنون بالحكمة التبصر بالأمور واستقراء الحوادث ودراستها لاستخراج التجارب منها، والحكم بموجبها^(٢)، ولهذا فقد نسبت الحكمة إلى المجربين المحنكين الذين عرف عنهم الذكاء وقوة الملاحظة، كما أن الحكم تنسب - في العادة - إلى ذوي الأسنان والمعمرين لما في ذلك من أثر في ازدياد التجربة وتنوع الخبرة في الحياة بعدما يكون العقل قد نضج واكتمل بتكامل العمر وتقدم الإنسان بالسن. واشتهر العرب بالحكمة، فقد روي أن عمر بن الخطاب قال لكعب الأحبار^(٣) - وقد ذكر الشعر - : "يا كعب، هل تجد للشعراء ذكرا في التوراة؟ فقال كعب: أجد في التوراة قوما من ولد إسماعيل أناجيلهم في صدورهم، ينطقون بالحكمة، ويضربون الأمثال، لا نعلمهم إلا العرب"^(٤). كما أن ما أوردته بعض المصادر حول حكمة لقمان، واعتناء العرب بها^(٥)، يدل بوضوح على امتلاك العرب الحكمة واعتنائهم بها وبأصحابها.

وقد تميز كثير من حكام العرب بحكمتهم، إلى الحد الذي جعل الناس يخلطون بين الحكم والحكيم عند حديثهم عن الحكام، "فيجعلون (حكام العرب) من (حكماء العرب) ويذكرون أحكامهم في باب الحكم... وقد كان العبرانيون وبقية الساميين يجعلون الحكام من طبقة الحكماء، لأن الحاكم لا بد أن يكون حكيما، أي مدركا فطنا نافذا إلى بواطن الأمور، ولهذا نجد ارتباطا كبيرا في المعنى بين لفظتي حاكم وحكيم"^(٦). ولذا فإننا نجد في آثار هؤلاء الحكام كثيرا من الحكم التي تناقلتها المصادر المختلفة. ومن الحكام الذين اشتهروا بالحكمة أكثر من صيفي، وعامر بن الظرب، وعلقمة بن علاثة، وسويد بن الصامت، وذو الإصبع العدوانى، والأفعى الجرهمي، وأمّية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، والزبير بن عبد المطلب، وضمرة بن ضمرة، وغيلان بن سلمة، وأبو سفيان بن حرب، وهند بنت الخس، وخصيلة بنت عامر بن الظرب، وصحر بنت لقمان.

(١) انظر: ص من هذا البحث.

(٢) جواد علي، المفضل ٣٣٧/٨.

(٣) كعب الأحبار: كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في خلافة عمر، فأخذ عنه الصحابة كثيرا من أخبار الأمم الغابرة (الأعلام ٢٢٨/٥).

(٤) ابن رشيقي، العمدة، ص ١٦.

(٥) انظر ترجمة سويد بن الصامت ص ٤٣ من هذا البحث.

(٦) جواد علي، المفضل ٣٤٩/٨. وانظر ص ٩ من هذا البحث.

إن من يتتبع آثار حكام العرب النثرية، وخصوصاً ما يتصل منها بالحكمة، يجد أن حكمهم طالت جميع شؤون الحياة، وأن اهتماماتهم لم تقتصر على جانب معين منها، فقد اتسعت مداركهم لتشمل النظر في الكون وسنن الخلق، وامتدت إلى البحث في أمور الناس اليومية ومعاشهم، دون أن تغفل العلاقات الاجتماعية التي ينبغي أن تسود بين أفراد المجتمع الواحد، وكذلك بين المجتمعات والأمم المختلفة. وسوف أورد فيما يلي بعض الأمثلة من حكم حكام العرب عليها تكون صورة عما تركوا من آثار في هذا الصعيد؛ فمن ذلك حكم وردت على لسان قس بن ساعدة هي أشبه بدستور يمكن للإنسان تمثله في كثير من شؤون حياته، يقول قس^(١): "إِنَّ الْمَعْيَى تَكْفِيهِ الْبَقْلَةُ، وَتَرْوِيهِ الْمَذْقَةُ، وَمَنْ عَيْرَكَ شَيْئاً فَفِيهِ مِثْلُهُ، وَمَنْ ظَلَمَكَ وَجَدَ مَنْ يَظْلِمُهُ، وَإِنْ عَدَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ فَوْقَكَ، وَإِذَا نَهَيْتَ عَنِ الشَّيْءِ فَايْأُ بِنَفْسِكَ، وَلَا تَجْمَعْ مَا لَا تَأْكُلُ، وَلَا تَأْكُلْ مَا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَيُؤْنِبُكَ، وَإِذَا ادَّخَرْتَ فَلَا يَكُونَنَّ كَنْزُكَ إِلَّا فِعْلُكَ، وَكُنْ عَفَّاءَ الْعِيْلَةِ، مُشْتَرِكاً الْغِنَى تَسُدُّ قَوْمَكَ، وَلَا تُشَاوِرْ مَشْغُولاً وَإِنْ كَانَ حَازِماً، وَلَا جَانِعاً وَإِنْ كَانَ فَهْماً، وَلَا مَذْغوراً وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً، وَلَا تَضَعْ فِي عُنُقِكَ طَوْقاً لَا يُمْكِنُكَ نَزْعُهُ، وَإِذَا خَاصَمْتَ فَاعْدِلْ، وَإِذَا قُلْتَ فَاقْتَصِدْ، وَلَا تَسْتَوْدِعَنَّ سِرَّكَ أَحَدًا، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ لَمْ تَزَلْ وَجِلاً، وَكَانَ بِالْخِيَارِ، إِنْ جَنَى عَلَيْكَ كُنْتَ أَهْلاً لَذَلِكَ، وَإِنْ وَفَى لَكَ كَانَ الْمَمْدُوحَ دُونَكَ". ومن حكم قس بن ساعدة أن قيصر ملك الروم سأله - وكان قس ممن يفد عليه -^(٢): "مَا أَفْضَلُ الْعَقْلِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْعِلْمِ؟ قَالَ: وَقُوفُ الْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ، قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمَرْوَةِ؟ قَالَ: اسْتِيقَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ، قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ الْمَالِ؟ قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ الْحَقُوقُ".

وممن عرف بالحكمة من حكام العرب عامر بن الظرب العدواني، وهو الذي قيل فيه إنه حكيم العرب الذي لم تكن تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه حكماً^(٣)، وتدور معظم أقواله في الحكمة حول علاقات الناس بعضهم ببعض، وما يجب أن يسودها من قيم الخير والتسامح والتألف، ومن ذلك قوله يخاطب قومه^(٤): "يَا مَعْشَرَ عَدَوَانِ، الْخَيْرُ الْوَفَاءُ عَرُوفٌ، وَإِنَّهُ لَنْ يَفَارِقَ صَاحِبَهُ حَتَّى يَفَارِقَهُ، وَإِنِّي لَمْ أَكُنْ حَكِيماً حَتَّى صَاحَبْتُ الْحُكَمَاءَ، وَلَمْ أَكُنْ سَيِّدَكم حَتَّى

(١) العسكري، جمهرة الأمثال ١/٢٤٩. وجواد علي، المفصل ٥/٢٣٧.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢/١٠٥. والقاللي، الأمالي ٢/٣٧. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٣٩/١.

(٣) انظر: الميداني، مجمع الأمثال ١/٥٨. وجواد علي، المفصل ٨/٣٥٠.

(٤) القاللي، الأمالي ٢/١٥٧. وجواد علي، المفصل ٨/٣٥٠.

تَعَبَدْتُ لَكُمْ". ومن أقوال عامر بن الظرب في وجوب التأني في الرأي وعدم التسرع قوله^(١):
 "دَعُوا الرَّأْيَ يَغْبَى حَتَّى يَخْتَمِرَ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ".

ومن الحكام الذين عرفوا بالحكمة ووصل إلينا شيء من أخبارهم وحكمتهم ضمرة بن ضمرة، وتدل أقواله على عمق تجربته وسعة مداركه، ورجاحة عقله، وفصاحة لسانه، ومن أشهر ما روي من أخباره أنه دخل على النعمان بن المنذر، فلما نظر إليه النعمان ازدراه - وكان ضمرة دميماً - فقال: تسمع بالمعيدي لا أن تراه. فقال ضمرة^(٢): "مهلاً أيها الملك. إن الرجال لا يكالون بالصيغان، وإنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، إن قاتل قاتل بجنان، وإن نطق نطق ببيان. قال: صدقت لله درك، هل لك عِلْمٌ بالأمور وولُوجٌ فيها؟ قال: والله إني لأبرم منها المسخول، وأنقض منها المقتول، وأجبلها حتى تجول، ثم أنظر إلى ما تؤول، وليس للأمور بصاحب من لم ينظر في العواقب. قال: صدقت لله درك، فأخبرني ما العجزُ الظاهرُ، والفقرُ الحاضرُ، والداءُ العيأُ، والسوأةُ السوأة؟ قال ضمرة: إِمَّا الْعَجْزُ الظَّاهِرُ فَهُوَ الشَّابُّ الْقَلِيلُ الْحِيلَةَ، اللَّزُومُ لِلْحَلِيلَةِ، الَّذِي يَحُومُ حَوْلَهَا، وَيَسْمَعُ قَوْلَهَا؛ إِنْ غَضِبَتْ تَرْضَاهَا، وَإِنْ رَضِيَتْ تَفْدَاهَا. وَأَمَّا الْفَقْرُ الْحَاضِرُ فَالْمَرْءُ لَا تَشْبَعُ نَفْسُهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَهَبِ حِلْسِهِ^(٣). وَأَمَّا الدَّاءُ الْعِيَاءُ فَجَارُ السَّوْءِ، إِنْ كَانَ فَوْقَكَ قَهْرَكَ، وَإِنْ كَانَ دُونَكَ هَمَزَكَ، وَإِنْ أُعْطِيَتْهُ كَفَرَكَ، وَإِنْ مَنَعَتْهُ شَتَمَكَ، فَإِنْ كَانَ ذَاكَ جَارَكَ فَاخْلُ لَهُ دَارَكَ، وَعَجَلْ مِنْهُ فِرَارَكَ، وَإِلَّا فَاقِمْ بَذْلًا وَصَغَارًا، وَكُنْ كَكَلْبٍ هَرَارًا. وَأَمَّا السَّوْءُ السَّوْءُ فَالْحَلِيلَةُ الصَّخَّابَةُ، الْخَفِيفَةُ الْوَثَابَةُ، السَّالِيطَةُ السَّابَّابَةُ، الَّتِي تَعْجَبُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَتَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ غَضَبٍ، الظَّاهِرُ عَيْبُهَا، الْمَخُوفُ غَيْبُهَا، فَزَوْجُهَا لَا تَصْلُحُ لَهُ خَالٌ، وَلَا يَنْعَمُ لَهُ بَالٌ، إِنْ كَانَ غَنِيًّا لَمْ يَنْفَعْهُ غِنَاهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَبَدَتْ لَهُ قِلَاهُ، فَأَرَاخَ اللَّهُ مِنْهَا بَعْلَهَا، وَلَا مَتَعَ بِهَا أَهْلَهَا^(٤)" فأعجب النعمان حسن كلامه، وحضور جوابه، فأحسن جائزته واحتبسه قبله.

ومن أشهر حكماء العرب قاطبة، أكرم بن صيفي، الذي لا يكاد كتاب من كتب الأدب يخلو من أقواله الحكيمة وأمثاله البليغة. وهي حكم وأمثال تتناول مختلف شؤون الحياة، فمنها

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥٥/١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١٧١/١. والعسكري، جمهرة الأمثال ٢٦٦-٢٦٧. والميداني، مجمع الأمثال ١٦٤-١٦٦. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٦٦-٦٧.

(٣) في رواية العسكري: خلّسه (بالمعجمة)، وتبعه على ذلك أحمد زكي صفوت، وهو تصحيف ظاهر.

(٤) الصيغان: جمع صاع، وهو مكيال يكال به. سحل الثوب: لم يبرم غزله. داء عيأ: لا يبرأ منه. الحلس: كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله. الصخابة: كثرة اللغط والجلبة من الصخب.

ما يمكن أن ندرجه في باب التأمل والتفكر والتدبر، وخصوصا حين يكون الكلام متعلقا بخلق الكون والحياة ومصير الإنسان وما إلى ذلك من أشياء، ومنها ما يتصل بأخلاق البشر وطبائعهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم، ومنها ما يكون على سبيل النصيح والإرشاد. ومن اللافت للنظر اختلاط الحكم بالأمثال في الآثار المروية عن أكرم بن صيفي، ولعل السبب يعود في ذلك إلى التشابه الكبير بين الحكمة والمثل إلى الحد الذي يصعب معه التمييز بينهما، وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل عند تناولنا لموضوع الأمثال. ومن الحكم الماثورة عن أكرم أنه جمع أبناءه يوما وقال لهم^(١): "تَبَارُوا فَإِنَّ الْبِرَّ يَبْقَى عَلَيْهِ الْعَدَدُ، وَكُفُّوا السِّنْتَكَمُ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ. إِنْ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَدَعْ لِي صَدِيقًا. الصَّدَقُ مَنْجَاةٌ. لَا يَنْفَعُ التَّوْقِي مِمَّا هُوَ وَاقِعٌ. فِي طَلَبِ الْمَعَالِي يَكُونُ الْعَنَاءُ. الْاِقْتِصَادُ فِي السَّعْيِ أَبْقَى لِلْجِمَامِ. مَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى مَا فَاتَهُ وَدَّعَ بَدَنَهُ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عَيْنُهُ. التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ. أَصْبَحُ عِنْدَ رَأْسِ الْأَمْرِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْبَحَ عِنْدَ ذَنْبِهِ. لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ. وَيَلْ لِعَالَمٍ أَمْرٌ مِنْ جَاهِلِهِ. يَتَشَابَهُ الْأَمْرُ إِذَا أَقْبَلَ، وَإِذَا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الْكَيْسُ وَالْأَحْمَقُ. الْبَطْرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ حُمَقٌ، وَالْعَجْزُ عِنْدَ الْبَلَاءِ أَفَنٌ. لَا تَغْضَبُوا مِنَ الْيَسِيرِ فَإِنَّهُ يَجْنِي الْكَثِيرَ. لَا تُجِيبُوا فِيمَا لَا تُسْأَلُونَ عَنْهُ، وَلَا تَضْحَكُوا مِمَّا لَا يَضْحَكُ مِنْهُ. تَنَاعَوْا فِي الدِّيَارِ وَلَا تَبَاغَضُوا، فَإِنَّهُ مَنْ يَجْتَمِعُ يَقْعَقُ عِنْدَهُ. الزَّمُوا النِّسَاءَ الْمَهَابَةَ. نَعَمْ لَهُوَ الْحُرَّةُ الْمِعْزَلُ. حِيلَةٌ مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ الصَّبْرُ. إِنْ تَعَشْتُ تَرَى مَا لَمْ تَرَ، الْكَثَارُ كَحَاطِبِ لَيْلٍ. مَنْ أَكْثَرَ اسْنَقَطَ. لَا تَجْعَلُوا سِرًّا إِلَى أَمَةٍ". ومن أقوال أكرم في الحكمة أيضا: "فَضْلُ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ دَنَاءَةٌ، وَفَضْلُ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ مَكْرَمَةٌ"^(٢) "فَرَطُ الْاِتِّبَاسِاطِ مَكْسَبَةٌ لِفِرْنَاءِ السُّوءِ، وَفَرَطُ الْاِتِّبَاسِاطِ مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ"^(٣). "الْوُقُوفُ عِنْدَ الشُّبْهَةِ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي وَاقْتِحَامِ الْمَهْلَكَةِ"^(٤). "مَعَ كُلِّ حَبْرَةٍ عَبْرَةٌ، وَمَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ"^(٥). "مَنْ صَحَبَ الزَّمَانَ رَأَى الْهَوَانَ"^(٦). "أَحَقُّ مَنْ شَرَكَكَ فِي النَّعَمِ شُرَكَائِكَ فِي الْمَكَارِهِ"^(٧). "مَنْ لَاحَاكَ فَقَدْ عَادَاكَ"^(٨). "إِنَّمَا أَنْتُمْ أَخْبَارُ فَطِيبُوا أَخْبَارَكُمْ"^(٩).

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٣١٠/٢. والألوسي، بلوغ الأرب ٣١٠/١-٣١١.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال ٩١/٢. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٤) الأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٨) الميداني، مجمع الأمثال ٣٦٦/٢. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٩) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٧٣/١.

واشتهر من بين حكام العرب عدد من النساء، غير أنه لم يذكر لأي منهن أثر أدبي، ما عدا هند بنت الخس الإيادية، فقد رويت لها بعض الأخبار التي تتصل بالفصاحة والنباهة وحضور الجواب والحكمة، وجميع هذه الأخبار لها علاقة بحياة الناس في المجتمع الجاهلي، كما أن صورها مستمدة من تلك البيئة، كالحديث عن الإبل والخيل والضأن والنخل، ومن حديثها أن أباهما سألها يوماً^(١): "أي المال خير؟ قالت: النخل، الراسخات في الوحل، المظعمات في المحل. قال: وأي شيء؟ قالت: الضأن قرينة لا وباء بها، تثنجها رخالاً، وتخلبها غللاً، وتجزل لها جفالاً، ولا أرى مثلاً مالا. قال: فالإبل مالك تؤخرينها؟ قالت: هي أذكاء الرجال، وأرقاء الدماء، ومهور النساء^(٢)". ومن حديثها أنها سئلت يوماً^(٣): "أي الرجال أحب إليك؟ قالت: السهل النجيب، السمح الحبيب، الندب الأريب، السيد المهيب. قيل لها: فهل بقي أحد من الرجال أفضل من هذا؟ قالت: نعم، الأهيف الهفاهف، الأنف العياف، المفيد المثلاف، الذي يخيف ولا يخاف. قيل لها: فأى الرجال أبغض إليك؟ قالت: الأوراء السؤوم، الوكل السؤوم، الضعيف الحيزوم، اللئيم الملوم. قيل لها: فهل بقي أحد شر من هذا؟ قالت: نعم، الأحمق الثراع، الضائع المضاع، الذي لا يهاب ولا يطاع. قالوا: فأى النساء أحب إليك؟ قالت: البيضاء العطرة، كأنها ليلة قمر. قيل: فأى النساء أبغض إليك؟ قالت: العنقصة القصيرة، التي إن استنطقت سكتت، وإن سكّت عنها نطقت^(٤)".

وتعد الأمثال من الأنواع النثرية التي تركز فيها التجارب الإنسانية في لحظة من لحظاتها الحاسمة على لسان بعض الناس في عبارة موجزة خفيفة على اللسان، جميلة الوقع في النفس، يمكن أن يستشهد بها ثانية بألفاظها حين تتشابه ظروف تجربة جديدة مع التجربة القديمة التي قيلت فيها^(٥). ويرتبط المثل عادة بقصة أدت إلى وجوده، ولذلك فهو ليس أمراً عقلياً مدركاً بشكل مباشر، أو قاعدة سلوكية واضحة، ولهذا فإن عبارته تصبح غير مفهومة تماماً وببسر في عصر لاحق، أو بيئة أخرى إن لم تفسر رموزها، أو لم ترو قصتها الأصلية،

(١) القالي، الأمالي ١٠٧/٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٧٠/١.

(٢) الرخال: جمع رخل، وهي الأنثى من ولد الضأن.

(٣) القالي، الأمالي ١١٩/٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٦٩/١.

(٤) السندب: السريع إلى تلبية الحاجة حين يندب لها. الأريب: العاقل. الأهيف: من الهيف بالتحريك وهو رقة الخاصرة. والقميمص الهفاهف، أي الرقيق الشفاف. الأوراء: الأحمق. الوكل: العاجز. الحيزوم: وسط الصدر. العنقصة: المرأة البذيئة القليلة الحياء.

(٥) محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، ص ٨٥.

مما يجعل المثل أكثر خصوصية وتجسيدا من الحكمة التي تفهم بذاتها، وتكون أكثر تعميما وتجريدا. ومن هنا ينشأ التباين والاختلاف بين المثل والحكمة^(١).

والأمثال صورة لثقافة الأمم والشعوب، وفلسفتها ونظرتها إلى الحياة، ومذاهبها في الأخلاق الفردية والعلاقات الاجتماعية، كما أنها تكشف عن جوانب شتى من حياتها اليومية، وكثير من عاداتها ومعتقداتها، وهي بهذا تمتاز عن سائر الفنون الأدبية، التي ليس بمقدورها استيعاب مثل هذه الأمور استيعاب الأمثال لها. وتحمل الأمثال مكانة كبيرة في نفوس الناس على اختلاف ثقافتهم، وذلك لما تتضمنه من أحكام يرتضونها ويذعنون لها، لدرجة أنهم يستشهدون بها في المواقف اليومية من حياتهم. وقد اهتم بها العرب لما عرفوه من مزاياها، فاستكثروا منها في كلامهم المنظوم والمنثور، يقول الجاحظ^(٢): "وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف، فيرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمثل".

إن ما تمتاز به الأمثال من بلاغة وإيجاز، قد جعلها سهلة الحفظ والانتشار بين الناس، كما أنها تكسو الكلام روعة وبهاء، وتكسبه الفخامة والقبول، وتجعله يصفح السمع ويلامس القلب، ويقع من النفس أكرم موقع. وقد فطن إلى هذا علماء البلاغة، وهذه بعض أقوالهم: قال أبو هلال العسكري^(٣): "ثم إنني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان، بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل، والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، وإنما هو في الكلام كالنقصيل في العقد، والتتوير في الروض، والتسليم في البرد؛ فينبغي أن يستكثر من أنواعه^(٤)". ويقول ابن المقفع^(٥): "إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق، وأنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث". أما إبراهيم النظام فيقول^(٦): "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية؛ فهو نهاية البلاغة".

(١) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ١٨٠/٢.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٤/٤.

(٤) النقصيل في العقد: أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة. التسليم: من قولهم: برد مسهم، أي مخطط.

(٥) الميداني، مجمع الأمثال ١٨/١.

(٦) المصدر السابق، ص ١٨.

وإدراكا لما للأمثال من أهمية وأثر كبيرين، فقد كان الخطباء العرب يتمثلون بها ويضمنونها خطبهم، وقلما نجد خطبة لهم تخلو من مثل أو أكثر، وكذلك كان الكتاب يفعلون في كتبهم ورسائلهم. وكان الأنبياء عليهم السلام يستخدمون الأمثال في دعواتهم، يؤيدون بها ما يدعون إليه، ويكشفون للناس عن وجوه الحق والباطل، والخير والشر، وكان للنبي (ﷺ) كثير من الأمثال السائرة، بل كان يتمثل بأمثال العرب في الجاهلية^(١). وقد عني العرب بتدوين الأمثال منذ أواسط القرن الأول للهجرة، وزاد اهتمامهم بها في القرن الثاني حين أخذ علماء الكوفة والبصرة يهتمون بها ويؤلفون فيها، ومن أهم ما ألف في هذه الفترة كتاب (أمثال العرب) للمفضل الضبي، وفي القرن الثالث ألف أبو عبيد القاسم بن سلام كتاب (الأمثال)، وهو الكتاب الذي شرحه أبو عبيد البكري في كتاب سماه (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام). "وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه (جمهرة الأمثال) ويخلفه الميداني، فيؤلف كتابه (مجمع الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا"^(٢).

ولما كان من خصائص المثل ولوازمه التي لا بد منها، البلاغة والإيجاز وإصابة المعنى، ولما كانت هذه الصفات والخصائص غير ممكنة إلا لفئة الفصحاء والشعراء والبلغاء فإن الأمثال العربية صدرت عن هذه الطبقة دون غيرها، ويؤيد هذا قول حمزة الأصبهاني فيقول^(٣): "إذ كانت أمثال العرب القديمة إنما صدر أكثرها عن قرائح الشعراء فسار على ألسن الدهماء" ويؤكد هذا الرأي قول الزمخشري^(٤): "ثم هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادير حكمها وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة". ولما كان حكام العرب من طبقة الفصحاء والبلغاء؛ فليس من المستغرب أن تصدر عنهم الأمثال التي تعالج مختلف قضايا ذلك العصر، وتعكس ثقافته وعاداته وتوجهاته، وقد نبغ في هذا المجال عدد من الحكام يعد أكثرهم بن صيفي أبرزهم على الإطلاق؛ وذلك لكثرة ما روي عنه من أمثال نقلتها إلينا الكتب التي عنيت بهذا الأمر، إذ لا يكاد كتاب منها يخلو من عدد كبير من أمثاله، وقد لا أبالغ حين أقول إن أكثرهم هو من أكثر من ضرب الأمثال من بين

(١) عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية؛ دراسة تاريخية تحليلية، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨، ص ٢٥٢.

(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٤٠٤.

(٣) عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، ص ٢٧٨. نقلا عن مقدمة (الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر) مخطوط.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٧٨. نقلا عن مقدمة (المستقصى في أمثال العرب).

شخصيات العصر الجاهلي، وذلك لما امتاز به من فصاحة وحكمة وتجربة. وهناك عدد آخر من الحكام الذين رويت عنهم الأمثال كعامر بن الظرب، وعلقمة بن علاثة، وهند بنت الخس، والأفعى الجرهمي، وقس بن ساعدة، وضمرة بن ضمرة، وغيرهم. وسوف أورد فيما يلي طائفة من أمثال هؤلاء الحكام:

من أمثال أكتم بن صيفي المتعلقة بأخلاق الفرد وسلوكياته والخصال التي ينبغي عليه التحلي بها: "المزاحمة تذهب المهابة"^(١)، "الحسد داءٌ ليس له دواء"^(٢)، كثير النصح يهجم على كثير الظنة"^(٣)، من جعل لنفسه من حسن الظن بإخوانه نصيباً أراح قلبه"^(٤)، من لاحاك فقد عاداك"^(٥)، من مامنه يؤتى الحذر"^(٦)، "عشك خيرٌ من سمين غيرك"^(٧)، "لا تنطح جماء ذات قرن"^(٨)، "قد يبلغ الخضم بالقضم"^(٩)، "الحر عروف"^(١٠)، "لا تطمع في كل ما تسمع"^(١١)، أما أمثاله المتعلقة بالجماعة وعلاقاتها فمنها: "أول الحزم المشورة"^(١٢)، العزيمة حزم والاختلاط ضعف"^(١٣)، لا تفرقوا في القبائل فإن الغريب بكل مكان مظلوم"^(١٤)، من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء"^(١٥)، رضا الناس غاية لا تبلغ"^(١٦)، فسولة الوزراء أضرب من بعض

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٣٣٧/٢.

(٢) المرجع السابق ٢١٣/٢.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ١٦١/٢. والميداني، مجمع الأمثال ٢١٤/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٢/١.

(٤) الميداني، جمهرة الأمثال ٣٧٣/٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٦٦.

(٦) العسكري، جمهرة الأمثال ١١٩/٢ و ١٥٥. الميداني، مجمع الأمثال ٣٦٤/٢.

(٧) العسكري، جمهرة الأمثال ٩٢/٢.

(٨) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٩) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٠) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٢) الميداني، مجمع الأمثال ٧٤/١.

(١٣) المصدر السابق ٤١/٢.

(١٤) العسكري، جمهرة الأمثال ٤٩٤/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣١/١.

(١٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٦) المصدر السابق، ٤٩٣/١.

الأعداء^(١). "ففي الجريرة تشترك العشيرة"^(٢)، "متى تُعالج مال غيرك تسام"^(٣)، قد صدع الفراق بين الرفاق^(٤). "استأنوا أخاكم، فإن مع اليوم غداً"^(٥).

أما الحكام الآخرون، ومع عدم ارتقاء أي منهم إلى رتبة أكثر من صيفي في ضرب الأمثال، إلا أن لهم إسهاماً مميزاً في هذا المجال، وتشكل الأمثال التي رويت عنهم إضافة مهمة لا يمكن إغفالها، وهي تدور حول الأمور المتصلة بحياة الناس عموماً، وتتناول الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مما ينبئ بشمولية اهتمامات الحكام، وتعدد الأغراض التي خاضوا فيها، ويدل على تفاعلهم مع أبناء مجتمعهم والتأثير فيه. وهذه بعض أمثالهم:

"هُمَا كَرُكِبَتِي الْبَعِير"^(٦): هذا المثل لهرم بن قطبة قاله حين تنافر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة، فلم ينفر أحدهما على الآخر مخافة وقوع الشر بين أبناء العمومة.

"عِشْ رَجَبًا تَرِ عَجَبًا"^(٧): المثل للحارث بن عباد، وذلك أنه طلق بعض نسائه من بعد ما أسن وخرف، فتزوجها رجل كانت تهواه، فلقي زوجها الحارث فأخبره بمنزلته منها، فقال الحارث: عشر رجبا تر عجباً، فأرسلها مثلاً^(٨).

"مَا جُعِلَ الْعَبْدُ كَرَبَةً"^(٩): هذا المثل لربيعة بن حذار، قاله في المنافرة بين الققعاق بن معبد بن زرارة، وخالد بن مالك بن ربيعي النهشلي، وذلك أنه نفر الققعاق فقال خالد: أتجعل معبد بن زرارة كمثل سلم بن جندل؟ فقال ربيعة: ما جعل العبد كربه، فأرسلها مثلاً.

"فَتَى وَلَا كَمَالِكَ"^(١٠): هذا المثل لمتهم بن نويرة، قاله في أخيه مالك.

(١) المصدر السابق، ٤٩٤/١.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ٩٢/٢.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) العسكري، جمهرة الأمثال ٣٥٨/٢. والميداني، مجمع الأمثال ٤٦١/٢-٤٦٢.

(٧) العسكري، جمهرة الأمثال ٥٢/٢. والميداني، مجمع الأمثال ١٩/٢.

(٨) الميداني، مجمع الأمثال ١٩/٢.

(٩) المصدر السابق ٣١٨/٢-٣١٩.

(١٠) العسكري، جمهرة الأمثال ٩١/٢. والميداني، مجمع الأمثال ٩١/٢.

"كُلُّ شَاةٍ بَرَجْلُهَا مُعَلَّقَةٌ"^(١): أول من قاله وكيع بن سلمة الإيادي، وهو من خطبة له^(٢).

"لا نأفتي فيها ولا جملي"^(٣): المثل للحارث بن عباد، قاله حين نشبت الحرب بين بكر وتغلب بعدما قتل جساس كليبا، واعتزل الحارث الفريقين إلى أن قتل ابنه بجير^(٤).

ولعامر بن الظرب أمثلة كثيرة، منها التي قالها في قصة ارتحاله إلى أحد ملوك حمير^(٥)، وهذه الأمثال هي: "الهوى يَقْظَانُ والعقلُ نائم"^(٦). "كُلُّ عَامٍ طَعَامٌ، ولكلِّ رَاعٍ مَرْعَى، ولكلِّ مَرَّاحٍ مَرِيحٌ"^(٧). "تَحْتَ الرِّعْوَةِ الصَّرِيحُ"^(٨). "مَنْ لَمْ يَرِ بَاطِنًا يَعِشْ وَاهِنًا"^(٩). "رَبُّ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكْلَاتٍ"^(١٠). ومن أمثال عامر بن الظرب قوله حين خطبت إليه ابنته: "رَبُّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ خَاصِدٌ سِوَاهُ"^(١١).

ومن أمثال الأفعى الجرهمي قوله في قصة تحكيمه بين أبناء نزار^(١٢): "إِنَّ الْعَصَا مِنَ الْعَصِيَّةِ"^(١٣). "إِنَّ خَشْيَتَنَا"^(١٤) مِنْ أَخْشَنَ"^(١٥). "مُسَاعَدَةُ الْخَاطِلِ تُعَذُّ مِنَ الْبَاطِلِ"^(١٦).

(١) العسكري، جمهرة الأمثال ١٥٢/٢ والرواية فيه: "كل شاة تناط برجلها" وهو من غير نسبة. والميداني، مجمع الأمثال ١٦٧/٢.

(٢) انظر الخطبة في: الميداني، مجمع الأمثال ٩١/٢.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٣٩١/٢.

(٤) انظر القصة في ترجمة الحارث بن عباد ص ٣٦٦ من هذا البحث.

(٥) انظر القصة وأمثالها في: العسكري، جمهرة الأمثال ٢٧١/١-٢٧٢. والميداني، مجمع الأمثال ٣٦٧/١-٣٦٨.

(٦) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٧) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٨) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٩) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(١٠) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(١١) الميداني، مجمع الأمثال ٣٨٤/١-٣٨٥.

(١٢) انظر القصة في ترجمة الأفعى، ص ٢٩ من هذا البحث.

(١٣) المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١٤) خشين وأخشن: جيلان أحدهما أصغر من الآخر.

(١٥) المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١٦) المصدر السابق، نفس الصفحات.

الفصل الثالث

أدب محاكاة العرب:

(دراسة فنية)

أولاً: الشعر

١- بنية النص الشعري.

٢- الصورة الفنية.

٣- الملامح الأسلوبية.

ثانياً: النثر:

١- بنية النص النثري

٢- الملامح الأسلوبية

أولاً: الشعر:

أ- بنية النص الشعري :

يتكون النص الشعري العربي من عدة عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عن أي منها، لأنها تتألف وتتحد لتكون الهيكل الذي يقوم عليه ذلك النص.

وإذا نظرنا في القصيدة الجاهلية، فإننا نلاحظ اعتمادها على عدد من العناصر الفنية التي تعد الركائز الأساسية لكل الأعمال الشعرية وهي : المقدمة ، والتخلص إلى الغرض الرئيسي، والخاتمة ، وسوف أقوم بدراسة بنية النص الشعري لدى حكام العرب من خلال هذه العناصر.

١ - المقدمة :

درج الشعراء العرب في العصر الجاهلي على اتباع بعض التقاليد الفنية والتزامها والتقيّد بها في جميع أعمالهم، ومن هذه التقاليد المقدمة التي تكون في أغلب الأحيان وقفاً على الأطلال وبكاء للديار، وتحسراً على أيام القرب والوصال، ويبدو أن هذه العادة (الوقوف على الأطلال) كانت مألوفة لدى جميع الشعراء، وربما كان أول من أشار إليها امرؤ القيس في قوله^(١):

عُوجًا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلَ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامٍ
ورغم أن أحداً لم يستطع معرفة من يكون ابن حذام الذي صرح باسمه امرؤ القيس، إلا أن هذا يشي بوجود سلوك متعارف لدى أولئك الشعراء يقضي بوجوب الوقوف على أطلال الديار والبكاء على من رحل عنها من أهلها.

ويعد ابن قتيبة أول من التفت إلى هذه المسألة من بين النقاد والعرب، وذلك حين تحدث عن تقسيم القصيدة إلى أجزاء، تبتدئ بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار التي أقفرت من ساكنيها بعدما ارتحلوا عنها وحلوا في ديار أخرى بعيدة، ثم الانتقال إلى الغزل والنسيب والحديث عن العلاقة بالمرأة والتشكي من مرارة الهجر والصد والحرمان ووصف الرحلة

(١) ديوان امرئ القيس، ط ١، دار الأرقم، بيروت، د.ت، ص ١٤١.

والراحلة، وصولاً إلى الغرض الرئيسي من القصيدة، يقول ابن قتيبة^(١) "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها . . . ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب . . . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النصب والسهل، وسرى الليل وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وضمامة التأمل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح . . .".

ويبدو ابن قتيبة - من خلال النص السابق - وكأنه قد استقرأ الشعر الجاهلي كله أو معظمه، فتوصل إلى هذه (الصورة) التي تشكلت من خلالها القصيدة الجاهلية، وقد يبدو هذا التصور صحيحاً وقريباً إلى التفسير المنطقي لو كان الشعر في ذلك العصر وقفاً على غرض واحد هو المدح؛ إذا قلنا إن هذا التفسير هو أدق ما يمكن الوصول إليه بهذا الشأن، غير أن هذه (النظرية) سرعان ما تتراجع - ولا أقول تنهار أو تنهزم - حين نجد تلك المقدمة حاضرة في جميع أغراض الشعر الجاهلي من مديح وهجاء ورثاء وغيرها، مما يدعو لإعادة النظر في هذه المقولة والبحث عن أسباب أخرى لهذه الظاهرة، وقد ظهرت آراء واجتهادات عديدة حاول أصحابها تعليل هذا التقليد الفني الذي سلكه الشعراء الجاهليون^(٢).

وتصنف هذه الآراء ضمن اتجاهين رئيسيين: يمثل أولهما اتجاه الاستقراء الموضوعي القائم على دراسة أثر الظرف البيئي والنفسي في التوجيه الفني، ويمثل ثانيهما اتجاه التفسير الرمزي القائم على استشراف معطيات مثولوجية وانطباعية تحرك الشاعر في عمله الإبداعي في مقاطع المقدمة المتنامية^(٣).

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ينظر مثلاً: حسين عطوان، مقدمة القصيدة في العصر الأموي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤، ص ١٢-١٣. ومحمود الجادر، قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الأفلام العدد (١٢) بغداد، ١٩٧٩، ص ٥.

(٣) محمود الجادر، قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، ص ٥.

وبعيدا عن كل هذه التفسيرات والاجتهادات، فإن ما يهمنا هو أن الشعراء قد اتخذوا من هذا المقدمات سبيلا للولوج إلى أغراضهم الرئيسية، حتى غدت هذه المقدمات أشبه بتقليد لا يمكن تنكيب طريقه، ولم يتم الخروج عليه إلا في بعض الأحوال القليلة، ومن بعض الفئات كالصعاليك مثلا^(١) أما حكام العرب فسوف نبين مدى التزامهم هذه المقدمات واتخاذها نهجا في قصائدهم، وذلك من خلال الاستقراء الدقيق لمقدمات تلك القصائد سواء أكانت تلك المقدمات طلبية أم غزلية أم غير ذلك. ولكن قبل الدخول في دراسة مقدمات قصائد حكام العرب، ينبغي أن نشير إلى (الشكل الفني) الذي جاء عليه شعر حكام العرب عموما، وهذا الشكل اتخذ مظهرين أساسيين هما القصيدة والمقطوعة، وقد اختلف القدماء في تعريف كل منهما، فقال الأخفش^(٢): "وليست القصيدة إلا ثلاثة أبيات"، فهو يرى أن القصيدة يجب أن تبلغ عدة أبياتها ثلاثة فأكثر، وإلا كانت مقطوعة، أما ابن جني فيرى أن العرب كانت تسمي ما زاد على الخمسة عشر بيتا قصيدة، وأما ما دون ذلك فهو قطعة^(٣) في حين ذهب الفراء إلى أن القصيدة هي ما بلغت عشرين بيتا، فإن نقصت عن ذلك فهي قطعة^(٤). أما الذي أميل إليه وأجده أقرب إلى الصواب فهو رأي ابن رشيق القيرواني إذ يقول^(٥): "إذا بلغت الأبيات سبعا فهي قصيدة"، وعليه فإن الحد الذي يميز القصيدة من المقطوعة هو سبعة أبيات، فما كان دونها دخل في سلك المقطوعة، وأما إذا بلغ عدد الأبيات سبعة فأكثر فهي قصيدة. وبالعودة إلى شعر حكام العرب، فإننا نجد فيه كثيرا من المقطوعات التي يتراوح عدد أبياتها من بيت واحد إلى سبعة أبيات، وهي كثيرة في شعرهم، لدرجة أنها تكاد تكون السمة الغالبة عليه، لكننا في مقابل ذلك نجد عددا لا بأس به من القصائد التي ينطبق عليها وصف ابن رشيق للقصيدة، ويبلغ عددها حوالي مائة قصيدة، وهذه القصائد هي التي ستكون هدفا لدراستنا حول مقدمة القصيدة لدى حكام العرب.

إن من يطلع على القصائد التي نظمها حكام العرب يلاحظ عدم تقيدهم بنمط معين عند استهلال قصائدهم، كالوقوف على الطلل أو التشبيب، أو سوى ذلك من المقدمات التي عرفت عن شعراء العصر الجاهلي؛ بل إن الشاعر الواحد منهم لم يتبع تقليدا واحدا في هذا المجال إذ

(١) يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٢٦٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ١١/١٨١ (قصد)

(٣) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) الباقلائي، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (ت ٤٠٣ هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد الصقر، ط١

دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٩٥.

(٥) ابن رشيق، العمدة ١/١٧٠.

نرى بعضهم يبدأ إحدى قصائده بالوقوف على الأطلال، ثم يعود في قصيدة أخرى مبتدئاً بالغزل، أو نراه في قصيدة ثالثة يطرق الغرض الرئيسي مباشرة دون مقدمة.

فمن الشعراء الذين وقفوا على الأطلال بشامة بن الغدير؛ فهو يقف على تلك الأماكن التي اعتاد أحبته التردد عليها، ولكنه يفاجأ بأن تلك الديار قد درست بعد مرور سنوات طويلة عليها، فلم يبق منها سوى أثار خيمة غير واضحة المعالم، مما يثير بكاء الشاعر أسفاً على الحال الذي صارت إليه تلك الديار، يقول بشامة^(١):-

لَمَنْ الدَّيَّارُ عَفْوَنَ بِالْجِزْعِ بِالدَّوْمِ بَيْنَ بُحَارٍ فَالشَّرْعُ
دَرَسَتْ وَقَدْ بَقِيَتْ عَلَى حَجَجٍ بَعْدَ الْأَيْسِ عَفْوَتْهَا سَبْعُ
إِلَّا بَقَايَا خِيْمَةٍ دَرَسَتْ دَارَتْ قَوَاعِدُهَا عَلَى الرَّبْعِ
فَوَقَّعَتْ فِي دَارِ الْجَمْعِ وَقَدْ جَالَتْ شُؤُونُ الرَّاسِ بِالدَّمْعِ^(٢)

ومن الشعراء الحكام الذين نجد لهم مقدمات طللية عوف بن الأحوص، الذي يستهل قصيدته بالإعلان عن الخراب الذي أصاب ديار محبوبته التي كانت قريبة من ديار قومه، فلم يعد الشمل ملتئماً كما كان في السابق، ولم يعد التعرف على ملامح الديار ممكناً إلا بعد تنقيب وجهه^(٣):

هَذَمَتْ الْحِيَاضُ فَلَمْ يُغَادِرْ لِحَوْضٍ مِنْ نَصَائِيهِ إِزَاءُ
لِخَوْلَةٍ إِذْ هُمْ مَغْنَى وَأَهْلِي وَأَهْلِكَ سَاكِنُونَ مَعَا رِثَاءُ
فَلَايَا مَا تَبَيَّنَ رُسُومُ دَارِ وَمَا أَبْقَى مِنَ الْحَطَبِ الصَّلَاءُ^(٤)

أما أمية بن أبي الصلت، فإنه يقف على ديار محبوبته فيعرفها رغم ما أصابها من خراب ورغم ما فعلته بها الرياح العاصفة التي اجتهدت في طمس الآثار فراحته تعمل فيها صباحاً ومساءً حتى أبلت كل ما فيها، ولم يسلم من عبثها سوى تلك الأثافي التي بقيت شاهدة على وجود أولئك الساكنين في هذا المكان رغم ما أصابها - هي الأخرى - من البلى والتلف^(٥):

(١) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٠.

(٢) الجزع: منعطف الوادي. الدوم وبحار والشرع: أسماء مواضع.

(٣) المفضل الضبي، المفضليات، ص ١٧٣-١٧٦.

(٤) النصائب: ما نصب حول الحوض من الأحجار، واحدها نصيبة. الإزاء: مصب الدلو على حجر ونحوه.

المغنى: مكان الإقامة. الرثاء: المقابلة والمحاذاة. لأيا: بطينا. الصلاء: النار.

(٥) ديوان أمية، ص ٨٤.

عرفت الدار قد أقوت سنيننا لزيتب إذ تحل بها قطرينا
وأدرتهـا جوافل مَعْصِفَات كما تَدْرِي المَلْمِلة الطحيننا
وسافرت الرياح بهنَّ عُصْرًا بأذيال يرُخْن وَ يَغْتَدِينَا
فأَبْقَيْنَ الطَّلُولَ مَخْبِيَاتٍ ثلاثاً كالحمام قد بليـنا^(١)

وهذا أبو طالب بن عبد المطلب يفتتح إحدى قصائده بالسؤال عن الديار التي خلت من ساكنيها بعدما مرت عليها السنوات والأيام، ومارست الرياح العاتية فعلها المعهود، فأحالتها خرائب تبكي أهلها، وهنا لا يملك الشاعر إزاء ما يرى إلا أن يبكي حزنا وأسى، وأن يذرف الدموع بغزارة تحسرا على هذا الذي أصاب ديار الأحياء، يقول^(٢):

لِمَنْ أَرْبَعُ أَقْوَيْنَ بَيْنَ الْقَدَائِمِ أَقْمَنَ بِمَذْحَاةِ الرِّيحِ الرَّمَائِمِ
فَكَأَنَّ عَيْنِي الْبُكَاءَ وَخِلْتَنِي قَدْ انْزَفَتْ دَمْعِي الْيَوْمَ بَيْنَ الْأَصَارِمِ
وَكَيْفَ بُكَائِي فِي الطَّلُولِ وَقَدْ أَتَتْ لَهَا حِقْبٌ مُدَّ فَارَقَتْ أُمَّ عَاصِمِ^(٣)

وفضلا عن المقدمة الطللية، هناك نوع آخر من المقدمات استهل به الشعراء العرب - ومنهم الشعراء الحكام - قصائدهم، وهي مقدمات تتناول العلاقة مع المرأة، وغالبا ما تكون هذه العلاقة مشوبة بالتوتر والقلق، ولذا تكثر فيها عبارات التشكي من هجر الحبيب وصدوده وعدم التفاته إلى ما يلقي محبوبه من ألم الفراق وحرارة الاشتياق. ومن تلك القصائد التي تبدأ بمقدمة تعالج مسألة العلاقة بين الشاعر ومحبوبته، قصيدة متم بن نويرة التي بدأها بالإخبار عما فعلت صاحبته من قطع لوشائج المحبة غير أبهة بما قد تسبب لصاحبها من آلام وحسرات، رغم حرصه على دوام العلاقة بينه وبينها وتمسكه بها حتى لحظة الوداع الأخيرة، لكن نصيبه منها لم يكن أكثر من دمعة ذرفت عيناها، يقول^(٤):

صَرَمْتُ زُنَيْبَةَ حَبْلٍ مَنْ لَا يَقْطَعُ حَبْلَ الْخَلِيلِ وَالْأَمَانَةِ تَفْجَعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى قَلِيلٍ مَتَاعِهَا يَوْمَ الرَّجِيلِ فَدَمَعُهَا الْمُسْتَنْفَعُ^(٥)

(١) أقوت: أقفرت وخلت من أهلها. الجوافل المعصفات: الرياح العاصفة. الململة: الريح الهوجاء. يرحن ويغندين: يسرن مع العشي ومع طلوع الفجر. المخبيات: أراد بها الأثافي، أي الموقد.

(٢) ديوان أبي طالب، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط ١، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ١٢٦ - ١٢٨.

(٣) القدائم: جمع قديمة، أراد مواضع. رمانم: تكنس كل شيء. أنزفت: حملته على ذلك. الصرانم: جمع صرم (بكسر الصاد وتسكين الراء)، وهي القطعة من الأخبية المنفردة.

(٤) المفضل الضبي: المفضليات، ص ٤٨-٥٤. وابن ميمون، منتهى الطلب ٦/٣٧٠-٣٧٩.

(٥) صرمت: قطعت. الحبل هنا: الوصل. وللأمانة: اللام التأكيد، أي: أنها تفجع أمانة نفسها إن قطعت حبل. أو هي واقعة في جواب القسم. المستنفع: المطلوب نفعه.

ولكنه حين لا يجد من صاحبتة ذلك الحرص على دوام العلاقة، وحين لا تجد دعوته صدى في نفسها، فلا تلتفت إلى ندائه، ولا تفكر في عاقبة سلوكها السلبي تجاه هذا العاشق عند ذلك يعلن أنه غير أسف على انقطاع حبل الود بينه وبينها، فهو لا يبذل محبته لمن لا يبادلها نفس الشاعر، يقول^(١):

جُدِّي حَبَالِكِ يَا زُنَيْبَ فَإِنِّي قَدْ اسْتَبَدُّ بِوَصْلٍ مَنْ هُوَ أَقْطَعُ
وَلَقَدْ قَطَعْتُ الْوَصْلَ يَوْمَ خِلَاجِهِ وَأَخُو الصَّرِيمَةِ فِي الْأُمُورِ الْمُزْمَعِ^(٢)

أما معاوية بن مالك (معوذ الحكماء)، فإنه يستهل إحدى قصائده بالإعلان صراحة عن نيته مفارقة محبوبته واجتنابها، وعدم السعي لمواصلة العلاقة معها بعدما مس المشيب كلا منهما، فلم يعد هناك مجال للتصابي والوهو والعشق، ولم تعد سهام العشق التي كانت ترمي بها قلوب الرجال تمتلك القدرة التي كانت تتمتع بها في السابق، يقول^(٣):

أَجَدَّ الْقَلْبُ مِنْ سَلَمَى أَجْتَنَابَا وَأَقْصَرَ بَعْدَ مَا شَابَتْ وَشَابَا
وَشَابَ لِدَائِلُهُ وَعَدَلْنَ عَنَّهُ كَمَا اتَّضَيَّتْ مِنْ لُبْسِ ثِيَابَا
فَبَانَ تَكْ نَبَاهَا طَاشَتْ وَتَبَلَّى فَقَدْ نَرْمِي بِهَا حَقِيبَا صِيَابَا
فَتَصْطَاذُ الرِّجَالُ إِذَا رَمَتْهُمْ وَأَصْطَاذُ الْمُخَابَةِ الْكَعَابَا^(٤)

ومن الأمور اللافتة في هذه القصيدة أن الشاعر بدأها بالحديث عن المرأة ثم انتقل للوقوف على الأطلال، وهو أمر غريب لم أعهد مثيله في الشعر الجاهلي، ولم أر أحدا من النقاد أشار إليه - بحسب ما أعلم -.

وأما بشامة بن الغدير فإن مقدمة قصيدته تنبئ عن أمر آخر (قد) لا يكون لفت انتباه نقدة الشعر العربي، ولو كان هذا الأمر قد حصل فعلا لما تسرعوا إلى القول بأن عمر بن أبي ربيعة هو أول من جعل نفسه معشوقا تطارده المرأة وتطلب وصاله، فالناظر في قصيدة بشامة يرى

(١) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

(٢) الخلاج: الجذب والمخالفة، أو الشك. الصريمة: العزيمة. المزمع: المجمع على الشيء.

(٣) المفضل الضبي، المفضليات ص ٣٥٧-٣٦٠. والأصمعي، الأصمعيات، ص ص ٢١٣-٢١٤.

(٤) أجد: بمعنى جدد، كأنه يسلي عنها نفسه شيئا بعد شيء، فجعل آخر ما أحدثه معها اجتنبها جديدا. أقصر: كف. لداته: أترابه ومن هم في سنه. أنضى الثياب: خلعها. طاشت: عدلت ومالت. الحقب: جمع حقة وهي المدة من الدهر. المخابة: المحجوبة. الكعاب: التي قد نهت ثديها وكعب.

أنه يقدم نفسه بصورة من تطلبه المرأة لا من يطلبها، ولذلك فهو الذي يهجر، وهو الذي يدل عليها ويمتنع منها، ولا يبالي بدموعها التي انسكبت حين علمت عزمه على الرحيل، يقول^(١):

هَجَرْتُ أَمَامَةَ هَجْرًا طَوِيلًا وَحَمَلْتُكَ النَّأْيُ عَيْنًا ثَقِيلًا
وَحَمَلْتُ مِنْهَا عَلَى نَائِيهَا خَيَالًا يُؤَافِي وَنَيْلًا قَلِيلًا
وَنَظْرَةَ ذِي شَجْنٍ وَأَمِيق إِذَا مَا الرِّكَائِبُ جَاوَزْنَ مِيلًا
أَتَيْنَا تُسَانِيلَ مَا بَيْنَنَا فَقُلْنَا لَهَا: قَدْ عَزَمْنَا الرَّحِيلَا
فَبَادَرَتَاهَا بِمُسْنَى تَعْجَل مِنَ الدَّمْعِ يَنْضَخُ خَدًّا أَسِيلًا^(٢)

ويمثل ذكر المرأة والحنين إلى عهد وصالها جانباً مهماً من شعر الغزل عموماً، فهذا ذو الأصبع يفتتح قصيدته بالعودة إلى ذكرياته مع الحبيبة التي غادرت وابتعدت، فلم يعد ممكناً الوصول إليها، غير أن التأسى بما كان من وثيق الحب بينه وبينها يخفف عنه شيئاً من همّه وحزنه؛ فقد كانت علاقتهما قائمة على المودة والتفاهم والطاعة لدرجة أن الوشاة الذين دأبوا على الإفساد بين الأحبة وتخريب علاقاتهم لم يكن باستطاعتهم النفاذ إلى هذه العلاقة المتينة، ولم يتمكنوا من الإيقاع بهذين الحبيبين، يقول ذو الأصبع^(٣):

يَا مَنْ لِقَلْبٍ طَوِيلٍ الْبَثُّ مَحْزُون أَمْسَى تَذَكَّرَ رِيًّا أَمْ هَارُون
أَمْسَى تَذَكَّرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا شَحَطْتُ وَالدَّهْرُ ذُو غِلْظَةٍ حِينَا وَذُو لِين
فَإِنْ يَكُنْ حُبُّهَا أَمْسَى لَنَا شَجْنَا وَأَصْبَحَ الْوَايُ مِنْهَا لَا يُؤَاتِينِي
فَقَدْ غَنِينَا وَشَمْلُ الدَّارِ يَجْمَعُنَا أَطِيعُ رِيًّا وَرِيًّا لَا تُعَاصِينِي
نَرْمِي الْوَشَاةَ فَلَا نُخْطِي مَقَاتِلَهُمْ بِصَادِقٍ مِنْ صَفَاءِ الْوَدِّ مَكْنُون^(٤)

والملاحظ في جميع المقدمات السابقة عدم تطرق أصحابها للحديث عن صفات المرأة ومحاسنها ومفاتها، وعدم الإشارة من قريب أو بعيد إلى ما كان يحدث بين العاشقين من لقاءات كما كان يفعل امرؤ القيس مثلاً.

(١) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص.ص ٢٢١-٢٢٢.

(٢) النَّأْيُ: البعد. الشَّجْنُ: الحزن. الوَامِقُ: الشَّدِيدُ المحبة. الْبَثُّ: الحال. بَادَرَتَاهَا: يعني عينيها. الْخَدُّ الْأَسِيلُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الدَّقِيقُ الْمُسْتَوِي.

(٣) ديوان ذي الأصبع ص ٨٨-٩٨.

(٤) الْبَثُّ: الهم. شَحَطْتُ: ابتعدت. الْوَايُ: الودع. غَنِينَا: أقمنا.

ولا يعني الحديث عن المقدمة الطللية أو الغزلية التزام الشعراء الحكام بهذين النوعين من المقدمات في قصائدهم، بل إن العكس ربما كان هو الصحيح، إذ نلاحظ قلة ورود هذه المقدمات بالنسبة إلى السمة الأكثر شيوعاً في قصائدهم، وهي طرق الغرض مباشرة، أي دون أية مقدمة، وهي سمة بارزة في شعر الحكام العرب، وتكاد تكون المهيمنة على غالب شعرهم^(١).

٢- التخلص:

امتازت القصيدة العربية بتعدد موضوعاتها، وقد اهتم النقاد ومنذ القدم بمسألة انتقال الشاعر من موضوع إلى آخر في قصيدته؛ لكي تظهر القصيدة وحدة متماسكة مترابطة، فلا يشعر المستمع أو القارئ بالانتقال المفاجئ، وقد سمي ابن رشيق هذا الانتقال بالخروج، فقال^(٢): "هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ثم تتماذى فيما خرجت إليه". وبينه ابن حجة الحموي بقوله: ^(٣) "حسن التخلص هو أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد".

وقد سلك الشعراء العرب سبلا متعددة للتخلص من الموضوع الذي يتحدث به أحدهم، والانتقال إلى الذي يليه، كأن يقول بعد الوقوف على الديار ووصف الرحلة والراحلة: (دع ذا) أو: (عد عن ذا) ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بـ (إن) المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه^(٤) أو غير ذلك من الأساليب التي كان الشعراء يستخدمونها للانتقال من موضوع لآخر. ومن أمثلة التخلص في شعر حكام العرب باستخدام صيغة (دع ذا) أو ما شابهه، قول أبي طالب في قصيدة له بدأها بالوقوف على الطلول وتذكر صاحبتة^(٥):

(١) ينظر مثلا: قصيدة سنان بن أبي حارثة في الأصمعيات (الأصمعية رقم ٧١)، وقصيدتا متمم بن نويرة في المفضليات (المفضلية رقم ٦٧، ورقم ٦٨)، وقصيدة عوف بن الأحوص في المفضليات (المفضلية رقم ٣٦)، وقصيدة قيس بن ساعدة في (البدائية والنهاية ١٨٢/٢)، وقصيدة أبي طالب في (السيرة النبوية ٣٠٩/١ وما بعدها)، وفي (ديوانه ص ٧٠ وما بعدها)، وقصيدة عبد المطلب في (تاريخ الطبري ٥٠٣/١)، وقصيدة ضمرة بن ضمرة في (المفضليات: المفضلية رقم ٩٣) وقصيدة الحصين بن الحمام في (المفضليات: المفضلية رقم ١٢)، وقصيدة الحارث بن عباد في (شعراء النصرانية ص ٢٧٦) وغيرها كثير مما لا مجال لذكره.

(٢) ابن رشيق، العمدة ٢٠٧/١.

(٣) ابن حجة، خزنة الأدب وغاية الأرب ج ١، ط ٢، دار الهلال، بيروت، ١٩٩١، ص ٣٢٩.

(٤) انظر: ابن رشيق، العمدة ٢١٠/١.

(٥) ديوان أبي طالب، ص ٢٢٧.

مِرابِغٌ قَدْ أَقْوَتْ بِجِزَعِ الْقَوَائِمِ أَقَامَتْ بِمُسْنَتِنَ الرِّيَّاحِ الرِّوَانِمِ
يُغَالِبُ عَيْنِي الْبُكَاءُ وَخِلْتَنِي قَدْ أَنْزَلَتْ دَمْعِي يَوْمَ ذَاتِ الصَّرَائِمِ
وَكَيْفَ بُكَائِي فِي الظُّلُولِ وَقَدْ أَتَتْ لَهَا حَقْبٌ مُدَّ فَارَقَتْ أُمَّ عَاصِمِ
غِفَارِيَّةً حَلَّتْ بِبَوْلَانٍ حَلَّةً فَيَنْبُعُ أَوْ حَلَّتْ بِسَيْفِ الْكَوَاطِمِ^(١)

فبعد أن يقف على أطلال الأحبة، ويكي فراقهم، ويتحسر على أيام وصالهم، نراه يخرج من هذا الموقف، ويتخلص إلى ما يروم من الكلام، سالكا طريقا آخر في موضوع مختلف عما كان فيه آنفا: (٢)

فَدَعَهَا فَقَدْ شَطَّتْ بِهَا غُرْبَةُ النَّوَى وَشَغَبَتْ شَتَاتٌ غَيْرَ مَا مُتْلَائِمِ
وَبَلَغَ عَلَى الشَّحْنَاءِ أَقْنَاءَ غَالِبٍ لَوِيًّا جَمِيعًا عِنْدَ نَصِّ الْعَزَائِمِ^(٣)

ومن أمثلة التخلص والانتقال باستخدام (إن) المشددة، ما نجده في قصيدة معاوية بن مالك؛ فبعد مقدمة غزلية قصيرة ذكر فيها صاحبتة (أمامة) التي طرقت ليلًا، فتعجب من مقدرتها على الوصول إليه في تلك الليلة رغم بعد المسافة بين منازل قومها والمكان الذي كان يقيم فيه الشاعر مع جماعة من رفاقه الذين خلدوا إلى النوم والراحة، في حين كان بعض قومها متنبها يقظا. والغريب في هذه المقدمة أن الشاعر جعل المرأة هي التي تخاطر وتزوره في الليل، على غير ما هو معروف من أن الرجل هو من يقوم بهذه المغامرة الليلية، ولا أرى تفسيراً لذلك سوى أن الشاعر أراد أن الذي قام بالزيارة هو طيف تلك المرأة وخيالها لا حقيقتها، يقول (٤):

طَرَقَتْ أَمَامَةً وَالْمَازَارُ بَعِيدُ وَهَنَا وَأَصْحَابُ الرِّحَالِ هُجُودُ
أَتَى اهْتَدَيْتِ وَكُنْتَ غَيْرَ رَجِيلَةٍ وَالْقَوْمُ مِنْهُمْ ثَبَّةٌ وَرُقُودُ^(٥)

بعد هذه المقدمة نرى الشاعر ينتقل إلى الفخر بنفسه وبقومه، مشيدا بما لهم من مجد وكرم وسيادة: (٦)

(١) ذات الصرائم وبولان وينبع: أسماء مواضع.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) شطت: ابتعدت. الشحناء: الكراهية والبغض. النص: الشدة.

(٤) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٣٥٥.

(٥) لا يكون الطروق إلا بالليل، وهنا: بعد ساعة من الليل. هجود: نائمون. رجيلة: صبورة على المشي. نبه:

جمع نابه، بمعنى مستيقظ.

(٦) المصدر السابق، نفس الصفحة.

إِنِّي أَمْرُوٌّ مِنْ غَضَبَةٍ مَشْهُورَةٍ حَشْدٌ لَهُمْ مَجْدٌ أَشْمٌ تَلِيدٌ
الْفَوْاءُ أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ كَرَمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجْدُوذٌ^(١)

ومن أساليب التخلص من الغرض الذي يكون فيه الشاعر ،والانتقال إلى غرض آخر ، أسلوب يقوم على استخدام (واو رب) ، وهذا نجده لدى بعض الشعراء من الحكام ، كقول ضمرة بن ضمرة حين افتخر بصرع خصمه ، وتركه يتخبط بدمه بعدما طعنه طعنة قاتلة^(٢) :

وَقِرْنُ ثَرَكْتُ الطَّيْرَ تَحْجِلُ حَوْلَهُ عَلَيْهِ نَجِيعٌ مِنْ دَمِ الْجَوْفِ جَاسِدٌ
حَشَاهُ السَّانُ ثُمَّ خَرَّ لَأَنْفِهِ كَمَا قَطَرَ الْكُغْبَ الْمُؤْرَبُ نَاهِدٌ^(٣)
ثم انتقل بعد هذا المشهد الدامي الذي صور فيه بطولته وفتكه بأقرانه من الأبطال إلى الافتخار بكرمه وحسن معاملته لضيفه الذي يطرقه طلبا للقرى والمبيت ، فيرحب به ويكرمه ويلبي حاجته ، فيرحل حامدا شاكرا^(٤) :

وِطَارِقُ لَيْلٍ كُنْتُ حُمٍّ مَبِيَّتِهِ إِذَا قَلَّ فِي الْحَيِّ الْجَمِيعِ الرِّوَاغُ
وَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا وَكَرْمُتُهُ حَتَّى غَدَا وَهُوَ حَامِدٌ^(٥)

ولعل أبرع تخلص حين ينتقل الشاعر دون استخدام أي صيغة من الصيغ التي تشعر بالانتقال ، فيكون تخلصه مما هو فيه وانتقاله إلى ما يقصد سلسا بارعا لا يستشعره المرء ، ومن أمثلة هذا التخلص قول بشامة بن الغدير بعد مقدمته التي صرح فيها بهجر صاحبتة ، ووصف حالها إزاء عزمه على الرحيل وتركها ، وكيف أنها بكت بسبب ذلك ، بل إنها اتهمته بالتغير لها ونسبته إلى التجني ، فما كان منه إلا الإسراع في الرحيل على ظهر ناقه قوية ضخمة شديدة ، ثم راح يصف ناقته أدق وصف^(٦) :

أَتُّنَا ثَسَانِلُ مَا بَثْنَا فَقُلْنَا لَهَا : قَدْ عَزَمْنَا الرَّحِيلَا
وَمَا كَانَ أَكْثَرَ مَا نَوَّلْتُ مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا صِفَاخَا وَقِيلَا

(١) الحشد: الذين يحشدون لضيفهم وجارهم ، أي يجتمعون له ولما ينوبهم من قرى ونصر . التليد: القديم .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

(٣) القرن: الكفاء في الشجاعة . النجيع: الشديد الحمرة . الجاسد: اللزج . حشاه السنان: دخل في أحشائه . قطره: رماه على قطرية ، أي ناحيته . الكعب: عظم يلعب به . المؤرب: المحرف ، أي الحاد الأطراف . الناهد: الصبي المرتفع .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) الحم: القصد . الحي الجميع: الكثير . الروافد جمع رافد ، والرغد: المعونة .

(٦) المفضل الضبي ، المفضليات ، ص ٥٥-٥٧ ، وابن ميمون ، منتهى الطلب ٣٩٨/٢-٤٠١ .

وعذرتها أن كل أمرئ مُعدّ له كل يوم شُكُولا
 فقرئت للرحل عيرانة عذافرة عنتريسا ذمولا
 مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الحاقفات المقيلا
 لها قرد تامك نية نزل الولية عنه زليلا^(١)

وشبيه بهذا تخلص متم بن نويرة في إحدى قصائده التي افتتحها بالحديث عن انقطاع الصلة بينه وبين خليلته (زنيبة)، وبعد أن أكد حرصه على دوام علاقة المحبة بينه وبينها، ورأى-في مقابل ذلك- استهتارها به وبحببه، أجابها بمثل ما لقي منها، وأظهر لها عدم مبالاته^(٢):
 صرمت زنيبة حبل من لا يقطع حبل الخليل وللأمانة تقجع
 ولقد حرصت على قليل متاعها يوم الرجل فدمغها المستنفع
 جدي حبالك يا زنيب فابتي قد استبد بوصل من هو أقطع
 وهنا، وبعد أن يصارحها ويعلن لها عدم حزنه على انقطاع حبل المودة بينه وبينها، ويطلب منها أن تبادر إلى قطع ذلك الحبل، يشيح بوجهه إلى جهة أخرى، منتقلا بشكل سلس إلى غرض آخر هو وصف الناقة، وكأنه به يريد أن يستخدم هذه الناقة ليس للارتحال والسفر من مكان إلى آخر فحسب، وإنما يسخرها هنا لغرض فني يخدم انتقاله من غرض إلى آخر دون أن يلاحظه ملاحظ، يقول^(٣):

ولقد قطعت الوصل يوم خلاجه وأخو الصريمة في الأمور المزعم
 بمجدة عنس كأن سراتها فدن تطيف به النبيط مرقع
 قرئتها للرحل لما اعتادني سفر أهمل به وأمر مجمع^(٤)
 وفي بعض الأحيان يقتصر الشاعر في قصيدته على غرض واحد، فلا يحتاج للمقدمة والتخلص إلى أن يختم قصيدته.

(١) البث: الحال. الصفاح: الإعراض. العذرة: المعذرة. الشكول: جمع شكل، وهو المثل. عيرانة: ناقة، شبهها بالغير في صلابتها. العذافرة: الشديدة الضخمة. العنتريس: الشديدة الجريئة. الذمول: السريعة. مداخلة الخلق: محكمة البنية. المضبورة: المجموع بعض خلقها إلى بعض. الحاقفات: الظباء تكون في الأحقاف والحقف: ما أعوج من الرمل. المقيط: وقت القيلولة منتصف النهار، وهو وقت إعياء الأبل. القرد: من النقر، وهو التجمع. عنى به السنام، يريد أنه مكتنز. التامك: المرتفع العالي. الني: الشحم. الولية: حلس يكون تحت الرحل يقي الظهر، وإنما تزل عنها لملاسة سنامها.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات ص ٤٨-٤٩.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٤) الخلاج الجذب والمخالفة. الصريمة: العزيمة. المجدة: التي تجد في سيرها. العنس: الصلبة. سراتها: أعلاها. الفدن: القصر المشيد. تطيف: تدور حوله. النبيط: الماء الذي ينبع من قعر البئر إذا حفرت. المرفع: المعلى.

٣ - الخواتيم:

إذا كانت مقدمة القصيدة تكتسب أهميتها باعتبارها أول ما يطرق الأسماع، وأن الشاعر يلقي من التقدير والقبول والاستحسان بمقدار ما يوفق في اختياره لمقدمة قصيدته، فإن الخاتمة لا تقل أهمية عن المقدمة، وذلك لأنها آخر ما يستقر في أذهان المستمعين، ولا يخفى على أحد الحرص الذي يوليه كل منا على جعل خاتمة كل عمل يقوم به مميزة تترك في نفوس الناس أثرا طيبا، وهو ما نعبر عنه أحيانا بعبارة "مسك الختام" أو نحوها.

وقد التفت العلماء والنقاد إلى أهمية الخاتمة في العمل الأدبي عموما، فهذا ابن رشيق يقول: ^(١) "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه". ويقول ابن حجة الحموي ^(٢): "يجب على الناظم والناثر أن يجعله - الختام - خاتمة لكلامهما، مع أنه لابد أن يحسن فيه غاية الإحسان، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ من دون سائر الكلام في أغلب الأحوال". لقد اهتم الشعراء الحكماء بخواتيم قصائدهم إدراكا لما لهذا الأمر من أهمية، فجاءت تلك الخواتيم متناسبة مع موضوعات قصائدهم، كقول الحصين بن الحمام في نهاية قصيدته التي افتخر فيها ببني قومه وبيطولاتهم وصولاتهم على الأعداء وفتكهم بهم ^(٣):

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُنْقَدِّمَهَا
فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا

وحين يستنجد عبد المطلب بأخواله، ويستقدمهم لنصرته، فإنه يرسل إليهم رسالة في أبيات من الشعر يطلب إليهم القدوم إلى مكة لاستعادة حقه ممن غصبه، فتأتي خاتمة القصيدة مناسبة تمام المناسبة لموضوعها، ومعبرة عن مجمل فحواها ^(٤):

فَاسْتَفْرِوْا وَامْنَعُوا ضَيْمَ ابْنِ أَخِيكُمْ لَا تَخْذَلُوهُ فَمَا أَنْتُمْ بِخُدَالٍ
أَنْتُمْ لِيَانٍ لِمَنْ لَا تَعْرِكَتُهُ سِلْمٌ لَكُمْ وَسِمَامُ الْأَبْلَخِ الْغَالِي

(١) ابن رشيق، العمدة ٢١٠/١.

(٢) ابن حجة الحموي، خزانة الأدب ٤٩٣/٢.

(٣) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص. ١١٤-١١٥.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٣٠٥/١.

أما ذو الإصبع العدوانى، فإنه يعاتب ابن عمه، وينذره ويتوعدده إن لم ينته عن الإساءة إليه، لكنه يبقى على خيط من المودة بينه وبين ابن عمه، ويترك له المجال للعودة عما هو فيه، ويختم قصيدته بهذا النداء^(١):

يَا عَمْرُو لَوْ كُنْتُ لِي الْفَيْتَنِي يَسْرًا سَمَحًا كَرِيمًا أَجَازِي مَنْ يُجَازِينِي

وقد يعتمد بعض الحكماء إلى ختم قصائده بحكمة أو عبرة مستفادة، كقول متمم بن نويرة

في نهاية قصيدته التي تحدث فيها عن ريب الزمان وفعله وتبدل أحواله^(٢):

لَا بُدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ أَبَارِضَ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تَصْرَعُ
وَلِيَاتَيْنِ عَلَيْكَ يَوْمَ مَرَّةٍ يُبْكَى عَلَيْكَ مُقْتَعًا لَا تَسْمَعُ

ومن أمثلة الخواتيم التي حملت معنى من معاني الحكمة - كذلك - قول ضمرة بن

ضمرة^(٣):

وَمَنْ يَتَبَلَّغْ بِالْحَدِيثِ فَبَأْتُهُ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ قِيلَ رَاعٍ وَشَاهِدُ

نلاحظ مما تقدم، ومن خلال دراستنا لبنية القصيدة لدى حكام العرب، وعبر استعراضنا

لمقدمات قصائدهم، ولأساليبهم المتبعة في التخلص والانتقال وفي اختتام قصائدهم - نلاحظ قلة

المشاهد واللوحات، واقتصار القصيدة على مشهد واحد أو اثنين في معظم الحالات، كما لاحظت

الدراسة عدم لجوء الشعراء الحكماء إلى تطويل مقدمات قصائدهم؛ فقد جاءت معظم مقدماتهم

قصيرة لا تتجاوز خمسة أبيات، وفيما عدا ما سبق فإنهم اتبعوا نهج القصيدة الجاهلية السائد،

وتقيدوا بما كان معروفا في زمانهم من تقاليد فنية، فكانوا جزءا مهما من الحياة الأدبية

الجاهلية، مثلما كانوا - قبل ذلك - جزءا من الحياة الاجتماعية لذلك المجتمع، مع ضرورة الانتباه

إلى وجود بعض حالات الخروج على هذه التقاليد الفنية من قبل بعض الشعراء، إلا أن هذا

الخروج لا يعود كونه شطحات أو نزوات فنية أملت ظروف معينه، أما السمة الأبرز فهي - كما

أسلفنا - احترام النهج السائد والسير على ذات الخطى التي سار عليها بقية الشعراء.

(١) ديوان ذي الإصبع ص ٩٧.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات ص ٥٤.

(٣) هاشم شلاش، ضمرة بن ضمرة، ص ١١٧.

ب- اللغة:

إن اللغة هي (المادة الخام) التي يستخدمها الشاعر في عمله الفني، فكما يستخدم الرسام الأصباغ والألوان في رسم لوحاته، والتعبير عن الفكرة الدائرة في نفسه، وكما يستخدم النحات كتلة من الحجر لإخراج تحفته الفنية، فإن الشاعر يستخدم الكلمات والجمل وسيلة لترجمة عواطفه وانفعالاته ومشاعره، وإيصالها إلى المتلقي، وبناء على هذا المفهوم للغة ولأهميتها في العمل الأدبي، فقد أدرك النقاد أهمية الكلمة، ووضعوا لها بعض المقاييس التي ينبغي على الشاعر مراعاتها، ومن ذلك أن تكون تلك المفردات دقيقة، سهلة، بعيدة عن اللغات النادرة عند العرب، وعن السوقية والابتذال والتنافر بين الحروف^(١).

وعند الحديث عن اللغة والمفردات التي استخدمها حكام العرب في شعرهم، فلا بد من التذكير بأن هؤلاء الشعراء قد عاشوا في العصر الجاهلي، ولم يكونوا أشخاصاً عاديين، بل كانوا من الوجوه والأعيان والسادة، مما يعني تأثرهم بما يجري في ذلك المجتمع وتأثيرهم فيه؛ ولذا فإن لغتهم كانت صورة متوافقة - إلى حد بعيد - مع لغة الشعر الجاهلي السائدة.

لقد اتسم أسلوب الشعراء بالانسجام والتناسب بين اللغة والموضوع المطروق، ويبدو هذا الأمر واضحاً جلياً لكل من يقرأ شيئاً من شعرهم؛ فأسلوب الفخر مثلاً يحتاج لغة ومفردات تختلف عن أسلوب الهجاء أو الوصف أو الغزل أو الحرب، وما يستخدمه الشاعر من ألفاظ عند تناوله موضوعاً معيناً قد لا يمكنه استخدامه في موضوع آخر. وقد فطن الشعراء الحكام إلى هذه المسألة فجاءت ألفاظهم وأساليبهم منسجمة مع الغرض الذي يتحدثون فيه؛ ففي الغزل ترى لغة سهلة رقيقة عذبة تتماشى مع رقة مشاعر المحب عند حديثه عن محبوبته، ووصف جمالها الفاتن، ومن ذلك قول الحارث بن عباد^(٢):

وَتَذِيرُ السَّوَاكَ فَوْقَ أَقَاحِ	صَافِي اللُّونِ غَدَوَةٌ وَأَصِيلَا
مَا غَزَالٌ يَرْعَى الرِّيَاضَ وَيَحْنُو	نَحْوَ خِشْفٍ إِذَا أَرَادَ الْمُقِيلَا
إِذَا تَبَدَّتْ لَنَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا	إِذَا رَنَتْ رَنَوَةٌ وَطَرَفًا كَحِيلَا

(١) ينظر في ذلك: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٢-٢٥. وقدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٢٨. وابن رشيق، العمدة، ص ١١٥. و خليل إبراهيم عطية، التركيب اللغوي لشعر السياب، دار الحرية، بغداد، ١٩٦٨، ص ١٤.

(٢) محمد العبسي، حركة الشعر في قبيلة قيس بن ثعلبة، ص ٣٦١.

أما إذا كان الكلام يدور على الفخر والتغني بالأمجاد والمآثر ، فإن النبذة تكون عالية، ويشعر المستمع أو القارئ بقوة الألفاظ وفخامتها، ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت^(١):

وَرثْنَا الْمَجْدَ عَنْ كُبْرَا نِزار
وَأَرْصَدْنَا لِرَيْبِ الدَّهْرِ جُرْدَا
فَأَوْرَثْنَا مَآثِرَنَا الْبَنِينَا
لِهَامِيْمَا وَمَآذِيَا حَصِينَا
نَسِيرُ بِمَغْتَرٍ قَوْمٌ لِقَوْمٍ
وَنَدْخُلُ دَارَ قَوْمٍ آخِرِينَا

وكذلك قول حاجب بن زرارة^(٢):

لَقَدْ عَلِمْتَ أَتْنَاءَ خَيْدِفِ أَتْنَا
وَأَنَا هِجَانٌ أَهْلُ مَجْدٍ وَثَرَةٍ
لَنَا الْعِزُّ قَدَمَا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَعِزٌّ قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
فَسَائِلٌ - أَيْتُ اللَّعْنِ - عَنَّا فَإِنَّا
دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ

إن من يستمع إنشاد الشاعرين (أمية وحاجب) يدرك مدى اعتزاز كل منهما بقومه، وافتخاره بأمجادهم، وذلك من خلال النبذة الخطابية العالية، التي تشعر المستمع بمقدار ما يعتمل في صدر كل منهما من مشاعر القوة والاعتداد والفخر. ولا يختلف الأمر كثيرا عند تحولهم للحديث عن الحرب والمعركة، من حيث قوة الألفاظ وجزالتها، مما يتناسب مع طبيعة الموقف، ويضفي على الصورة مزيداً من القوة، ومن ذلك قول سنان بن أبي حارثة^(٣):

نَحْبُو الْكَتِيْبَةَ حِينَ تَقْتَرِشُ الْقَتَا
مِنَّا بِشَجَّةٍ وَالذَّنَابِ فَوَارِسٌ
طَعْنَا كَالْهَابِ الْحَرِيقِ الْمَضْرَمِ
وَعَتَائِدِ مِثْلُ السَّوَادِ الْمُظْلَمِ
وَلَقَدْ خَبَطْنَ بَنِي كِلَابٍ خَبْطَةً
الصَّفْقَتُهُمْ بِدَعَائِمِ الْمُتَخَيَّمِ

وتمتاز لغة الشعراء الحكام بسهولة ووضوحها وخلوها من الشارد والغريب والحوشي؛ إذ نادراً ما نصادف في قصائدهم بعض تلك الألفاظ، ولعل أكثر مواطن الغريب في شعرهم يوجد حيث يصفون الناقة والوحش والصحراء، وهي مواضيع تناسبها مثل تلك الألفاظ، ومن أمثلة ذلك قول بشامة بن الغدير في وصف ناقته^(٤):

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص. ٨٤-٨٦.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ١٩/١٩٩. وعبد الحميد المعيني، شعر بني تميم، ص. ٣٣٠.

(٣) المفضل الضبي، المفضليات، ص. ٣٤٩-٣٥٠. والأصمعي، الأصمعيات، ص. ٢٠٨.

(٤) المفضل الضبي، المفضليات، ص. ٥٦-٥٧. والأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٣٠٤هـ)، شرح ديوان المفضليات، تحقيق محمد طريفي، ط ١، ج ١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م، ص. ١٢٧-١٣٣.

فَقَرَّبَتْ لِلرَّحْلِ عَيْرَانَةَ عَذَافِرَةٌ عَنْتَرِيْسَا ذُمُولَا
مَدَاخِلَةُ الْخَلْقِ مَضْبُورَةٌ إِذَا أَخَذَ الْحَاقِقَاتُ الْمَقِيلَا
وَحَادِرَةٌ كَنَفِيْهَا الْمَسِيْدُ حُ تَنْصَحُ أَوْبَرَ شَتًّا غَلِيْلَا^(١)

وليس من شك في أن من يريد أن يدرك معاني الكلمات التي استخدمها الشاعر في وصف ناقته، لابد له من العودة إلى أحد المعاجم اللغوية.

كما تكثر الألفاظ الغريبة في شعر أمية بن أبي الصلت، ولكنها ألفاظ شاذة غير مألوفة لدى العرب، وتكثر هذه الألفاظ خصوصا عند حديثه عن الأمور الغيبية كخلق الكون وبعض الأحداث التي وقعت في الأزمان السالفة كالطوفان، وما أورده في شعره من حديث عن الحيوانات كقصة الديك والغراب. ومن أمثلة شعر أمية الذي يحوي ألفاظا غريبة قوله^(٢):

فَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بِقُطْفٍ عَلَيْهِ النَّاطُ وَالطَّيْنُ الْكُتَابُ^(٣)
وقوله^(٤):

لِمُصْقَدِينَ عَلَيْهِمْ صَافُورَةٌ صَمَاءُ ثَالِثَةٌ ثُمَاغٌ وَثُجْمَذُ
وَكَانَ رَابِعَةً لَهَا حَافُورَةٌ فِي جَنْبِ خَامِسَةٍ عَنَاصُ ثُمْرَدُ^(٥)
وقوله^(٦):

إِنَّ الْأَنَامَ رَعَايَا اللَّهِ كُلَّهُمْ هُوَ السَّلَيطُ فَوْقَ الْأَرْضِ مُسْتَطَرُ^(٧)

غير أن مثل هذه الكلمات قليل جدا في شعر الحكام، بل إن السمة الغالبة على ألفاظهم هي السهولة والوضوح، هذا فضلا عن أن تلك المفردات كانت مألوفة لأهل ذلك العصر، وإن كانت غريبة في عصرنا، ولذا فإنهم لم يجدوا غضاضة في استخدامها في حياتهم اليومية بسبب

(١) عيرانة: ناقة شبيهها بالبعير في صلابتها، وإنما شبهت بالبعير لوقاحتها وشدته. والعذافرة: الشديدة الضخمة، ومن هنا قيل للأسد: عذافر. العنتريس: الشديدة الجريئة، ومنه قولهم: أخذ فلان فلانا بالعترسة، أي بالشدة والجرأة. والذمول: السريعة، قال الأصمعي: إذا ارتفع السير عن العنق فهو التريذ، فإذا ارتفع عن التريذ فهو الذميل. مداخلة: محكمة البنية، قد أخذ بعضها بعضا. المضبورة: المجتمعة، ومن هنا سميت إضبارة الكتب لاجتماعها وشدّها. الحاقفات: الظباء تكون في الأحقاف أنصاف النهار من شدة الحر، أراد أنه يسير في الهواجر، وهو أشد السير لأنه وقت إعياء الإبل، لكن هذه الناقة في وقت كلال الإبل وإعيائهن نشيطة، لم يكسرهما السير. الحادرة: يريد أذنّها. كنفيتها: ناحيتها. المسيح: العرق. الأوبر: ذو الوبر. الشث: الكثير المتراكب. الغليل: الذي قد انغلّ بعضه في بعض، أي: دخل. (شرح المفضليات ١/١٢٧-١٣١).

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٢١.

(٣) الناط: الطين الأسود المنتن. الكتاب: المجتمع، يشير إلى ظهور اليابسة وانحسار الماء عنها.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٩.

(٥) الصافورة: السماء الثالثة. الحافورة: السماء الرابعة. العناصي: الشعر المنتصب قائما في تفرق. تمرد: تلين.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٠.

(٧) السليط: هو القاهر (من السلاطة)، ويعني به: الله عز وجل. مستطر: كاتب.

إدراكهم لمعانيها، وعدم مواجهتهم لأية مشكلة تتصل بهذا النوع من المفردات، ولو أتيح لنا أن نستعرض جميع شعر الحكام لوجدناه سهلاً سلساً ينحدر إلى الأفهام دون عناء، حتى إننا قد لا نجد في قصيدة كاملة أو مقطوعة من عدة أبيات كلمة أو لفظة واحدة تستعصي على الفهم وتستوجب العودة إلى المعاجم لمعرفة معناها، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهي أكثر من أن يحاط بها في هذا المقام^(١).

ج - الصورة الفنية

تعد الصورة الفنية من أهم مقومات العمل الأدبي، وقد حظيت باهتمام النقاد العرب قديماً وحديثاً، ولعل الجاحظ كان أول من أشار إليها بشكل غير مباشر، وذلك من خلال تناوله لقضية اللفظ والمعنى حين قال^(٢): "والمعاني مطروحة في الطريق... وإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير". وقد التفت العلماء الذين جاءوا بعد الجاحظ إلى هذه القضية، وحاولوا دراستها وبيان جوانبها، إلا أن جهودهم ظلت قاصرة - نوعاً ما - عن تحديد مفهوم واضح يصطلحون عليه عند تناولهم لها، وبقيت محاولاتهم أسيرة النظرة المحدودة التي لا تعالج المسألة بمنظار من الشمولية؛ فكان تناولهم لها يتم ضمن حديثهم عن القضايا النقدية التي كانت سائدة حينئذ كقضية القديم والجديد، واللفظ والمعنى، والسرقات، وغيرها من القضايا^(٣).

وفي العصر الحديث، ازداد الاهتمام بدراسة الصورة من قبل عدد كبير من الباحثين العرب، وقد يكون هذا الاهتمام ناشئاً عن الاتصال بالثقافة الغربية تحديداً، ونتيجة لذلك وجدنا من يفرد لهذه القضية فصلاً واسعاً أو يؤلف فيها كتباً عديدة. وإن الناظر في المكتبة النقدية العربية اليوم، يجد عشرات الكتب التي وضعها أصحابها لدراسة الصورة، ويجد بين صفحات

(١) انظر مثلاً: قصيدة ذي الإصبع العدوانى في عتاب ابن عمه (ديوانه ص. ٨٨-٩٨)، وقصيدته يوصي ابنه (ديوانه ص. ٧٢-٧٤). وقصيدة عبد المطلب يستجد أخواله (الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٣/١) وقصيدة عوف بن الأحوص (المفضلية رقم ٣٦ ص. ١٧٦-١٧٨). ومقطوعات لغيلان بن سلمة في (الأغاني ١٣/ ٢٢٤-٢٢٥) ومقطوعة لعبيدة بن حصن في (الأغاني ١٥/ ٢١١-٢١٢). وقصيدة للزبير بن عبد المطلب في (البصريات ٢/ ٧٩١-٧٩٢) وأخرى له في (العسكري، جمهرة الأمثال ٩٨/١). ومقطوعة للأقرع بن حابس في (الحماسة البصرية ٢/ ٨٦٣). وغير ذلك كثير من قصائدهم ومقطوعاتهم.

(٢) الجاحظ، الحيوان ١٣١/٣-١٣٢.

(٣) ينظر في تأييد ذلك: الحيوان للجاحظ ١٣١/٣. والشعر والشعراء لابن قتيبة ص. ٣٣. ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ص. ١٥٠. ومقدمة المرزوقي على شرحه لحماسة أبي تمام ٨/١-١٢.

هذه الكتب تعريفات شتى للصورة، وأوصافاً متباينة لأركانها وأهميتها، وسوف أعرض فيما يلي لبعض هذه التعريفات.

يرى عبد القادر القط أن الصورة الشعرية هي^(١): "الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بنائي خاص، ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الكاملة في القصيدة، مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع، والحقيقة والمجاز، والترادف، والتضاد، والمقابلة والتجانس، وغيرها من وسائل التعبير الفني، وهي طرائق مخصصة تؤلف بين الكلمات، وتعمل على تنظيمها في أنساق وتراكيب وأبنية تخلق موازاة رمزية للواقع".

أما نعيم اليافي فيقول^(٢): "إن لغة الفن لغة انفعالية، والانفعال لا يتوصل بالكلمة وإنما يتوصل بوحدة تركيبية معقدة حيوية لا تقبل الاختصار نطلق عليها اسم (الصورة)، فالصورة إذن هي واسطة الشعر وجوهره، وكل قصيدة من القصائد وحدة كاملة تنتظم في داخلها وحدات متعددة هي لبنات بنائها العام، وكل لبنة من هذه اللبنات هي صورة تشكل مع أخواتها الصورة الكلية التي هي العمل الفني نفسه".

وتعرف بشرى صالح الصورة بأنها^(٣) "ذلك الصوغ اللساني المخصوص الذي بوساطته يجري تمثل المعاني تمثلاً جديداً مبتكراً، ربما يحيلها إلى صورة مرئية معبرة".

يتبين مما سبق أن مفهوم الصورة من المفاهيم النقدية التي لم يستطع النقاد وضع تعريف محدد له، وذلك بسبب ما يعترضه من غموض، فضلاً عن لجوء كل ناقد إلى النظر إليه من زاوية تختلف عما يفعل غيره من النقاد. وسوف نعرض لأنواع الصورة في شعر حكام العرب، وهي صور تتدرج في ضربين أساسيين هما: الصورة البلاغية، والصورة الرمزية.

(١) عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٣٥.

(٢) نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الفنية، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢، ص ٣٩-٤٠.

(٣) بشرى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٧٨.

فمن الصور البلاغية القائمة على التشبيه، صورة الشيخ الكبير الذي تقدمت به السن، وكبير أبنائه وفارقوه بعدما أصبح لكل منهم بيته الخاص به، هذه الصورة نجدناها لدى عامر بن الظرب العدواني، فهو يشبه نفسه بالنسر الذي طارت فراخه وتركته وحيدا يقاسي مصاعب الحياة وبصارع من أجل البقاء، حتى إذا أراد النهوض سقط من شدة الضعف، ويقدم صورة مؤثرة لذلك النسر الذي كان يصل أيام شبابه، فكأنه يوم بطرف خفي إلى ما كان عليه حاله عندما كان شابا ملء السمع والبصر، أما اليوم فهو عاجز لا يقوى على النهوض^(١):

فاصبحت مثل النسر طارت فراخه
إذا رام تطيارا يقال له: قع

ومن تلك الصور - أيضا -، صورة الأبطال في مقطوعة لسويد بن الصامت الأوسي، يشيد فيها بفرسان قومه وبيطولاتهم، ويصورهم أسودا تقتحم غمرات الأهوال غير مبالية بالموت دفاعا عن الشرف والعرض، ويصور إقدامهم وجراتهم في المعركة لا يحتمون إلا بسيوفهم الصارمة التي تقطر سموما يذوق الأعداء المنايا حين يتجرعون كأسها^(٢):

إذا ما البيضُ يومَ الرُّوعِ أبدتْ
أنتنِي مالِكٌ بليوثٌ غابِ
معاقلهم صوارمُ مرهفاتٍ
يُسافون الكُماةَ بها السَّماما^(٣)
محاسنها وأبرزت الخداما
ضراغم لا يروون القتلَ داما

ومنها أيضا صورة القوم المهزومين التي قدمها ضمرة بن ضمرة في حديثه عن كيفية إيقاعه بأعدائه، وكيف تركهم صرعى مجندين في ساحة المعركة، وقد اصطبغت وجوههم بدمائهم التي أراقها بسيفه، فسقاه منها حتى ارتوى بعدما كان صاديا، وشبه شغف سيفه بدماء القوم، بشغف الإبل إلى الماء بعدما حبست عنه خمسة أيام متتالية^(٤):

تركت بني الغزِيلَ غيرَ فخرٍ
هَرَقْتُ دِمَاءَهُمْ فَشَرَعَتْ فِيهَا
كَأَنَّ لِحَاهُمْ ثُمِغَتْ بِوَرَسٍ
بَسِيقِي شُرْبٍ وَارِدَةٍ لَخْمَسٍ

ومن الصور البلاغية القائمة على الكناية قول أبي طالب بن عبد المطلب في مدح النبي (ﷺ)، وذلك حين يصفه بأنه (أبيض) كناية عن السيادة والشرف والرفعة، ونبل الأصل وكرم

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٥٨/١.

(٢) البصري، الحماسة البصرية ٣٨/١.

(٣) الخدام: يقصد به الخلائق، وعدم ستر الخلائيل للنساء إنما يكون عند هروبهن وقت الإغارة خوف السباء.

مالك: هو مالك بن الأوس بن حارثة، قوم سويد. الذم: العيب. السمام: جمع السم.

(٤) هاشم شلاش، شعر ضمرة بن ضمرة، ص ١١٨.

المحتد وطيب الأرومة، كما يصوره ملجأ لليتامى والأرامل والمساكين يحوطهم بعنايته ويحذب عليهم، وملاذا لأبناء قومه الذين يجدون في كنفه الرحمة والمودة^(١):

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

ومن أمثلة تلك الصور قول أمية بن أبي الصلت في مدحه لعبد الله بن جدعان^(٢):
إِلَيَّ، وَإِنَّهُ لِلنَّاسِ نَهْيٌ وَلَا يَعْتَلُّ بِالْكَلِمِ الصَّوَادِي^(٣)

فهو يصوره منهلاً عذبا يقصده الورد للارتواء من عذب مائه المبذول لكل من يطلبه فلا يصد عنه أحد؛ كناية عن جوده وكرمه وعطائه الذي لم يحرم منه أحد من قاصديه .

ومن تلك الصور أيضا ما صور به بشامة بن الغدير حاله عندما كبر وشاخ، فقد استخدم الكناية في رسم صورته تلك، فإذا به يمل ولا تطاق رؤيته بعدما كان في شبابه عزيزا كريما لا يجروا أحد على التفكير في إهانتته، وإذا به يشرب بالقعب الصغير (كناية عن الاحتقار والازدراء)، ويقوده أصغر أبنائه (كناية عن عدم الاهتمام به والالتفات إليه وتصغيرا لشأنه)^(٤):

وَجَعَلْتُ يَحْفَظُنِي الصَّغِيرُ وَمَلَّنِي أَهْلِي وَكُنْتُ مُكْرَمًا لَا أَكْهَرُ
وَشَرِبْتُ بِالْقَعْبِ الصَّغِيرِ وَقَادَنِي نَحْوَ الْمُقَامَةِ مِنْ بَنِي الْأَصْغَرِ^(٥)

وإن للنّاظر في هذه الصورة أن يتخيل حجم المرارة التي يشعر بها بشامة وهو يصور ما آل إليه حاله بعد القوة والفتوة والشباب، وله أن يلاحظ تكرار كلمة (الصغير) في البيتين، وكيف يلح معنى (الصغر) و (الصغار) على عقل الشاعر ونفسه لكي يدرك المدى الذي وصل إليه إحساسه بالفجيعة لفقد شبابه واقترابه من الفناء.

ومن الصور البلاغية القائمة على الاستعارة قول الحصين بن الحمام معيرا أعداءه^(٦):
أَلَمَّْا كَشَفْنَا لَأَمَّةَ الدَّلِّ عَنْكُمْ تَجَرَّدَتْ لَا بَرٌّ جَمِيلٌ وَلَا شُكْرُ

(١) ديوان أبي طالب، ص ٧٥.

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٣٣.

(٣) النهي (بكسر النون وتسكين الهاء): الغدير، وكل موضع يجتمع فيه الماء . يعتل: يتشاغل أو يعتذر مع قدرته على الأمر.

(٤) سلامة السويدي، شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية، ط ١، جامعة قطر، ١٩٨٧م، ص ٢٦٧.

(٥) الكهر: القهر والانتهاز. القعب: قدح من خشب مقعر. المقامة: المجلس والجماعة من الناس.

(٦) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١٠٨.

فقد استخدم الصورة المبنية على الاستعارة في قوله (لأمة الذل) ليبين مدى ما أصاب هؤلاء القوم من المذلة والهوان، فأتى بهذه الاستعارة التي توحى لمن يستمع إلى هذه القصيدة بالتلازم والصلوق الدائمين، وليس هذا فحسب، بل إن اللمة (وهي غطاء الرأس) من العلامات البارزة على مظهر الإنسان، وهي لا تخفى على أحد حتى إنها تكاد تكون العنوان الذي يدل عليه؛ فإذا كان العنوان ذلاً وهواناً فكيف سيكون ما يليه؟

ومن الحكام الذين نجد الاستعارة حاضرة في صورهم أمية بن أبي الصلت، وذلك في قوله عندما حضرته الوفاة^(١):

فاجعل الموت نَصَبَ عَيْنِكَ واحذرْ غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غَوْلًا

فقد صور الدهر (من خلال الاستعارة) وحشاً مفترساً يغال الأحياء، وذلك جريا على عادة الحكماء الذين يحذرون من الإفراط في اللهو والغفلة والانغماس بمباهج الحياة وملذاتها، وينبهون المستهترين إلى وجوب الاعتناء والتنبه إلى تقلب الأيام التي لا يدوم سرورها؛ فهي وإن بدت هائلة تفيض بالسعادة والحبور، إلا أنها تتقلب فجأة، وتدير للناس ظهر المجن وتكشر عن أنيابها، فتغتال سعادتهم، وتشتت جمعهم، وتحيل حياتهم موتاً وفناءً، وعمرانهم خراباً، وفرحهم حزناً وشقاءً.

ومن الصور التي يشترك فيها أكثر من شاعر، صورة الإنسان الخبير المجرب الذي عرك الحياة وذاق حلوها ومرها، وهي صورة تقوم على الاستعارة، ونجدها في قول أكثم بن صيفي^(٢):

حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ حَيَاتِي وَنَلْتُ مِنَ الْمُنَى فَوْقَ الْمَزِيدِ

وتتكرر في قول ذي الإصبع العدواني^(٣):

وَلَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَعَلِمْتُ مَا آتَى مِنَ الْأَمْرِ

فقد استخدم كل من الشاعرين استعارة (أشطر الدهر)، فجعله كأنه ناقة تحلب، والمعلوم أن عملية الحلب من الأمور الصعبة التي يواجهها من يود القيام بها، فإن لم يكن قد تدرب عليها طويلاً ومارسها فإنه لن يستطيع إتقانها على الوجه الصحيح، وذلك لأن الناقة لا تسلم نفسها لمن يبغي حلبها إلا إن كانت تعرفه وتألّفه منذ زمن، وإلا فإنها ترمحه وتمنعه من الاقتراب منها؛

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت، ص ٥٧.

(٢) الأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٥/١.

(٣) ديوان ذي الإصبع، ص ٤١.

ومن هنا يظهر مدى توفيق كل من الشعارين في استخدام هذه الاستعارة لتصوير مقدار نضجه وعقله، وتجربته الطويلة الواسعة في الحياة، حتى بدا الدهر ناقة أليفة طيعة تنقاد له بسهولة وتسلم إليه زمامها بسلاسة ويسر.

أما الصورة الرمزية، فإن حضورها في شعر حكام العرب قد تمثل من خلال ثلاثة محاور، وهي: صورة الطلل، وصورة الناقة، وصورة المرأة.

لقد دأب الشعراء الجاهليون على استخدام صورة الطلل لأغراض مختلفة، ومن هذه الأغراض - كما يرى ابن قتيبة - ^(١) أن يكون ذكر الأطلال سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها، تمهيدا للانتقال إلى الغزل ثم التخلص منه إلى ذكر الرحلة والراحلة، وصولا إلى الغرض الرئيسي من القصيدة. غير أن ثمة شعراء وظفوا هذه المقدمة الطللية توظيفا رمزيا من خلال ربطه بالموضوع العام للقصيدة، بحيث تتعاضد أجزاؤها لتكوين الرؤية التي يرمي إليها الشاعر، ومن أمثلة ذلك في شعر حكام العرب قول أمية بن أبي الصلت في مقدمة قصيدته التي يفخر فيها بقومه ^(٢):

عَرَفْتُ الدَّارَ قَدْ أَقَوْتُ سِنِينَا	لَزَيْتَبِ إِذَا تَحَلَّ بِهَا قَطِينَا
وَأَدْرَتْهَا جَوَافِلُ مُعْضِفَاتٍ	كَمَا تُدْرِي الْمَلْمِئَةُ الطَّحِينَا
وَسَافَرَتِ الرِّيَاحُ بِهِنَّ عُصْرًا	بِأَدْيَالٍ يَرُحْنَ وَيَغْتَدِينَا

فقد استطاع الشاعر أن يوظف هذه المقدمة لخدمة السياق العام للقصيدة وهو الفخر، وذلك عندما صرح منذ أول كلمة في قصيدته بأنه قد (عرف) ديار الحبيبة ولم ينكرها رغم ما أصابها من بلى ودمار وخراب بعد ارتحال أهلها عنها، ولم يجئ هذا الأمر مصادفة أو اعتباطا وإنما قصده الشاعر قصدا لتوظيفه خدمة لغرضه من الفخر بقومه، فهو يريد القول إنه من قوم قد عرفوا بنبل الأصل وعلو المكانة، وإن مآثرهم باقية على مر الأزمان والدهور لا تبلى ولا تتغير، ولا يستطيع أن ينكرها أحد؛ ومن هنا جاء الربط بين معرفته لآثار ديار محبوبته التي مرت عليها الأيام والسنون فلم تستطع أن تنسيه حقيقة وجودها، وبين فخره بقومه وبمآثرهم؛ إذ نجده يقول بعد مقدمته الطللية ^(٣):

فَإِمَّا تَسْأَلِي عَنِّي لَبِئْتُ	وَعَنْ نَسَبِي أَخْبَرُكَ الْيَقِينَا
------------------------------------	---------------------------------------

^(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٧.

^(٢) ديوان أمية، ص ٨٤.

^(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

وَأَجْدَادًا سَمَوًا فِي الْأَقْدَمِينَا

ثَقِيَ أَنِّي النَّبِيَّةُ أَبَا وَأَمَّا

ثم يمضي في قصيدته إلى نهايتها يفتخر ويعدد ما لقومه من مفاخر وماثر، مما يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من توظيفه للمقدمة الطللية لخدمة الغرض الأساسي وهو الفخر.

وكما وظف الشعراء الطلل توظيفاً رمزياً في مقدمات قصائدهم، فإنهم قد فعلوا ذلك - أيضاً - في توظيفهم للناقة؛ فهي قوية، صلبة، ضخمة، صبورة على السير في الهاجرة عندما يريد الشاعر أن ينتقل إلى موضوع يتصل بفخره بنفسه أو حين ينوي مفارقة حبيب صدود أو صاحب متكرر لعهد الصحبة والمودة. أما إن كان الموضوع متصلاً بالمدح فإن الناقة تكون قد هزلت ونحلت بعدما أرهقها المسير إلى الممدوح، حتى إن بعض الشعراء يصورها شاكية باكية لشدة ما تلقى من وعثاء السفر وقطع الفيافي والمفاوز.

ومن الشعراء الذين وظفوا الناقة توظيفاً رمزياً بشامة بن الغدير؛ إذ نجده يصور ناقته التي يرتحل عليها مفارقاً ديار صاحبتة التي لم ينل منها سوى القليل - يصورها ناقة قوية صلبة سريعة كأنه يريد الانتقال بسرعة خاطفة، ولذا فإنه يمعن في وصف هذه الناقة، ويصور كل عضو فيها ويصفه وصفاً دقيقاً، يقول^(١):

وَشَوَاشَةٌ سُرْحًا فِي دَفْهَا زَوْرُ

فَاقِرُ الْهَمُومِ الَّتِي نَابَتْ مَذْكَرَةً

كَمَا يَرُضُ سَوَادِي الْفَرَى حَجْرُ

تُذْرِي الْحَصَى رَثْمًا مِنْ تَحْتِ مَسْمِيهَا

فقد صور الناقة كأنها جمل - وهو مما تمدح به النوق - وصور سرعتها، وكيف يتطاير الحصى بسبب تلك السرعة حتى كأنه نوى التمر حين يدق بالحجر فيتطاير.

ومن الصور التي وظفت فيها الناقة ما فعله متمم بن نويرة حين صور مشهداً تبدو فيه مجموعة من النوق وقد أصابتهن الفاجعة بفقد حوار إحداهن، وكيف تتعاطف المجموعة كلها مع تلك الأم الثكلى، فيرددن جميعاً البكاء والنوح تضامناً وإحساساً بمدى الفجعة وهول المصيبة، ثم يوظف الشاعر هذا المشهد لتصوير ما أصابه من حزن لفقد أخيه مالك، ويقارنه بعد ذلك بما يعاينه من حزن وهم شديدين^(٢):

أَصْبَنَ مَجْرًا مِنْ خَوَارٍ وَمَصْرَعًا

وَمَا وَجَدُ أَظَارَ ثَلَاثِ رَوَائِمِ

(١) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٧.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٤٩. وابن ميمون، منتهى الطلب ٦/٣٧١-٣٧٣.

يَذْكُرُنْ ذَا الْبَثِّ الْحَزِينَ بَبْئِهِ إِذَا حَثَّتِ الْأُولَى سَجْعَنَ لَهَا مَعَا
 إِذَا شَارِفًا مِنْهُنَّ قَامَتْ فَرَجَعَتْ حَنِينًا فَأَبْكَى شَجْوَهَا الْبَرْكَ أَجْمَعَا
 بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكٍ مُنَادٍ بِصَيْرٍ بِالْفِرَاقِ فَاسْمَعَا

ويتضح من الأبيات السابقة مدى إصابة الشاعر وتوفيقه في التصوير، وذلك حين يسبغ على النوق صفة الحزن والحنين، ويزيد عليها تلك المسحة من مشاعر التضامن والتآلف بين الأم الثكلى وصاحباتها اللواتي يشاركنها حزنها ولو عتها، فكانه يعرض أمام المستمع شريطاً قد أبدع في تصويره وإخراجه.

وفي الحديث عن المرأة نجد ذا الإصبع العدوانى ينحو منحى رمزياً؛ وذلك حين يأتي بصورة المرأة المطيعة المحبة التي عاش معها في أنعم عيش وأهنأ بال، في مقدمة قصيدته التي يعاتب فيها ابن عمه الذي دأب على معاداته والتربص به، فجاء بهذه الصورة لخدمة الغرض الرئيسي في القصيدة، وهو محاولة إعادة ابن العم إلى سابق حاله من الود والمحبة والتآلف مع ابن عمه ليكونا يداً واحدة في وجه الأعداء والطامعين والمتربصين، انظر إليه وهو يقول^(١):

فَقَدْ غَنِينَا وَشَمَلُ الدَّارِ يَجْمَعُنَا أَطِيعُ رِيَا، وَرِيَا لَا تُعَاصِينِي
 نَرْمِي الْوُشَاةَ فَلَا نُخْطِي مَقَاتِلَهُمْ بِصَادِقٍ مِنْ صَفَاءِ الْوُدِّ مَكْنُونٍ

إن الشاعر يخاطب ابن عمه من خلال حديثه عن (ريا) التي كانت تطيعه ويطيعها، ويذكره بما كان عليه حالهما عندما كانا متفاهمين متفقين يكتنان لبعضهما الود فلا يستطيع الأعداء النفاذ إليهما. ولهذا فإن حديث الشاعر عن المرأة في مقدمة قصيدته قد جاء توظيفاً رمزياً لخدمة غرضه الرئيسي؛ فالقلب مهموم لتذكر ريا - ابن العم، التي شحطت - الذي قطع حبال الود مع ابن عمه... وهكذا، ويؤكد هذا المذهب قول ذي الإصبع في ختام قصيدته^(٢):

يَا عَمْرُو لَوْ كُنْتُ لِي الْفَيْتِنِي يَسْرًا سَمَحًا كَرِيمًا أَجَازِي مَنْ يُجَازِينِي

(١) ديوان ذي الإصبع، ص ٨٨-٩٨.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحات.

د- الملامح الأسلوبية:

تتكون التجربة الفنية عموماً من عناصر أساسية لا يمكن لها أن تقوم بمعزل عنها، ولا تخرج التجربة الشعرية - بوصفها تجربة فنية - عن هذا التوصيف، فهي تتكون من اللغة والعاطفة والصورة^(١)، غير أن ما يميز تجربة عن أخرى، وشاعراً عن شاعر، هو ما نطلق عليه (الأسلوب)، ونعني به طريقة تعامل الشاعر مع العناصر السالفة الذكر، وكيف يستخدم هذه العناصر في صوغ تجربته وموهبته وحسّه الفني.

والأسلوب في اللغة^(٢): "يقال للسطر من النخيل: أسلوب. وكل طريق ممتد فهو أسلوب. والأسلوب: الطريق، والوجه، والمذهب. والأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه".

وقد أشار بعض علمائنا الأوائل إلى الأسلوب، فقالوا إنه^(٣) "القرب من النظم أو الطريقة فيه". أما في العصر الحديث فقد اتسع الاهتمام بهذا المصطلح، وبرزت مدارس ومذاهب، وألفت كتب كثيرة اهتمت بدراسته، وبينت أصوله الفنية والنفسية^(٤). وتكاد معظم آراء النقاد والباحثين تتفق على أن الأسلوب يعني طريقة تناول الشاعر للموضوع وتقديمه للمتلقين سواء أكانوا مستمعين أم قراء، ومن تعريفاتهم^(٥): "هو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني". ويرى فتح الله سليمان أن الأسلوب هو^(٦) "تعبير عن شخصية منشئة وانعكاس لها" في حين يذهب عبد السلام المسدي إلى أن الأسلوب^(٧) "جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته لا الفنية فحسب، بل الوجودية مطلقاً".

(١) انظر: مخيمر صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ط١، مكتبة المختار،

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ٦/٣١٩ (مادة سلب).

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٣٦١.

(٤) انظر مثلاً: شكري عياد، مدخل إلى علم الأسلوب. وإبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ. وسعد مصلوح، الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية. وصلاح فضل، علم الأسلوب مبادئ وإجراءاته. وشفيع السيد، الاتجاه الأسلوبي في النقد العربي. وعبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب. ومحمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات. وفتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية. وغير ذلك من الكتب والدراسات والرسائل الجامعية التي يصعب حصرها في هذا المقام.

(٥) أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط٧، مكتبة النهضة المصرية،

١٩٨٥، ص٤٦.

(٦) فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ط١، الدار الفنية للنشر والتوزيع، د.ت، ص١٤.

(٧) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل السني في نقد الأدب، د.ط، الدار العربية للكتاب،

تونس، ١٩٧٧، ص٦٣.

وبعيدا عن الاستغراق في الكلام النظري على الأسلوب والأسلوبية، ولكي لا نذهب بعيدا عن موضوعنا الأساس، فإن ما يعنينا من الأسلوب في دراستنا هذه هو النظر في شعر الحكام العرب، وتبين بعض الملامح الأسلوبية التي بدت واضحة في شعرهم - إن كان ثمة ملامح مميزة - . وأهم نقاط البحث سوف تركز على معرفة مدى الانسجام والتوافق بين لغة الحكام وبين الموضوع الذي يطرقونه، ونوعية الألفاظ المستخدمة من حيث السهولة والوعورة والمألوف والغريب، وبعض الأساليب المتبعة كالاستفهام، والحذف، والتقديم والتأخير، والمحسنات البديعية كالجناس والطباق والمقابلة. كما سيتم التطرق إلى الموسيقى وما يتصل بها من أوزان وقافية وتصريع ، وما إلى ذلك من أمور.

أما الناحية الأسلوبية في شعر الحكام، فإن المتتبع يلحظ كثيرا من الأساليب التي كانت شائعة لدى الشعراء في العصر الجاهلي عموماً كالاستفهام، والحذف، والتقديم والتأخير، كما يلحظ بعض المحسنات البديعية كالجناس والطباق والتصدير والتقسيم وغيرها. فمن الاستفهام قول الحصين بن الحمام^(١):

أَلَا تَقْبَلُونَ النَّصْفَ مِنَّا وَأَنْتُمْ بَنُو عَمَّنَا، لَا بَلَّ هَامِكُمُ الْقَطْرُ ؟

وكذلك قول متمم بن نويرة^(٢):

أَثَرْتُ هَدْمًا بَالِيًا وَسَوِيَّةً وَجِئْتُ بِهَا تَعْدُو بَرِيدًا مُقَرَّعًا ؟

ومن الواضح أن الاستفهام في البيتين السابقين استفهام إنكاري، وهو كثير في الشعر الجاهلي عموماً، ويبدو أن الحالة النفسية للشاعر تؤثر في استخدام هذا النوع من الاستفهام؛ إذ يميل للسامع أن الشاعر مدفوع بسورة الغضب والحنق، ولذلك فهو يلجأ إلى الاستفهام الإنكاري للتعبير عن درجة ذلك الغضب والحنق. ومن الاستفهام ما يأتي بغرض تأكيد معنى يريده الشاعر، فيأتي بالاستفهام سعياً لتقرير حقيقة معينة، وذلك كقول عبد المطلب^(٣):

وَمَاذَا الَّذِي يُجْدِي عَلَى الْمَرْءِ خَفْضُهُ وَنِعْمَتُهُ يَوْمًا إِذَا عَرْشُهُ انْهَدَمَ ؟

وكذلك قول عوف بن الأحوص^(٤):

أَلَمْ تَرَ أَنَا نَوْرُ قَوْمٍ وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ فِي الظُّلْمَاءِ لِلنَّاسِ نُورُهَا ؟

(١) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١٠٨.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٢٧٠.

(٣) أحمد الجبوري، شعر قریش في الجاهلية، المقطوعة رقم (٤٣).

(٤) البصري، الحماسة البصرية ١٣٠٨/٣.

وجريا على عادة العرب في الكلام، عمد الشعراء الحكام إلى استخدام أسلوب الحذف، وذلك من أجل اختصار العبارة، وحذف فضول الألفاظ التي يدل عليها سياق التركيب، لما في بقائها من ثقل وترهل^(١). ويحذف الشاعر ما يمكن حذفه معتمدا على دور السياق في الإفهام والتوصيل، وبهذا يوقظ ذكاء القارئ لكي يفهم بالقرينة والسياق ما لم يُشر إليه اللفظ^(٢)، ومن ذلك قول بشامة بن الغدير^(٣):

فبادرَ تَهاها بِمُسْتَعِجِلٍ مِنْ الدَّمْعِ يَنْضَحُ خِذَا أَسِيلًا

فقد حذف (عينها) ولم يجر لهما ذكرا، تاركا للمستمع فهم مراده.

وكذلك قول سويد بن الصامت في ذم اليهود^(٤):

حَوْلٌ وَرُمُصٌ لِنَامٍ فِي مَجَالِسِهِمْ مِنْهُمْ خَنَازِيرُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالْقِرْدُ

والمراد قوله: هم حول ورمص... فحذف الضمير اعتمادا على السياق.

وقول أبي طالب^(٥):

كَذَبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ نَبِيَّ مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعُنْ دُونَهُ وَنُناضِلْ

فحذف (لا) من جواب القسم وهو يريد أنه لا يترك محمدا (ﷺ) ولا يسلمه ولا يدعه يقهر ويغلب دون أن ينصره ويناضل دونه.

ومن الأساليب التي نجدها ماثلة في شعر حكام العرب أسلوب التقديم والتأخير، ومن دواعي هذا الأسلوب مراعاة القافية، أو لدوافع معنوية، كتقديم المفعول به لأنه أعظم شأنًا من الفاعل، وقد يتقدم الاسم أو الفعل في الجملة لتحقيق التجانس اللفظي بين شطري البيت والمزاوجة بينهما^(٦). ومن شواهد هذا الأسلوب لدى الشعراء الحكام قول عيينة بن حصن^(٧):

وَأَنْتَ لَنَا - وَاللَّهِ ذِي الْعَرْشِ - قُدُوءٌ إِذَا صَدَّانَا عَنْ شَرْبِهَا الْمُتْكَفُّ

(١) محمود الحلولي، بناء القصيدة لدى شعراء الحجاز، ص ١٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٠.

(٣) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٢.

(٤) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص ٣٤٦.

(٥) ديوان أبي طالب، ص ٧٤.

(٦) محمود الحلولي، بناء القصيدة لدى شعراء الحجاز، ص ١١١.

(٧) الأصفهاني، الأغاني ٢١٢/١٥.

وقوله^(١):

يَبْيِضُ مِنْهَا إِذَا مَا تُذَكِّرُ الشَّعْرُ

حُسْنُ الْبَلَاءِ وَأَيَّامًا لَنَا سَلَفَتْ

وكذلك قول بشامة بن الغدير^(٢):

عَنَّا وَعَنْكُمْ وَعَنْ مَنْ نَلْقَى بِالرَّقْمِ

هَلَا سَأَلْتَ وَقَوْلُ الْحَقِّ أَصْدَقُهُ

وقول أكتم بن صيفي^(٣):

وَيَسْرَحُهَا تُخْذِي إِلَى الْحَيِّ أَسْلَمُ

سَاحِبِسُهَا حَتَّى يَبِينَ سَبِيلُهَا

وقول عوف بن الأحوص^(٤):

فَتَعْلَمَهُ وَأَجْهَلَهُ وَلَاؤُ

فَهَلْ لَكَ فِي بَنِي حُجْرٍ بَنٍ عَمْرُو

والأمثلة على التقديم والتأخير في شعر حكام العرب كثيرة لا يتسع مقام البحث لإيرادها كلها.

هـ: المحسنات البديعية:

يلمح المدارس للشعر الجاهلي عامة، ولشعر حكام العرب خاصة قلة استخدام الشعراء لألوان المحسنات البديعية من جناس وطباق وترديد وتصدير ومقابلة وتقسيم وتفریع، وغير ذلك من فنون البديع التي ازدهرت ونمت في العصور اللاحقة، وخصوصاً في العصر العباسي. غير أن هذه الفنون لم تستخدم في الشعر الجاهلي، ولم يلجأ الشعراء إليها إلا لمأماً، ولم يرد في أشعارهم منها إلا ما جاء عفو الخاطر، فلم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كانت تأتي ضمن السياق العام للقصيدة، مما يعطيها سمات العفوية والتلقائية البعيدة عن التكلف والتصنع.

إن من يتتبع شعر حكام العرب، يجد فيه أمثلة من فنون البديع المختلفة، ولكنها - كما أسلفت - وردت في شعرهم دون تعمد أو قصد، وسوف أعرض لبعض هذه الأمثلة، فمن الجنس قول عوف بن الأحوص^(٥):

ثَرَاهَا مِنَ الْمَوْلَى فَلَا اسْتِثِيرُهَا

وَإِنِّي لَثَرَاكَ الضَّغِينَةَ قَدْ بَدَا

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ٧٢٢/٢.

(٢) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٠.

(٣) عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم، ص ٤٧٨.

(٤) المفضل الضبي، المفضليات، ص ١٧٥.

(٥) المفضل الضبي، المفضليات، ص ٧٧.

فقد جانس بين (تراها) و (أستثيرها).

ومنه كذلك قول الأقرع بن حابس^(١):

إذا حال ذو الودّ عنّ حاله

أصدّ صدودَ أمرئٍ مُجمل

فجانس بين (حال) و (حاله).

ومنه قول الحصين بن الحمام^(٢):

مقادير تنزل أنزالها

أمورٌ من الله فوق السماء

فجانس بين (تنزل) و (أنزال).

ومن الجناس أيضاً قول ضمرة بن ضمرة^(٣):

مصيدٌ لأطرافِ العوالي وصائدٌ

عليها الكمأة والحديدُ فمئهمُ

فجانس بين (مصيد) و (صائد).

ومن الجناس قول سويد بن الصامت^(٤):

وبالغيبِ مأثورٌ على ثغرةِ النحر

مقالتهُ كالشهدِ ما كان شاهداً

فجانس بين (الشهد) و (شاهد).

ومنه كذلك قول سنان بن أبي حارثة^(٥):

ولستُ مهتدياً إلا معي هادٍ

إنْ أَمْسَ لا أَسْتَكِيْ نُصْبِيْ إِلَى أَحَدٍ

فجانس بين (مهتد) و (هاد).

ومن الملاحظ أن الجناس في الأمثلة السابقة قد جاء من نوع (الجناس الناقص)، وأنه

ورد في شعرهم عفو الخاطر، أما الجناس التام فلم أعرثر على أي شاهد عليه في شعرهم، مما

يؤكد ما ذهبنا إليه من عدم قصدهم إلى استخدام الجناس في شعرهم.

(١) عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم، ص ٣٤٥.

(٢) مهدي عبيد جاسم، شعر الحصين بن الحمام، ص ١١٠.

(٣) هاشم شلاش، شعر ضمرة، ص ١١٦.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢.

(٥) سلامة السويدي، شعر قبيلة ذبيان، ص ٢٦٥.

وبعكس الجنس، يكثر الطباق في شعر حكام العرب، وأمثله أكثر من أن يحاط بها،
فمن ذلك قول بشامة بن الغدير^(١):

أَلَا ثَرَيْنَ وَقَدْ قَطَعْتَنِي قِطْعًا
مَازَا مِنْ الْفَوْتِ بَيْنَ الْبُخْلِ وَالْجُودِ
فطابق بين (البخل) و (الجود).

ومن المطابقة قول أنس بن مدرك^(٢):
تَبَدَّلَ مَرَّ الْعَيْشِ مِنْ بَعْدِ حُلُوهِ
وَأَوْشَكَ أَنْ يَبْلَى وَأَنْ يَتَسَعَّسَعَا
فطابق بين (مر) و (حلو).

ومنها كذلك قول حاجب بن زرارة^(٣):
أَغْرَكُمُ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيْمَةٍ
رَفِيقٌ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ
فطابق بين (رفيق) و (أخرق).

وقول سويد بن الصامت^(٤):
قَرِيبٌ بَعِيدٌ خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ
إِذَا طَلَبُوا مِنِّي الْغَرَامَةَ أَغْرَمُ
فطابق بين (قريب) و (بعيد) وبين (خير) و (شر).

وقول عيينة بن حصن^(٥):
فَإِنْ يَكُ بَدَأَ هَذَا الْأَمْرَ غَثًّا
فَأَخْرَهُ بَنِي بَدْرٍ سَمِينُ
فطابق بين (بدء) و (آخر) وبين (غث) و (سمين).

وقول الزبير بن عبد المطلب^(٦):
لَوْ أَنَّ الْأَمْرَ مُقْبِلُهُ جَلِيٌّ
كَمَدِيرُهُ لَمَّا عَيَّ الْبُصَيْرُ
فطابق بين (مقبله) و (مدبره).

(١) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢٢٦.

(٢) ابن حجر، الإصابة ٢٧٩/١.

(٣) الأندلسي، نشوة الطرب ٤٥١/١.

(٤) البحتري، ديوان الحماسة، ص ١٣٥.

(٥) الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٥٣٢.

(٦) البصري، الحماسة البصرية ٧٩١/٢.

ومن ألوان البديع التي ذكرها العلماء واستحسنوها ما يعرف بالتصدير، وقد عرفه ابن رشيق فقال^(١): "هو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره؛ فيدل بعضه على بعض، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك، وتقتضيها الصنعة، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة، ويكسوه رونقا وديباجة، ويزيده مائية وطلاوة". ونجد في شعر حكام العرب بعض الأمثلة على التصدير؛ فمن ذلك قول ذي الإصبع العدوانى^(٢):

وَصِلَ الْكِرَامَ وَكُنْ لِمَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَصُولَا

فقد رد آخر كلمة في البيت إلى أول كلمة منه (صل) و (وصول).

ومن شواهده أيضا قول أمية بن أبي الصلت^(٣):

إِذَا أَتَيْتُكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

فقد رد آخر كلمة في البيت إلى بعض ما فيه (أتيت) و (الثناء).

ومنه أيضا قول عبد المطلب^(٤):

حَتَّى ارْتَحَلْتُ إِلَى قَوْمِي وَأَزْعَجَنِي عَنْ ذَاكَ مَطْلِبٌ عَمِّي بِتَرْحَالِ

وهذا البيت شبيهه بسابقه؛ إذ رد آخره على بعض ما فيه (ارتحلت) و (ترحال).

ومنه قول الزبير بن عبد المطلب^(٥):

وَنُصَّ الْحَدِيثَ إِلَى أَهْلِهِ فَابْنَ الْأَمَانَةِ فِي نَصِّهِ

فقد رد آخر البيت على أول كلمة منه (نص) و (نصه).

(١) ابن رشيق، العمدة ٨/٢.

(٢) ديوان ذي الإصبع، ص ٧٣.

(٣) ديوان أمية، ص ١٩.

(٤) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٣/١.

(٥) العسكري، جمهرة الأمثال ٩٨/١.

الموسيقى: ارتبط الشعر الجاهلي بالغناء منذ نشأته الأولى؛ فقد روي أن المهلهل - وهو من أقدم شعراء الجاهلية - تغنى في قصيدته^(١):

طفلة ما أبنة المَحَلَّل بيضا ع لغوب لذيدة في العناق

ومما ينسب إلى حسان بن ثابت قوله^(٢):

تغن بالشعر إما كنت قائلة إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وقد اقترن الغناء بالأدوات الموسيقية كالزهر والدف والصنج والبربط^(٣)، مما يقودنا إلى تصور وجود (حلف) يجمع الغناء والشعر والموسيقى لتشكيل مثلث عنوانه الطرب والنشوة. وإذا كان الشعر هو العنصر الأول المكون لأي أغنية، فإن الموسيقى هي العنصر الثاني المهم الذي لا يمكن أن تقوم الأغنية بعيدا عنه، ولهذا فإن الموسيقى عنصر مهم ولازم في الشعر العربي، وهي الأساس الذي يستخدمه الشاعر في بناء قصيدته، لأن لها سلطانا قويا في النفس، لما تحدثه من أثر عميق فيها. وقد نظر النقاد العرب إليها بوصفها تمثل عنصرين من عناصر الشعر الأربعة، وهي: اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية^(٤). أما المعاصرون فإنهم لم يكونوا أقل من أسلافهم إدراكا لأهمية الموسيقى في الشعر؛ إذ يقول إبراهيم أنيس^(٥): "إن الشعر - في حقيقته - ليس إلا كلاما موسيقيا، تتفعل لموسيقاه النفوس، وتتأثر لها القلوب والأحاسيس". ويقول رجاء عيد إن^(٦) "أهمية الموسيقى في الشعر أنهما يتصلان ببعضهما اتصال الروح بالجسد".

وانطلاقا من هذا الإدراك لأهمية الموسيقى، فسوف نقوم هذه الدراسة بالبحث في موسيقى الشعر لدى حكام العرب، مستندة إلى التصور المتعارف لدى أغلب المهتمين في تقسيم الموسيقى الشعرية إلى خارجية تعنى بالوزن والقافية، وداخلية تعنى بتناسق الحروف والكلمات وترتيبها، وتآلف الكلمات مع غيرها ومع المعاني التي تدل عليها هذه الكلمات.

(١) الأصفهاني، الأغاني ٥/٥٦.

(٢) ذكر شوقي ضيف أن هذا البيت لحسان بن ثابت (انظر كتابه: العصر الجاهلي ص ١٩١) واستند في عزوه لحسان إلى كتاب العمدة لابن رشيق. أقول: لقد عدت إلى (العمدة) فوجدت البيت من غير نسبة، وفتشت ديوان حسان، وبحثت في (الأغاني) فلم أعث على هذا البيت في شعره.

(٣) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ١٩١.

(٤) محمود الحلولي، بناء القصيدة لدى شعراء الحجاز، ص ١٢٠.

(٥) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ط ٦، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٦٨.

(٦) رجاء عيد، التجديد الموسيقي في الشعر العربي: دراسة تأصيلية تطبيقية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت، ص ١٢.

لقد استقر رأي النقاد على أن للموسيقى الشعرية قسمين: أولهما خارجي يحكمه العروض متمثلاً في الوزن والقافية، وثانيهما داخلي تحكمه قيم صوتية باطنية أرحب من الوزن والقافية^(١). وإذا كانت الموسيقى الخارجية تخضع لمعايير وقواعد وضعها العلماء ضمن علمي العروض والقوافي، فإن الموسيقى الداخلية تمتاز بخفائها النابع من "اختيار الشاعر لكلماته، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"^(٢).

أ- الموسيقى الخارجية: الأوزان:

إن أول ما يميز الشعر عن النثر هو الوزن، فهو الخيط الذي ينظم أجزاء الكلام ويمنع تشتتها وتبعثرها، ويحفظها ضمن نسق محدد، ولذا فقد احتل الوزن أهميته لكونه عنصراً أساسياً في العملية الشعرية بعامّة، بل إن ابن رشيق عدّه أهم تلك العناصر حين وصفه بأنه^(٣) "أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية"، ومن هنا فإن الشعر لا يمكن أن يقوم من غير وزن.

وتتشكل الموسيقى الناشئة عن الوزن من خلال تتابع التفعيلات بشكل متناسق ومنسجم في فترة زمنية واحدة، فتتحقق هذه الموسيقى في مظاهر الإيقاع، فيتأدى إلينا الكلام في صورة منسقة، كما تتسق أجزاء البناء^(٤).

وقد حظيت مسألة اختيار الوزن الشعري (البحر) من قبل الشاعر، وارتباط ذلك بالموضوع الذي تطرقه القصيدة باهتمام النقاد والباحثين قديماً وحديثاً؛ إذ يرى بعضهم وجود صلة بين الوزن والموضوع، مستنداً إلى وجود "طابع نفسي لكل وزن أو مجموعة من الأوزان، فبعض الأوزان يتفق وحالة الحزن، وبعضها يتفق وحالة البهجة، وما إلى ذلك من أحوال النفس"^(٥)، في حين ذهب آخرون إلى أن العاطفة هي التي تتحكم في اختيار الشاعر للوزن^(٦).

(١) انظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر.

(٢) شوقي ضيف، في النقد الأدبي، ط٥، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٩٧.

(٣) ابن رشيق، العمدة ١/١٢١.

(٤) انظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط٤، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٥٢.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٦) انظر: يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، ص.ص ٢١٠-٢٢٠، ففيه عرض واف لهذه المسألة، ومناقشة لأراء النقاد بشأنها.

والذي أميل إليه هو أن الشاعر حين يريد أن يقول قصيدة فإنه لا يعين البحر الذي ينبغي إنشاء القصيدة عليه ولا القافية، وإنما يترك أفاعيل نفسه تحدد ذلك المسار، فيخرج شعره على الوزن الذي يتوافق وتلك الأفاعيل.

لقد عني حكام العرب بالنظم على معظم البحور الشعرية، فلم يقصروا فنهم على بحر واحد أو أكثر، والجدول التالي يبين استخدام كل شاعر منهم للبحور الشعرية:

جدول أ-١
البحور الشعرية المستخدمة من قبل الشعراء الحكماء

اسم الشاعر البحر	أمية بن أبي الصلت		بشامة بن الغدير		الحارث بن عباد		الحصين بن الحمام		ذو الإصبع العدواني		الزبير بن عبدالمطلب		سنان بن أبي حارثة		ضمرة بن هيمرة		أبو طائب بن عبدالمطلب	
	عدد مرات الاستعمال*	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
الطويل	٣	٢٨	٣	١٠	١٠	٨٧	-	-	٢٦	٨٥	١	٢	٣	٤	٦	٤١	١٤	٢٦٩
المديد	-	-	١	٥	-	-	-	-	١	٣	-	-	-	-	-	-	-	-
البسيط	-	-	٣	١٠	١	٥	-	-	٣	٢٣	-	-	-	-	-	-	٢	١٤
الوافر	١	٢٠	٣	١٤	-	-	١	٢٥	١١	٣٤	٧	٣٠	٢	٨	٣	٧	٢	٢٣
الكامل	١	١	٨	٢٣	٢	٤٩	١	١٢	-	-	-	-	١	١١	٣	١٧	٢	١٨
الهزج	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
الرجز	-	-	٣	٣	-	-	-	-	٤	١٩	٣	١٤	١	٢	١	٣	١	١٦
الرمل	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
السريع	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	١	-	-	١	٤	-	-
المنسرح	-	-	٢	٥	-	-	-	-	١	١	-	-	١	٢	-	-	١	٣
الخفيف	١٢	١٠٣	-	-	-	٤	-	-	١	٢	-	-	-	-	-	-	٣	٢٠
المتقارب	-	-	١	١	-	-	-	-	٣	٩	-	-	-	-	-	-	٥	٥٩
مجزوء. منهوك. مشطور، مخلع	٣	٥٠	١	١٧	٢	٩	-	-	٢	٣٢	٢	١٠	-	-	-	-	-	-
المجموع لكل شاعر	٩٣	٧٧١	١١	٩٦	١٦	٣٥٩	١٧	١٣٢	٢٣	٢٠٨	١٥	٦٢	٨	٢٧	١٤	٧٢	٣٠	٤٢٢
النسبة لكل شاعر%	٢٥,٠	٢٥,٨	٣,٠	٣,٢	٤,٣	١٢,٠	٤,٦	٤,٤	٦,٢	٧,٠	٤,٠	٢,٠	٢,١	٠,٩	٣,٧	٢,٤	٨,٠	١٤,١

* يقصد بعدد مرات الاستعمال عدد القصائد أو المقطوعات.

٢-١

تابع.. البحور الشعرية المستخدمة من قبل الشعراء الحكام

البحر	اسم الشاعر	عبد المطلب بن هاشم		عوف بن الأحوص		غيلان بن سمة		متمم بن نويرة		معاوية بن مائك		آخرون		مجموع الاستعمالات	النسبة المئوية	مجموع الأبيات	النسبة المئوية
		عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات				
الطويل		٣	١٣	٣	٢٨	٣	١٠	١٠	٨٧	-	-	٢٦	٨٥	١٠٥	٢٨,٢	٨٩٢	٢٩,٨
المديد		-	-	-	-	١	٥	-	-	-	-	١	٣	٠,٢	٠٠,٥	٠٠٨	٠٠,٣
البسيط		٦	٣٠	-	-	٣	١٠	١	٥	-	-	٣	٢٣	٤٦	١٢,٤	٣٠٩	١٠,٣
الوافر		٢	٦	١	٢٠	٣	١٤	-	-	١	٢٥	١١	٣٤	٥٢	١٤,٠	٤٤١	١٤,٧
الكامل		-	-	١	١	٨	٢٣	٢	٤٩	١	١٢	-	-	٣٧	١٠,٠	٢٣٧	٧,٩
الهزج		-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٠,٢	٠,٣١	٠٠,٥	١,٠
الرجز		٣٥	٣١٢	-	-	٣	٣	-	-	-	-	٤	١٩	٤٩	١٣,٢	٣٦٨	١٢,٣
الرمل		١	١١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٠,٥	١,٣	٠,٤٢	١,٤
السريع		١	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٠,٥	١,٣	٠,١٢	٠,٤
المنسرح		-	-	-	-	٢	٥	-	-	-	-	١	١	١٢	٣,٢	٠,٧٧	٢,٦
الخفيف		-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	١	٢١	٥,٦	٢٩٤	٩,٨
المتقارب		-	-	-	-	١	١	-	-	-	-	٣	٩	٢٣	٦,٢	١٥١	٥,٠
مجزوء، مسننوهك، مشطور، مخلع		١	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	٢	٧	١٣	٣,٥	١٢٨	٤,٣
المجموع لكل شاعر		٤٩	٣٧٨	٥	٤٩	٢٤	٧١	١٣	١٤١	٢	٣٧	٥٢	١٩١	٣٧٢	%٩٩,٩	٢٩٩٠	%٩٩,٩
النسبة لكل شاعر%		١٣,٢	١٢,٦	١,٣	١,٦	٦,٥	١,٩	٣,٥	٤,٧	٠,٥	١,٢	٤,٠	٢,٠	المجموع لكافة الشعراء			

إن المتمعن في (الإحصائية) السابقة يجد جملة من الملاحظات أهمها:

أ- أن الشعراء الحكام قد نظموا أشعارهم على معظم البحور الشعرية المعروفة، وقد استخدموا منها اثني عشر بحراً من أصل الستة عشر بحراً التي استقر عليها اتفاق علماء العروض.

ب- أن البحر الطويل كان حاضراً لدى جميع الشعراء الحكام - ما عدا معاوية بن مالك - وأنه أكثر البحور استخداماً، كما أنه استأثر بأكثر عدد من الأبيات.

ج- حظي البحر الطويل بالحصة الأكبر من حيث عدد مرات الاستخدام (١٠٥ من أصل ٣٧٢) بنسبة مئوية بلغت ٢٨,٢%، وكذلك من حيث عدد الأبيات (٨٩٢ من أصل ٢٩٩٠) بنسبة مئوية بلغت ٢٩,٨%. وهذه النسبة تتفق مع النسبة العامة للشعر العربي المنظوم على هذا الوزن، وهي حوالي الثلث^(١)، ويمتاز هذا البحر بأنه يتسع لكثير من المعاني، وكان له في عصور الفحولة والقوة القدح المعلى بين البحور في كثرة النظم فيه^(٢).

د- أكثر الشعراء استخداماً للبحر الطويل هو أمية بن أبي الصلت؛ إذ استخدمه ست عشرة مرة، أما من حيث عدد الأبيات المنظومة على هذا البحر فإن أبا طالب يحتل المرتبة الأولى فقد نظم عليه مائتين وتسعة وستين بيتاً.

هـ- يعد أمية بن أبي الصلت أكثر من استخدم البحر البسيط (من حيث عدد مرات الاستخدام) من بين الشعراء الحكام، وكذلك الأمر بالنسبة للوافر والكامل والرمل والمنسرح والخفيف والمتقارب.

و- أكثر الشعراء نظماً على البحر البسيط (من حيث عدد الأبيات) هو أمية بن أبي الصلت، وكذلك فإنه أكثر الشعراء نظماً على الوافر والرمل.

(١) علي الجندي، الشعراء وإنشاء الشعر، ط١، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ز- جاء البحر الوافر في المرتبة الثانية من حيث عدد مرات الاستخدام (٥٢ مرة بنسبة ١٤%) وعدد الأبيات (٤٤١ بنسبة ١٤,٧) تلاه الرجز، فالبيسط.

ح- شكلت أربعة من الأوزان (الطويل والوافر والرجز والبسيط) النسبة الكبرى من بين الأوزان المستخدمة سواء من حيث الاستخدام أم عدد الأبيات، إذ كانت نسبة استخدامها ٦٧,٨% أما من حيث عدد أبياتها فكانت النسبة ٦٧,١%.

ط- استأثر عبد المطلب بن هاشم بالنصيب الأوفر في النظم على بحر الرجز من حيث عدد مرات الاستخدام وعدد الأبيات، فقد استخدمه خمسا وثلاثين مرة من أصل تسع وأربعين مرة لجميع الحكام، أي بنسبة ٧١,٤%. أما عدد أبياته على هذا البحر فكان ثلاثمائة واثنى عشر بيتاً بنسبة مئوية قدرها ٨٤,٨% من إجمالي عدد الأبيات لجميع الحكام الذي بلغ ثلاثمائة وثمانية وستين بيتاً.

ي- اعتمد الشعراء الحكام البحور الشعرية التامة، ولم يستخدموا المجزوء والمنهوك والمشطور... إلخ إلا في أضيق الحدود، فكان مجموع استخدامهم لها لا يتجاوز الثلاث عشرة مرة، في حين بلغ عدد الأبيات المنظومة على تلك المجزوءات مائة وثمانية وعشرين بيتاً، وهي نسبة ضئيلة للغاية إذا قيسَت بالنسبة العامة لمجموع شعر الحكام.

ك- لم يعن الشعراء الحكام بالنظم على البحور المهجورة، ولذا فليس هناك أي بيت على (المضارع، والمقتضب، والمجث، والمتدارك). كما أن اهتمامهم بالهزج والمديد كان قليلاً؛ إذ لم يستخدم أي منهما سوى مرتين فقط. ولعل السبب في هجر الشعراء لهذه البحور عدم شيوعها في أشعار المتقدمين عموماً، ولذلك فإن المهتم لا يكاد يجد مثل هذه الأوزان في أشعارهم. ويقول إبراهيم أنيس عند حديثه عن المضارع والمقتضب: "إنك لو بحثت من أشعار عربية عن أمثلة لهذين الوزنين لا تكاد تظفر بأمثلة صحيحة النسبة"^(١). أما حازم القرطاجي فكان قد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه إبراهيم أنيس، وذلك عندما حاول أن يقدم تعليلاً (فنياً) لمسألة ندرة الشعر العربي على هذه الأوزان، فقال: "أما المجث والمقتضب فالحالوة فيهما قليلة، على طيش فيهما، أما المضارع

(١) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ص ١٩١.

ففيه كل قبيحة، وينبغي ألا يعد من أوزان العرب، وإنما وضع قياساً، وهو قياس فاسد لأنه من الوضع المتنافر"^(١).

ل- لم ينظم على بحر الهزج سوى شاعر واحد هو ذو الإصبع العدواني، فقد استخدمه مرتين، وكان عدد أبياته على هذا البحر واحداً وثلاثين بيتاً. أما البحر المديد فلم يستخدمه الشعراء إلا مرتين، ونظموا عليه ثمانية أبيات فقط.

(١) حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٦٨.

القافية: تمثل القافية ركنا أساسيا ومهما في الشعر العربي القديم لا يمكن أن يقوم بيت الشعر دونها، وتأتي أهمية القافية من كونها ضابط إيقاع القصيدة أو ما يسميه العارفون في شؤون الموسيقى (باللزمة) التي تتكرر بين أجزاء القطعة الموسيقية لربطها وضبط إيقاعها وحركاتها.

وقد اهتم العلماء والنقاد بالقافية اهتمامهم بعلم العروض، فلم يخل كتاب من كتبهم التي ألفوها في العروض من الحديث عن القافية، بل إن بعضهم وضع لها كتابا منفصلا^(١). كما اقترنت عناية المعاصرين بعلم العروض والتأليف فيه بعنايتهم بالقافية؛ إذ قلما نعثر على كتاب في العروض دون أن يشتمل على الحديث عن القافية^(٢).

وعن تعريف القافية، فقد اختلفت آراء القدماء، فمنهم من رأى أنها من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، وبهذا فقد تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة ومرة كلمتين^(٣) "وهذا هو رأي الخليل. أما الأخفش فإنه ذهب إلى أن القافية آخر كلمة في البيت، وإنما قيل لها قافية لأنها تقفو الكلام، وهي ليست حرفا عنده بدليل قولهم: قافية بالتأنيث، فهي مؤنثة والحرف مذكر^(٤). أما الرأي الأكثر شيوعا وقبولا وشهرة بين المهمتين والدارسين فهو رأي ابن عبد ربه حيث يقول^(٥): "القافية حرف الروي الذي يبنى عليه الشعر، ولا بد من تكريره في كل بيت" وتأكيدا لصحة هذا الرأي قلنا: همزية البوصيري، ولامية الشنفرى وسينية شوقي، وغير ذلك من القصائد المنسوبة إلى قوافيها. وهذا ما أراه وأعتمد في تناولي لمبحث القافية.

وتتبع أهمية القافية - كما أسلفت - من كونها عنصرا من عناصر التشكيل الموسيقي، وتشكل نغما موسيقيا مهما في القصيدة، ويرى إبراهيم أنيس أن تكرارها يكون جزءا هاما من

(١) وضع الأخفش الأوسط (كتاب القوافي)، وقد حققه عزة حمزة ونشر في دمشق عام ١٩٧٠. كما وضع الخطيب التبريزي (الكافي في العروض والقوافي) وحققه الحساني حسن عبد الله، ونشر في القاهرة عام ١٩٦٩. وألف الصاحب بن عباد (الإقناع في العروض وتخريج القوافي) وحققه محمد حسن ال ياسين، ونشر في بغداد عام ١٩٦٠. وهناك كتب أخرى يضيق المجال عن ذكرها، وإنما ذكرنا ما سلف على سبيل المثال.

(٢) من هذه الكتب - مثلا - : محمد عبد المنعم خفاجي، فن الشعر: عروض الشعر العربي وقوافيه. وعبد العزيز عتيق، علم العروض والقافية. وعمر الأسعد، معالم العروض والقافية. وصفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية وغير ذلك كثير مما يصعب حصره.

(٣) انظر: ابن رشيق، العمدة، ١/١٣٥.

(٤) الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥هـ)، كتاب القوافي، ط ١، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٧٠، ص ١-٢.

(٥) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٦/٢٩٣.

الموسيقى الشعرية، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية، يتوقع السامع تردها ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الأذان في فترات زمنية منتظمة^(١). ويضع ناقد آخر يده على مكنى آخر من مكنى أهمية القافية ومكانتها في الشعر، وذلك هو المتأني من كونها "قمة الارتفاع الصوتي في البيت الشعري؛ فهي لا تمثل خاتمة البيت كما يبدو ذلك في الظاهر، وإنما تمثل همزة الوصل بين البيتين"^(٢).

لقد اهتم الشعراء الحكماء بقوافي أشعارهم، وعنوا باختيارها عناية كبيرة، والجدول التالي يبين استخدام كل منهم للقافية، وعدد الأبيات التي نظمها على كل حرف من حروف المعجم، كما يبين مجموع استخدامات الشعراء لكل قافية وعدد أبياتها والنسب المئوية التي تعطي مؤشرات مهمة يستدل بها دارس الشعر على كثير من الأمور الفنية والنفسية لدى الشاعر:

(١) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ص ١٩١.

(٢) محمد الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨١، ص ٤٦.

جدول ب-١
القوافي المستخدمة من قبل الشعراء الحكام

اسم الشاعر	أمية بن أبي ائصنت	بشامة بن الغدير	الحارث بن عباد	الحصين بن الحمام	ذو الإصبع الحدادي	الزبير بن عبد المطلب	سنان بن أبي حارثة	ضمرة بن ضمرة	أبو طالب بن عبد المطلب	القافية	
عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات
١	١٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٣	٢٤	١	٢	١	١٢	٢	٢	١	١٠	٣	٤٤
١	١	١	٢	-	-	-	-	-	١	٦	-
١	٣١	-	-	-	٨	١	-	-	١	-	-
١١	١٢٣	١	٣	٢	١٤	-	-	-	٨	٣	٤٧
١٥	١٠٤	٢	١٦	٥	٥٩	٢	١٣	٣	١٧	٣	٢٧
-	-	-	-	١	٢٤	-	-	١١	١	-	-
١	٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
-	-	-	-	-	-	١	٥	-	-	-	-
-	-	-	-	-	-	٢٨	٢	-	-	-	-
١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
٤	١٣	١	١٧	-	-	٤	٤٩	-	١	٤	-
١	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
-	-	-	-	-	-	١	١	-	-	-	١٦
٤	٢٥	-	-	-	-	١	١	١	١	١	١٨
٢	٥	-	-	-	-	١	٥	-	-	-	-
٢١	١٠٠	٢	٤٤	٢	١٥٦	٣	١٧	٢	٣٢	٢	١٣٨

ب-٢

تابع.. القوافي المستخدمة من قبل الشعراء الحكام

اسم الشاعر / القافية	عبد المطلب بن هاشم		عوف بن الأحوص		غيلان بن سمة		متم بن نويرة		معاوية بن مالك		آخرون		مجموع الاستعمالات	مجموع البيتات
	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات	عدد مرات الاستعمال	عدد البيتات		
ا	-	-	١	٢٠	-	-	-	-	-	-	-	-	٢	٣٠
ب	٢	٢٨	-	-	١	٥	٣	٧	١	٢٥	٦	٢١	٢٩	٢٠٣
ت	٢	١٢	-	-	١	٢	-	-	-	-	١	٢	١٠	٣٠
ح	٢	٢٤	-	-	-	-	-	-	-	-	١	١	٦	٦٥
د	١٢	٩٨	-	-	١	١	١	٢	١	١٢	٦	١٣	٤٦	٣٩٨
ر	٨	٦٤	٢	١٠	-	-	١	٤	-	-	٥	٣٢	٤٩	٣٦٥
س	١	٣	-	-	٢	٣	-	-	-	-	١	٧	٨	٥١
ش	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	٣
ص	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	٥
ض	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٢	٢٨
ظ	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	١
ع	٢	١١٢	-	-	٢	٨	٣	١١٢	-	-	٤	٢٢	٢٢	١٣٨

تابع ب-٢.. القوافي المستخدمة من قبل الشعراء الحكام

اسم الشاعر / القافية	عبد المظنب بن هاشم		عوف بن الأصوص		غيلان بن سئمة		متم بن نويرة		معاوية بن مالك		آخرون		مجموع الاستعمالات	مجموع الأبيات
	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات	عدد مرات الاستعمال	عدد الأبيات		
غ	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	١	١
ف	-	-	-	-	١	١	-	-	-	-	٦	١	٤	٢٤
ق	١	٣	-	-	٣	٦	١	٤	-	-	٦	٢	١٦	٦١
ك	٣	١٤	-	-	-	-	٢	٥	-	-	-	-	١٠	٣٢
ل	٥	٣٦	-	-	٣	٨	١	٢	-	-	١٧	٤	٤٧	٥٤٢
م	٨	٦٥	-	-	٣	١٠	١	٥	-	-	٢٩	١١	٧٠	٤٩٤
ن	٣	٢٠	١	١	٧	٢٧	-	-	-	-	٢١	٧	٤١	٢٩٦
هـ	-	-	١٨	١	-	-	-	-	-	-	٨	٣	٧	٤٨
ي	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	٤	١	٥	٧٥
المجموع	٤٩	٣٧٨	٥	٤٩	٢٤	٧١	٨	١٤١	٢	٣٧	١٩١	٥٣	٣٧٨	٢٩٩٠

يتبين من الجدول السابق ما يلي:

أ- استخدم الشعراء الحكام واحدا وعشرين حرفا من حروف الهجاء، مما يعني اهتمامهم بالنظم على معظم حروف المعجم العربي.

ب- أكثر الشعراء الحكام من تسخير القوافي الذلل (الذال والراء واللام والميم والنون)، فقد جاء أكثر من ثلثي عدد الأبيات على هذه الحروف بنسبة ٧٠% من إجمالي عدد الأبيات.

ج- ابتعد الشعراء الحكام عن النظم على الحروف التي تشكل القوافي النادرة كالثاء والذال والخاء، فانعدمت هذه القوافي في أشعارهم، كما خلت أشعارهم من القصائد التي تنتهي بقواف نافرة كالزاي والواو والطاء.

د- احتل حرف (الميم) مكان الصدارة بين الحروف من حيث عدد مرات الاستخدام من قبل الشعراء الحكام؛ إذ استخدموه سبعين مرة بنسبة مئوية بلغت ١٨,٥% من مجموع عدد مرات الاستخدام الكلي البالغ ثلاثمائة وثمان وسبعين مرة، تلاه حرف (الراء) ثم اللام فالذال.

هـ- احتل حرف (اللام) صدارة الترتيب بين الحروف من حيث عدد الأبيات؛ إذ نظم على هذه القافية خمسمائة واثنان وأربعون بيتاً، بنسبة مئوية بلغت ١٨,١% من مجموع عدد الأبيات الكلي، تلاه حرف الميم، ثم الدال فالراء.

و- انفرد أمية بن أبي الصلت بالنظم على بعض القوافي النادرة (الشين والطاء والغين)، غير أن استخدامه لها كان محدوداً جداً؛ فلم يزد على ثلاثة أبيات على الشين، وعلى

بيت واحد لكل من الطاء والغين. كما انفرد الزبير بن عبد المطلب بالنظم على حرف (الصاد) في قطعة واحدة بلغ عدد أبياتها خمسة أبيات. وانفرد ذو الإصبع بالنظم على حرف (الضاد) في مناسبتين بلغ عدد أبياتهما ثمانية وعشرين بيتاً.

ز- يعد أمية بن أبي الصلت أكثر الشعراء تنوعاً في استخدام القافية؛ إذ استخدم سبعة عشر حرفاً تلاه عبد المطلب بن هاشم ثم ذو الإصبع العدوانى.

ح- لاحظت الدراسة وجود صلة بين القافية والموضوع المطروق، وذلك في شعر متمم بن نويرة، فقد جاء معظم شعره على حرف (العين)، إذ نظم عليه مائة واثنى عشر بيتاً بنسبة ٧٩,٤% من مجموع شعره البالغ مائة وواحد وأربعين بيتاً، وقد جاءت هذه الأبيات العينية ضمن ثلاث قصائد قالها متمم في رثاء أخيه مالك بن نويرة، وهنا يتبين لنا (سراً) اختيار الشاعر لهذا الحرف بالذات، فنحن نستشعر فيه معاني اللوعة والأسى والحزن، فكأنه يردد (العويل) باستخدام هذا الحرف، فضلاً عن ارتباط حرف (العين) بالعين، وهي العضو المعنى بالبكاء، ومن هنا فإن الدراسة ترى تعمد الشاعر النظم على هذا الحرف في قصائده البكائية، وأن النظم عليه لم يكن محض صدفة، وإنما كان عن سبق تصور ووعي وإدراك لما يريده الشاعر من هذه العملية الاختيارية.

لقد تبين من دراسة جدول القوافي أن الشعراء الحكام نَوَّعُوا في قوافيهم، فلم يقصروها على حروف معينة، وإنما جاءت شاملة لأكثر من ثلاثة أرباع الحروف العربية، كما يتبين - عند الرجوع إلى قصائدهم - ميلهم الشديد إلى استخدام القافية المطلقة^(١) التي تغلب على أكثر من ٩٥% من شعرهم، وهذه القافية تمتاز بالتنوع الصوتي والإيقاع الموسيقي، وهي "أوضح في السمع وأشد أسراً للأذن؛ لأن الروي فيها يعتمد على حركة بعده، فقد تستطيل في الإنشاد، وتشبه حينئذ حرف مد"^(٢). وقد استخدموا القافية المطلقة بنوعها:

١- ما تبع رويه حرف وصل فقط، وأحرف الوصل هي: (الألف والياء والواو والهاء).
فما وصلوه بالألف قول غيلان بن سلمة^(٣):

وإنَّ أبْنَ عَمِّ المَرءِ مِثْلُ سِلَاحِهِ
وَقَوْلُ الشِّدَاخِ الكِنَانِي^(٤):

أَبِينَا فلا تُعْطِي مَلِيكاً ظِلَامَةً
ولا سُوْقَةً إلا الوَشِيحَ المُقَوِّمًا

(١) القافية المطلقة: هي التي يكون فيها الروي متحركاً.

(٢) إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ص ٢٨١.

(٣) بدر أحمد ضيف، غيلان بن سلمة، ص ٨٨.

(٤) البحتري، ديوان الحماسة، ص ٣٤.

فقد أتى كل من الشاعرين بعد حرف الروي بألف ثابتة في الكتابة لخفتها.

- ومما وصلوه بالياء قول ذي الإصبع العدواني^(١):

لَاهِ أَبْنُ عَمَّكَ لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَخْزُونِي
فقد أتى بالياء بعد حرف الروي وهو (النون).

وقد يتولد حرف المد من إشباع حركة الروي كما في قول أبي طالب^(٢):

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلْحٍ بِبَاطِلٍ

أما الوصل بالواو فمنه قول بشامة بن الغدير^(٣):

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدُّوا الْبَيْنَ فابْتَكَرُوا لِنِيَّةٍ ثُمَّ مَا عَاجُوا وَلَا انْتَظَرُوا
فوصل حرف الروي (الدال) بالواو.

ومن إشباع حركة الروي التي يتولد عنها حرف الواو قول الحصين بن الحمام^(٤):

أَلَا تَقْبَلُونَ النَّصْفَ مِنَّا وَإِنَّكُمْ بَنُو عَمَّنَا لَا بَلَّ هَامَكُمْ الْقَطْرُ

ومن أمثلة الوصل بالهاء قول أبي جهل بن هشام^(٥):

كَيْفَ أَلْتَدُ الْحَيَاةَ وَقَدْ حَجَبُوا عَنِّي مُعَلِّيَّةً

فوصل حرف الروي (الياء) بهاء ساكنة.

٢- ما كان لوصله خروج، ولا يكون مثل هذا الوصل إلا بالهاء^(٦). ومنه قول أمية بن

أبي الصلت^(٧):

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِيَّتِهِ فِي بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوَافِقُهَا

فالقاف روي، والهاء صلة، والألف التي بعدها خروج.

(١) ديوانه، ص ٨٩.

(٢) ديوان أبي طالب، ص ٧١.

(٣) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢١٩.

(٤) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١٠٨.

(٥) الأندلسي، نشوة الطرب ١/٣٦٢.

(٦) ينظر في ذلك: ابن رشيق، العمدة، ١/١٤٦-١٤٧.

(٧) ديوانه، ص ٥٣.

أما القوافي المقيدة^(١) فنادرة في شعر حكام العرب، إلا أن هناك أمثلة قليلة عليها، ومنها قول قس بن ساعدة^(٢):

في الداهيين الأوليـ
من الفرون لنا بصائر

وقول أمية بن أبي الصلت^(٣):

الأ بكيت على الكرا
م بني الكرام أولي الممادح

ومن الملاحظات المهمة التي تثير الاهتمام، ورود قصيدة لأحد الشعراء الحكام تلتزم في قافيتها طريقة أبي العلاء المعري المعروفة بلزوم ما لا يلزم، وهي قول الحصين بن الحمام^(٤):

وقافية غير إنسية
شروء تلمع بالخافقين
وحيران لا يهتدي بالنهار
من الظلع يثبغ ضلالها
قرضت من الشعر أمثالها
إذا أنشئت قيل: من قالها ؟

إلى آخر القصيدة التي يبلغ تعداد أبياتها خمسة عشر بيتا تسير كلها على نفس النسق، وهذه الإشارة ربما تكون جديرة بالمتابعة والبحث والتحديد إن كان أبو العلاء أول من سن هذه الطريقة فعلا أم أن غيره من الشعراء قد سبقه إليها.

ب- الموسيقى الداخلية: لقد سبق لنا الحديث عن أهمية الوزن والقافية في تشكيل الموسيقى الخارجية للنص الشعري، إلا أن تلك الموسيقى لا تمثل كل ما في الشعر من موسيقى، فهناك الموسيقى الداخلية التي لا تقل أهمية عن الخارجية، بل إنها تتضافر معها لتشكيل وحدة موسيقية هي القصيدة الشعرية، بنظام الموسيقى الكامل^(٥).

وتعرف الموسيقى الداخلية بأنها قدرة الشاعر على إقامة بناء موسيقي يتكون من إحياءات نفسية تعلو وتهبط لتكون من مجموعها لحنا متسقا من خلال التقديم والتأخير وتالف

(١) القافية المقيدة: هي التي يكون الروي فيها ساكنا.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١.

(٣) ديوانه، ص ٢٤.

(٤) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١١٠.

(٥) انظر: علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، ص ٣٤.

الأصوات في الكلمات^(١). وتبدأ الموسيقى الداخلية بالحرف - كوحدة صوتية - مروراً باللفظة المفردة، حتى تصل إلى الشطر أو البيت الذي يقع في إطار القصيدة ككل، وفي فلك موسيقاها الخارجية من وزن وقافية^(٢).

على أنه ليس من السهل إدراك هذه الموسيقى إدراكاً مادياً، بل يحس أثرها بما تشيعه في النفس من جوٍّ صوتي ينسجم مع الأحوال النفسية التي يعبر عنها الشاعر، وأكثر ما تتأتى هذه الموسيقى من براعة الشعراء في اختيار ألفاظهم، وعمق تأثيرهم وانفعالهم، وصدق التجربة التي يصورونها، وبُعد المدى في مخيلاتهم، ومقدرتهم على التصوير، ورهافة الحس، وحسن الذوق^(٣).

وللموسيقى الداخلية مظاهر منها: التردد، وهو إعادة اللفظ بعينه، ولكن بفارق دلالي جزئي في استعماله ثانياً، ليس موجوداً في استعماله أولاً بسبب السياق الجديد^(٤)، مما يظهر براعة الشاعر، ويعطي المعنى إحياءات جديدة، ويفجر شحنات أخرى من المدلولات^(٥).

ومن أمثلة التردد في شعر الحكام قول ذي الإصبع العدواني^(٦):

لو كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْكَ الْوَدَّ هَانَ لَهُ	عَلَى بَعْضِ الَّذِي أَصْبَحْتُ ثَوَلِيْنِي
قَدْ كُنْتُ أُولِيْكُمْ مَالِي وَأَمْتَحُكُمْ	وَدِّي عَلَى مُثَبِّتِ فِي الصَّدْرِ مَكْنُون
لَوْ تَشْرَبُونَ دَمِي لَمْ يَرَوْا شَارِيْكُمْ	وَلَا دِمَاؤُكُمْ جَمْعًا ثَرَوِيْنِي
لَا يُخْرِجُ الْكَرَّةَ مِنِّي غَيْرَ مَا بِيَةِ	وَلَا أَلِيْنُ لِمَنْ لَا يَبْتَغِي لِيْنِي

وقول الحصين بن الحمام^(٧):

موالي موالينا الولادة مِنْهُمْ	وموَلَى اليمين حابساً متقسماً
--------------------------------	-------------------------------

(١) انظر: رجاء عيد، التجديد الموسيقي في الشعر العربي، ص ١٦.

(٢) اشرف دعور، الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي، ط ١، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، د.ت، ص ٢٠٣.

(٣) انظر: أحمد أبو حاق، البلاغة والتحليل الأدبي، ص.ص ٢٣٤-٢٣٥.

(٤) محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص ٦٠.

(٥) محمود الحلولي، بناء القصيدة لدى شعراء الحجاز، ص.ص ١٢٩-١٣٠.

(٦) ديوانه، ص.ص ٨٨-٩٥.

(٧) مهدي عبيد، شعر الحصين، ص ١١٢.

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية التكرار، وأبرز صورته تكرار القافية التي يلتزم بها الشاعر في جميع أبيات القصيدة. ويعمل التكرار على توضيح الفكرة وترسيخها، وهو يجيء أحيانا للتلذذ بذكر الاسم أو اللفظ المكرر، كذكر اسم المحبوبة أو الدار ومناداتها. وقد يلجأ الشاعر إلى تكرار حرف أو كلمة أو جملة، أو تكرار حركات يتخيرها تخيراً بقصد إحداث أثر موسيقي جلي في القصيدة، أو في أبيات منها.

وقد أحسن الشعراء الحكام استخدام هذا اللون الموسيقي في قصائدهم، فنحن نجد أمثلة كثيرة عليه عند قراءتنا لأشعارهم، إذ نلاحظ التكرار بأصنافه: تكرار الحروف والكلمات والجمل، فمن تكرار الحروف قول أكتف بن صيفي^(١):

وَيَسْرَحَهَا تُحْدِي إِلَى الْحَيِّ اسْلُمُ

سَاخِسُهَا حَتَّى يَبِينَ سَبِيلُهَا

فقد كرر حرف (السين) في البيت خمس مرات

ومن ذلك أيضاً قول أنس بن مدرك^(٢):

إِذَا بَعْضُهُمْ لَأُمُورٍ تَعْتَرِي جَزْرُ

مِرْدَى حُرُوبٍ أَدِيرُ الْأَمْرَ حَابِلُهُ

فقد أحرف (الراء) سبع مرات في بيت واحد.

ومن أمثلة تكرار الكلمات قول الحصين بن الحمام^(٣):

تَبَيَّنْتُ فِيهِ أَنَّهُ قَوْلُ كَاذِبٍ

تَدِمْتُ عَلَى قَوْلٍ مَضَى كُنْتُ قُلْتُهُ

إذ كرر فيه كلمة (قول) ثلاث مرات.

وكذلك قول ذي الإصبع العدواني^(٤):

وَأَبْنُ أَبِي أَبِي مِنْ أَبْيَيْنِ

إِنِّي أَبِيُّ أَبِيُّ ذُو مُحَافَظَةٍ

ففي هذا البيت تكرار لكلمة (أبي) خمس مرات، ولنا أن نتصور مقدار ما كانت نفس الشاعر تجيش به من مشاعر الغيظ والحنق والمرارة التي أدت به إلى أن يلج على صفة الإباء في نفسه، وكأنني به قد نسي نفسه وهو ينشد، وكأنه يريد أن يؤكد مرة تلو أخرى على إيائه ورفضه الدل والهوان.

(١) عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم، ص ٤٧٨.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ٢٠/٤٠٠.

(٣) لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ص ٧٤٥.

(٤) ديوانه، ص ٩٣.

ومن الأبيات التي اجتمع فيها تكرار أكثر من كلمة قول سويد بن الصامت^(١):
 فرشني بخير طالما قد بريتني
 فخير الموالى من يرش ولا يبري
 ففي البيت السابق كرر الشاعر: (فرشني ويرش) و (بخير وفخير) و (بريتني و يبري).

أما تكرار الجمل فإن خير شاهد عليه قول الحارث بن عباد في مطولته^(٢):
 قرباً مربط النعامة مني
 لقحت حرباً وائل عن حبال
 قرباً مربط النعامة مني
 جدّ والله جدّ بأس عضال
 ففي هذه القصيدة - إذا صحت - كرر الشاعر شطر بيت كامل وهو (قرباً مربط النعامة مني) حوالي خمسين مرة.

ومن مظاهر الموسيقى الشعرية الداخلية التدوير، وهو اتصال شطري البيت واشتراكهما في كلمة واحدة تنقسم بين الشطرين. ونجد مثل هذا لدى الشعراء الحكام، فمنه قول قس بن ساعدة^(٣):

ضوؤها يطمس الغيون وأرعا
 وفصور مشيدة حوت الخبـ
 د شداد في الخافقين تطار
 ر وأخرى خلت بهن قفار

وقول ذي الإصبع العدواني^(٤):

آخ الكرام إن أستطف
 إن الكرام إذا تـوا
 ت إلى إخالهم سبيلا
 خيهم وجدت لهم فضولا

ويعد التصريع من أهم مظاهر الموسيقى الداخلية للقصيدة، وقد عرفه ابن رشيق فقال^(٥):
 "فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه وتزيد بزيادته".
 ويأتي التصريع - عادة - في مطلع القصيدة، وسببه "مبادرة الشاعر القافية، ليعلم في أول وهلة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٩/٢.

(٢) محمد العيسى، حركة الشعر في قبيلة قيس بن ثعلبة، ص. ٣٧٢-٣٧٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية ١٨٢/٢.

(٤) ديوانه، ص ٧٢.

(٥) ابن رشيق، العمدة ١٥٦/١.

أنه أخذ في كلام موزون غير منثور^(١). وقد يقع التصريع في أثناء القصيدة عند انتقال الشاعر من موضوع إلى آخر.

وقد ذهب بعض النقاد إلى أن التصريع أثر من آثار ارتباط الشعر بالغناء، ومن هؤلاء شوقي ضيف الذي يقول^(٢): "ولا شك في أن الغناء هو الذي دفع إلى صنعها حتى يوفروا للشعر قيمة صوتية تساعد على تلحينه والترنم به". وهناك من ينظر إلى التصريع على أنه من مكونات الموسيقى، فهو أشبه ما يكون بمقدمة موسيقية خفيفة قصيرة تلهب إحساسنا^(٣)، ويرى ابن رشيق في استخدامه دليلاً على قوة الطبع وكثرة المادة، غير أن الإكثار منه في القصيدة يدل على التكلف إلا من المتقدمين^(٤).

ولو عدنا إلى شعر حكام العرب فإننا سنجد التصريع ماثلاً في جميع قصائدهم تقريباً، فلا يكاد مطلع من مطالعهم يخلو من هذا اللون الموسيقي، ومن أمثله في شعرهم قول بشامة ابن الغدير^(٥):

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فابْتَكُرُوا لِنِيَّةٍ ثُمَّ مَا عَاجُوا وَمَا أَنْتَظَرُوا

فقد صرَّع الشاعر في هذا المطلع في قافية الراء بين (ابتكروا/انتظروا).

ومن ذلك أيضاً مطلع قصيدة عبد المطلب بن هاشم^(٦):

يَا طَوْلَ لَيْلِي لِأَحْزَانِي وَأَشْغَالِي هَلْ مِنْ رَسُولٍ إِلَى النَّجَارِ أَخْوَالِي

ففي هذا المطلع تصريع في قافية اللام بين (أشغالي/أخوالي). وأمثلة التصريع في شعر حكام العرب كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

وتعد المحسنات البديعية من ألوان الموسيقى الداخلية، وخصوصاً الجناس والطباق، وقد تقدم الحديث عن هذين الفنين من فنون المحسنات^(٧)، ولذا فليس من النافع إعادة البحث فيهما.

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٥٠.

(٣) مخيمر صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي، ص ٢٠٠.

(٤) ابن رشيق، العمدة ١/١٥٧.

(٥) عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة، ص ٢١٩.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري ١/٥٠٣.

(٧) انظر ص ١٤٧ وما بعدها من هذا البحث.

ثانياً: النشر:

أ- بنية النص النثري:

إن الحديث عن النصوص النثرية لدى حكام العرب يستدعي التنبيه إلى أمر مهم، وهو عدم تشابه جميع الأنواع النثرية التي يقصد الباحث إلى دراستها، بمعنى أن هناك نصوصاً تدخل تحت مسمى (الخطب) وأخرى تصنف في الوصايا، وثالثة اتفق على إدراجها في الحكم والأمثال ومن هنا فإنه ينبغي - عندما نتوجه إلى دراسة هذه النصوص النثرية - أن نتأمل هذه الحقيقة، ونضعها نصب أعيننا، فلا نخلط بين الخطبة والحكمة والوصية، لأن لكل من هذه الفنون خصائص تمتاز بها عما سواها. ولذا فإننا سنقوم بدراسة كل نوع من هذه الأنواع النثرية بشكل منفصل.

١- **الخطب:** لقد سبق لنا الحديث عن أهمية الخطابة والخطباء في المجتمع الجاهلي، كما تحدثنا عن أنواع الخطب، من خطب الوفود والمناسبات الاجتماعية والدينية وغيرها، وسوف نتعرف فيما يلي إلى بنية الخطبة من جهة المقدمة والغرض والخاتمة.

تبدأ الخطب - عموماً - بالتوجه إلى المخاطب، فإن كانت الخطبة من خطب الوفادة على الملوك، فإن الخطيب يستهلها في أغلب الأحوال بقوله: أيها الملك. ومن ذلك خطبة أكتم بن صيفي بين يدي عمرو بن كلثوم حين وفد عليه لتعزيته بوفاة أخيه، فقال له^(١): "أيها الملك، إن أهل هذه الدار سفر.... الخ"، وقد يؤخر الخطيب استهلاله ذاك كما فعل عبد المطلب في خطبته أمام سيف بن ذي يزن، حين وفد في جماعة من قريش لتهنئة الملك باسترداد ملكه من الحبشة، فقال^(٢): "إن الله تعالى^(٣) - أيها الملك - أحلك محلاً ربيعاً، صعباً منيعاً... الخ". ويبدو أن عبد المطلب رأى أنه من باب التأدب في مخاطبة الملوك عدم مواجهتهم بعبارة (أيها الملك) من الوهلة الأولى، ولذلك فقد فضل التوطئة لها بقوله: إن الله تعالى، ثم أتبعها بتوجيه الخطاب إلى الملك

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٤٦/٣.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٦١/١ - ٢٦٢. والمسعودي، مروج الذهب، ٩١/٢.

والأصفهاني، الأغاني ٣١٣/١٧. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٧٦/١.

(٣) في المسعودي، مروج الذهب: إن الله جل جلاله قد أحلك - أيها الملك - محلاً ربيعاً.... وفي الأصفهاني الأغاني: إن الله قد أحلك - أيها الملك - محلاً ربيعاً....

على شكل عبارة معترضة - أيها الملك - وهذا ينبئ بسلامة ذوق عبد المطلب، وخلوه من فظاظه الأعراب وخشونتهم.

أما إذا كانت الخطبة موجهة إلى فئة من الناس، فإن الخطيب يفتتح خطبته بالتوجه إليهم مباشرة، ويخصهم بخطابه، ويسميه باسم العشيرة التي ينتمون إليها، أو الفئة التي يصنفون فيها، ومن ذلك خطبة هاشم بن عبد مناف حين قام خطيباً في قريش يحثها على إكرام زوار بيت الله الحرام، فقد افتتح خطبته بقوله^(١): "يا معشر قريش، أنتم سادة العرب، أحسنها وجوها... الخ" فالخطاب موجه مباشرة إلى من يعنيه الأمر، وهو هنا قبيلة قريش. وشبهه بهذا ما افتتح به أكرم بن صيفي خطبته حين جمع قومه، وخطب فيهم لحثهم على الدخول في الإسلام، فقال: "يا بني تميم، لا تحضروني سفيها... فافتتح خطبته بعبارة (يا بني تميم) متوجها إليهم بالكلام مباشرة. أما أبو سفيان بن حرب، فإنه وقف يوم اليرموك يحرض الناس ويحضهم على الاستبسال في القتال، فقال: "إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم في دار العجم، منقطعين عن الأهل..."، فقد استهل خطبته بالتوجه إلى (معشر المسلمين) إدراكاً منه بأن (معشر المسلمين) يضم رجلاً من قبائل متعددة، وأن الإطار الذي يجمع هؤلاء هو إطار الإسلام، فخطبهم بما يناسب حالهم.

وقد تكون الخطبة عامة لا تخص فئة دون أخرى من الناس، خصوصاً عندما تتصل بالوعظ والإرشاد، وهنا فإن الخطيب يستهلها بعبارة (أيها الناس)، ومن ذلك خطبة قس بن ساعدة المشهورة في سوق عكاظ، إذ قال فيها: "أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات.... الخ".

وبعد هذه المقدمة القصيرة التي يستهل الخطيب خطبته بها، يهدف إلى الغرض الذي من أجله وقف خطيباً، وقد يمهد لهذا الغرض بشيء من الكلام المناسب، كقول هاشم بن عبد مناف في خطبته التي سلف الحديث عن مقدمتها: ".... أنتم سادة العرب، أحسنها وجوها، وأعظمها أحلاماً، وأوسطها أنساباً، وأقربها أرحاماً. يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، أكرمكم

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٧٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٧٤.

(٢) الألويسي، بلوغ الأرب ١/٣٠٨. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٥٩.

(٣) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٢٠٥.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ١/٣٠٨ - ٣٠٩. والأصفهاني، الأغاني ١٥/٢٣٧. وابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٧٩. والبغداد، خزائن الأدب ٩/١٨٩. والألويسي، بلوغ الأرب ٢/٢٤٥.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية ١/١٧٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٧٤.

بولايته، وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل"، فكانه يهيئ النفوس ويعدها لسماع ما يرمي إليه من القول، لكي يجد كلامه صدى طيباً لدى من يسمعه، فيبادر إلى إجابته وتلبية دعوته، وهنا يبين الخطيب غرض خطبته، فيقول: ^(١) "... فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فإنهم يأتونكم شعناً غبراً من كل بلد، فورب هذه البنية، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه، ألا وإني مخرج من طيب مالي وحلاله، مالم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل..."

ونجد في خطبة عبد المطلب (منهجا) مشابهاً للمنهج السابق، وهو التمهيد للغرض بكلام يسبقه، إذ نراه يخاطب الملك (سيف بن ذي يزن) بقوله: ^(٢) "إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومتها، ونبأ أصله، وبسق فرعها..." ويسترسل الخطيب في مدح الملك، ويطنل في ذلك إلى أن يشعر بأنه قد استوفى المديح، فعند ذلك يفصح عن هويته ومن معه، ويبين سبب قدومهم إلى بلاد الملك بقوله: "... نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنة لا وفد المرزنة".

ومن الخطباء من يلج إلى الموضوع مباشرة - بعد مخاطبة مستمعيه بعبارة (أيها الناس) أو (يا معشر كذا) ومن هؤلاء أبو سفيان في خطبته التي أشرنا إليها سابقاً، فبعد أن استهل خطبته بتحديد من يوجه كلامه إليهم (وهم معشر المسلمين)، قال: ^(٣) "إنكم يا معشر المسلمين أصبحتم بإزاء عدو كثير عددهم، شديد عليكم حنقهم... الخ". ومن هذا القبيل أيضاً خطبة قس بن ساعدة، فقد قال بعد توجهه إلى من يخاطبهم بقوله (أيها الناس): ^(٤) "... من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ببحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وبرٌ وآثام... الخ".

(١) المصدران السابقان، نفس الصفحات، مع اختلاف في الروايتين.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٦١/١ - ٢٦٢. والمسعودي، مروج الذهب ٩١/٢. والأصفهاني،

الأغاني ٣١٣/١٧، وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٧٦/١.

(٣) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٢٠٥/١.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٨/١ - ٣٠٩. والأصفهاني، الأغاني ٢٣٧/١٥.

أما خاتمة الخطبة، فليس هناك صيغة محددة لها، بل إن الأسلوب المتبع في ذلك هو إنهاء الخطبة بعد استيفاء الحديث في موضوعها الأساسي، فعند ذلك ينهي الخطيب خطبته دون أن يقول شيئاً يدل على تلك النهاية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها خطبتا هاشم بن عبد مناف وابنه عبد المطلب اللتان سبقت الإشارة إليهما، وخطبة أبي طالب في زواج الرسول (ﷺ) من السيدة خديجة، وخطبة أكرم بن صيفي حين جمع قومه ودعاهم إلى الإسلام، غير أن هذا لا يعني أن جميع الخطب قد سارت على هذا النهج، فهناك من الخطباء من تلمح في نهاية خطبته ما يشعر بالانتهاء دون أن يصرح بذلك في عبارة محددة، وإنما يفهم المستمع من خلال سياق الحديث أن الخطيب يوشك على اختتام خطبته، ومن ذلك خطبة أبي سفيان في يوم اليرموك، إذ قال في نهايتها: ^(١) "...فامتنعوا بسيوفكم، وتقربوا بها إلى خالقكم، ولتكن هي الحصول التي تلجئون إليها، وبها تمنعون"، فليس في الخطبة ما يشير إلى انتهائها سوى ما يمكن فهمه من سياق الحديث.

وقد يختم الخطيب خطبته بأبيات من الشعر كما فعل قس بن ساعدة، فبعد أن أنهى خطبته الوعظية، أنشد أبياتاً من الشعر أولها:

في الذاهبين الأوليــــ
من من القرون لنا بصائر^(٢)

٢- الوصايا: تشترك الوصية مع الخطبة في أن كلا منهما تتألف من أجزاء تشبه إلى حد بعيد أجزاء الأخرى، فكما أن للخطبة مقدمة أو استهلالاً، وخاتمة، وبينهما يكون الحديث في الغرض الرئيسي، فإن الوصية تتكون مما يشبه -إلى حد بعيد - ما تتكون منه الخطبة من أجزاء.

وأول ما يلفت الانتباه في الوصية استهلالها بمخاطبة الموصى إليه، فإن كان أحد الأبناء، وجدنا الوصية تبدأ بعبارة (يا بُنَيَّ) وكذلك إن كانوا مجموعة من الأبناء فإنها تبدأ بعبارة (يا بُنَيَّ)، ومن هذه الوصايا وصية ذي الإصبع العدواني إلى ابنه أسيد: ^(٣) "يا بني، إن أباك قد فني وهو حي.... الخ"، أما الوصايا الموجهة إلى مجموعة الأبناء، فمنها وصية غيلان بن سلمة إلى أبنائه، إذ يقول في بدايتها ^(٤): "يا بُنَيَّ، قد أحسنت خدمة أموالكم.... الخ".

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ٢٠٥/١.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١، وقد ذكرت الأبيات أكثر من مرة في هذا البحث، فلا حاجة لذكرها هنا، انظر ص ٧٨ من هذا البحث.

(٣) الأصفهاني، الأغاني ٩٥/٣. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٢٠/١. وديوان ذي الإصبع، ص ص ٧١ - ٧٢.

(٤) الأصفهاني، الأغاني ٢٢٨/١٣.

وهناك بعض الوصايا الموجهة إلى القوم أو العشيرة، وهي تبدأ عادة بقول الموصي: يا بني فلان، أو يا معشر كذا. ومن أمثلة ذلك مخاطبة أكتثم بن صيفي قومه حين أوصاهم فقال^(١): "يا بني تميم، لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي.... الخ"، وكذلك فعل عامر بن الظرب العدواني في وصيته لقومه^(٢): "يا معشر عدوان، كلفتموني بغيا.... الخ"، وأبو طالب بن عبد المطلب حين جمع وجوه قريش لما أحس بدنو أجله، فأوصاهم، وافتتح وصيته بقوله^(٣): "يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه... الخ".

وقبل الدخول في موضوع الوصية، يمهّد الموصي - عادة - بكلام يشتمل على بعض الحكمة التي اكتسبها من طول التجربة وسعة الخبرة في الحياة، وأكثر ما يكون ذلك في الوصايا الموجهة إلى الجماعة، فمنه قول أكتثم في وصيته إلى قومه^(٤): "... لا يفوتكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا أسمعكم ولا مقام إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مصغية، وقلوب واعية، تحمدوا مغبته"، ومنه كذلك وصية أبي طالب السالفة الذكر، فبعد أن استهلها بتوجيه كلامه إلى (معشر قريش) قال^(٥): "... أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع، الواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه.... الخ".

ولا تختلف الوصايا إلى الأبناء عن تلك الموجهة إلى الجماعة الكثيرة، بل إنها تكاد تكون مشابهة لها لولا وجود فرق بسيط يتمثل في (طول) التوطئة أو التمهيد، فالموصي للجماعة يمهّد لموضوع وصيته بشيء من الحكمة (كما فعل أكتثم بن صيفي) أو بكلام يحمل معنى الإشادة والمديح والتذكير بما للقوم من فضائل (وهذا ما فعله أبو طالب)، أما وصايا الأبناء للأبناء فبالرغم من احتوائها على مثل هذا التمهيد، إلا أنه قصير ومختصر لا يتعدى الجملتين أو الثلاث قبل الولوج في موضوع الوصية، ومن ذلك وصية ذي الإصبع العدواني لابنه، فبعد أن خاطبه بقوله: (يا بني) قال له^(٦): "... إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سنم العيش، وإني

(١) التوحيد، البصائر والذخائر ١/١٥٤. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٣٤.

(٢) الألوسي، بلوغ الأرب ١/٣١٨. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٢٣.

(٣) الألوسي، بلوغ الأرب ١/٣٢٧. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٦١.

(٤) التوحيد، البصائر والذخائر ١/١٥٤. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٦١.

(٥) الألوسي، بلوغ الأرب ١/٣٢٧. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٦١.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ٣/٩٥. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٢٠. وديوان ذي الإصبع،

موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته، فاحفظ عني.... الخ"، وشبيه بهذا قول غيلان بن سلمة لبنيه حين حضرته الوفاة^(١): ".... قد أحسنت خدمة أموالكم، وأمجدت أمهاتكم فلن تزالوا بخير ما غذوتم من كريم وغذا منكم".

وبعد المقدمة التي تشتمل على مخاطبة الموصي بعبارة (يا بني) أو (يا بني فلان) أو (يا معشر كذا) وعلى توطئة مناسبة تطول أو تقصر، ينتقل الموصي إلى موضوع الوصية الرئيسي الذي يود التركيز عليه فيبين لمن يوصي له (أو لهم) ما يريد فعله، وما ينبغي التحلي به من صفات وشمائل، فقد أوصى أبو طالب قومه^(٢) "بتعظيم هذه البنية - يعني الكعبة - فإن فيها مرضاة للرب"، وبصلة الرحم^(٣) "...صلوا أرحامكم فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد"، وبترك البغي، وإجابة الداعي وإعطاء السائل، وصدق الحديث، وأداء الأمانة^(٤). ثم خصص جانباً مهماً من وصيته لحث قومه على إكرام النبي (ﷺ) واتباع دعوته فقال^(٥): "وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصدّيق في العرب.... الخ"، وسار ذو الإصبع على النهج السابق، فبعد أن خاطب ابنه، ومهد لوصيته، نفذ إلى الحديث عما يبتغيه من وصيته لابنه، فقال^(٦): "... فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك.... إلى آخر الوصية"، ولم يتكبد غيلان هذا السبيل في وصيته لأبنائه، إذ قال لهم^(٧): ".... فعليكم ببيوتات العرب، فإنها معارج الكرم، وعليكم بكل رمكاء مكينة ركيئة، أو بيضاء رزينة.... الخ".

أما خاتمة الوصية، فقد أظهر البحث وجود سبيلين لها: أولهما: سبيل سلكه الموصون إلى الجماعة، وهو يقوم على إنهاء الوصية دون أية إشارة تنبئ المستمع أو القارئ بانتهائها، وإن من يتمعن الوصايا التي سبق الحديث عنها، يدرك هذه المسألة بكل وضوح. أما السبيل الثاني فهو الذي لاحظناه لدى الذين أوصوا أبناءهم، ويمتاز هذا بأن الموصي يختم وصيته بأبيات من الشعر كما فعل ذو الإصبع العدوانى في وصيته لابنه أسيد، فقد أجمعت الروايات

(١) الأصفهاني، الأغاني ٢٢٨/١٣.

(٢) الألويسي، بلوغ الأرب ٣٢٧/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٦١/١.

(٣) المصدران السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.

(٤) المصدران السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.

(٥) الأصفهاني، الأغاني ٩٥/٣ وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٢٠/١. وديوان ذي الإصبع، ص ٧١.

(٦) الأصفهاني، الأغاني ٢٢٨/١٣.

على أنه أنشد قصيدته المعروفة التي يبين فيها ما ينبغي لابنه السير عليه في حياته، عقب انتهائه من الوصية مباشرة، وقد أوردنا القصيدة في معرض كلامنا على موضوعات شعر الحكام، وأولها^(١):

أسيد إن مالا ملك — فسر به سيرا جميلا

كما نجد في وصية غيلان بن سلمة لأبنائه منهاجا مشابها لمنهج ذي الإصبع من حيث اختتام الوصية بأبيات من الشعر، فبعد أن أنهى غيلان وصيته أنشد قائلا^(٢):

وحرة قوم قد تنوق فعلها وزينها أقوامها فتزينت
رحلت إليها لا ترد وسيلتي وحملتها من فوقها فتحملت

وبهذا يتبين لنا - من خلال النصوص التي بأيدينا - أن حكام العرب قد عمدوا في خواتيم وصاياهم لأبنائهم إلى إيراد شيء من الشعر يكون بمثابة النهاية لتلك الوصية، بينما رأيناهم ينفون وصاياهم الموجهة إلى الجماعة دون إشارة تفيد بانتهاء تلك الوصية.

٣- الحكم والأمثال: تمتاز الحكم والأمثال عموما بالإيجاز والاختصار، فليس هناك نصوص يمكن من خلالها يتبين ملامح البناء الفني لهذين اللونين من ألوان النثر في الأدب العربي، لهذا فإن الحديث عن بنية النص المتعلق بهما سوف يأخذ مكانه عند دراستنا للملامح الأسلوبية التي تتميز بها الحكم والأمثال.

(١) الأصفهاني، الأغاني ٩٥/٣-٩٧. وديوان ذي الإصبع، ص ٧٢-٧٤.

(٢) الأصفهاني، الأغاني ١٣/٢٢٩.

ب - اللغة:

تعد اللغة - أية لغة - بمثابة الوعاء الذي يحمل الأفكار، أو الجسر الذي يوصل تلك الأفكار إلى المتلقي، وتعتمد على (الكلمة) في التعبير عن الحاجات والعواطف والأفكار، وإذا ما أردنا الحديث عن اللغة فإن حديثنا سيهتم بمحاولة تبين خصائص الكلمة التي ترتقي إلى مستوى الفصاحة المتمثلة في مستويات ثلاثة هي: المستوى الصوتي، والمستوى الدلالي، والمستوى الصرفي^(١).

فالمستوى الصوتي يعني بسلامة اللفظ من (تنافر الحروف)، وقد ضرب البلاغيون القدماء مثلاً لذلك كلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس^(٢):

* غدا نرها مستشزرات الى العلا *

وذلك بسبب تقارب مخارج حروف هذه الكلمة، مما يسبب إرباكاً في النطق.

لقد قامت هذه الدراسة باستقراء النصوص النثرية التي تخص حكام العرب من خطب ووصايا وحكم وأمثال استقراء دقيقاً محكماً، بحثاً عن شاهد يؤيد وجود شيء من التنافر في حروف كلماتهم، وقد بلغ بها الاستقصاء أن تعود إلى النص أكثر من مرة عليها تجد مثلاً واحداً على هذه القضية، فلم تقع على شيء من ذلك، وإن غاية ما تم العثور عليه من هذا القبيل هو كلمة واحدة وردت في سياق وصية لأكثم بن صيفي يقول فيها^(٣): " ... لا تفرقوا في القبائل، فإن الغريب بكل مكان مظلوم. وإياكم (والوشائظ)^(٤) فإن مع القلة الذلة". فكانت كلمة (الوشائظ) هي أقصى ما أمكن الوصول إليه بهذا الصدد - مع عدم احتوائها على كثير من الحروف المتنافرة -. ويدل هذا الاستقصاء المفضي إلى عدم وجود شواهد على تنافر الحروف في لغة الحكام دلالة قاطعة على فصاحة ألفاظهم من الناحية الصوتية، ولعل ما امتاز به الحكام من فطنة وثقافة وعلم، واختلاط بالناس على اختلاف مشاربهم ودرجاتهم وثقافتهم، وتعاملهم مع قبائل كثيرة على اختلاف لغاتها ولهجاتها - لعل هذا كان السبب في خلو لغتهم من التنافر: إذ إن طبيعة مهمتهم كحكام تقتضي استخدامهم لغة أشبه ما تكون بالقاسم المشترك بين لغات القبائل العربية، ومن هنا كان لا بد من أن تمتاز لغتهم بسهولة لغتها وفصاحتها وخلوها من الغرابة والنفور.

(١) انظر: محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص ٢٩٩.

(٢) انظر: ديوان امرئ القيس، ص ١٠٥، والغدائر: جمع غديرة، وهي الخصلة من الشعر، مستشزر: مرتفع.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ١/ ٤٩٤. واحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/ ١٣١.

(٤) الوشائظ: يقال: هم وشيطة في قومهم، أي: حشو فيهم.

أما المستوى الدلالي فيتصل بوضوح الكلمة وخلوها من الغموض وسلامتها من الغرابة، مما يؤدي لالتباس معناها، ويجعل دلالتها غامضة أو غير واضحة، فإذا شاب الكلمة شيء من الغموض في دلالتها لم تكن فصيحة، ودخلت في باب الإغراب، وهذا ما يتعارض والغاية التي يرمي إليها كل كلام يقال.

وإذا عدنا إلى كلام حكام العرب في النصوص النثرية التي وصلت إلينا عنهم، وجدنا مفرداتهم واضحة الدلالة، قريبة المعنى، لا تستعصي على الفهم العادي، وقد يكون من بين كلامهم شيء قليل مما نحكم عليه من وجهة نظرنا اليوم بأنه من الغريب، ولكنها مفردات تتعلق بما كان العرب يتعارفونه آنذاك من أحوال الحيوان في مراحل حياته المختلفة، ومن طبيعة حياتهم وبيئتهم وحضارتهم، ومن الأمثلة التي - ربما - حوت بعض الغريب في كلامهم قول هند بنت الخس حين سئلت^(١): "ما أحسن شيء رأيت؟ قالت: "غادية، في إثر سارية، في نَبْخَاءٍ قاوية" وكذلك قولها في موضع آخر^(٢): "أخبث الذئاب ذنب الغضا، وأخبث الافاعي أفعى الجذب، وأسرع الظباء ظباء الحلب، وأشدّ الرجال الأعجف، وأجمل النساء الفخمة الأسيلة، وأقبح النساء الجهمّة القفرة، وأكل الدوابّ الرغوث، وأطيب اللحم عؤذد، وأغلظ المواطي الحصى على الصفا، وشر المال مالا يزكى، ولا يذكى، وخير المال سكة مأبورة، أو مهرة مأمورة"^(٣). وفيما عدا بعض النصوص القليلة فإن المرء لا يكاد يظفر بنص يحوي شيئا من الغريب في كلام حكام العرب.

ومن الجدير بالملاحظة أن غرابة المفردات الواردة سابقا، تعود إلى الموضوعات التي عالجتها، فقد استعملت فيها مفردات تتصل بالحياة العربية القائمة على الرعي والتنقل، ولذا فإن هذه المفردات، وأن عدت غريبة في مفهومنا اليوم، فإنها كانت مألوفة لأهل ذلك الزمان، ولم يجدوا بأسا من تداولها في حياتهم اليومية، وفي إدارة شؤونهم بسبب إمامهم التام بها وبتفاصيلها المتعلقة بالبيئة وطبيعة المعاش^(٤).

(١) القالي، الأمالي ٢/٢٣٥. والنبخاء: الأرض المرتفعة المشرفة، والقاوية: القليلة الأمطار.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال ١/٣١٨-٣١٩. وأحمد زكي صفوت، جهمرة خطب العرب ١/٧٢.

(٣) الغضا: شجر، له جمر يبقى طويلا، ولذلك ضرب به المثل فقليل، جمر الغضا، الحلب: نوع من النباتات ترعاه الظباء، الأعجف (من العجف، بالتحريك): هو ذهاب السمن، الجهمّة: مونث جهم، وهو الوجه الغليظ المجتمع السمج، القفرة: القليلة القفر (بالتحريك) أي الشعر، الرغوث: المرصعة، العوذ: ما عاذ بالعظم من اللحم، زكى: نما وزاد، ذكى: سمن وبدن (بضم الدال)، السكة: السطر من النخيل، المأبورة: المصلحة، من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته، مأمورة: كثيرة الولد.

(٤) انظر: محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص ٣٠٣.

وأما المستوى الصرفي، فيعنى بخلو الكلمة من (مخالفة القياس)، أي ألا تخرق قواعد المباني والصيغ المطردة المعروفة في العربية، وألا تخرج على نطاق ما يقتضيه علم الصرف^(١). فإذا نظرنا في لغة حكام العرب، وطبقنا المقاييس والمعايير السابقة، فإننا سنرى الكلم تقع بأوضاعها الصحيحة، وتستعمل استعمالاً صرفياً سليماً، مما يجعل الخوض في هذا المجال نوعاً من الفضول الذي لا مسوغ له، خصوصاً إذا علمنا أننا نتحدث عن فترة تقع ضمن عصر الاحتجاج اللغوي، وهي الفترة التي اتخذها علماء اللغة مقياساً للاستعمال اللغوي السليم، وبنوا قواعدهم على ما وجدوه من كلام العرب في تلك الفترة.

وفي شأن مناسبة اللغة للموضوع المطروق، نجد الحكام يستخدمون لغة سهلة بسيطة مفهومة في معظم أغراضهم، وخصوصاً حين يكون كلامهم موجهاً إلى أناس عاديين، إذ نجد هذه السمة غالبية على معظم خطبهم ووصاياهم وحكمهم وأمثالهم، فمن ذلك خطبة أبي طالب في زواج الرسول (ﷺ) بالسيدة خديجة، فقد استخدم فيها لغة تناسب المناسبة التي يتحدث بها، دون إغراب أو تكلف أو صنعة، وقال في خطبته^(٢): "الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس..." إلى آخر الخطبة التي تسير على نفس النسق الهادئ المترن الفصيح الواضح، وانظر إلى استخدامه ألفاظاً من مثل: زرع، وذرية، كيف تتناسب مع المقام الذي قيلت فيه وهو مقام التزيين! ولو أردنا إيراد شواهد أخرى على استخدام الحكام اللغة السهلة الواضحة في مخاطبتهم عامة الناس، لاستفدنا معظم آثارهم النثرية التي بين أيدينا، لأنها تتدرج - في معظمها - ضمن هذا الإطار.

وفي المناسبات الأخرى كمخاطبة الملوك، نجد الحكام يميلون إلى لغة جزلة رصينة قوية متماسكة، ومن ذلك خطبة عبد المطلب بن هاشم بين يدي سيف بن ذي يزن، إذ قال فيها^(٣): "إن الله تعالى قد أحلك - أيها الملك - محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، بأذخاً شامخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه....". وكذلك ما تكلم به ضمرة بن ضمرة في مجلس النعمان بن المنذر بعدما نظر إليه النعمان وازدراه لدمامته، فقال ضمرة^(٤): "مهلاً أيها

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٧٧.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/٢٦١ - ٢٦٢. والمسعودي، مروج الذهب ٢/٩١.

(٤) العسكري، جمهرة الأمثال ١/٢٦٦. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٦٦.

الملك، إن الرجال لا يكالون بالصيعان، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، أن قاتل قاتل بجنان، وإن نطق نطق ببيان... الخ".

أما عند الحديث عن الأمور المتصلة ببيئتهم وحياتهم بما فيها من حيوان ونبات فإن اللغة تميل إلى شيء من الخشونة والإغراب كما سبق أن أسلفنا من حديث هند بنت الخس^(١).

ج - الملامح الأسلوبية:

لقد تقدم الكلام على الأسلوب والأسلوبية، وتعريف النقاد والمهتمين لكل منهما، وذلك عند حديثنا عن الملامح الأسلوبية في شعر حكام العرب^(٢)، وسوف نركز دراستنا للملامح الأسلوبية في آثار حكام العرب النثرية على اللغة المستخدمة، وكشف مدى التوافق والانسجام بين الموضوع المطروق وبين لغة الحكام، كما سنتبين نوعية الألفاظ من جهة السهولة والغرابة، مثلما سيجري البحث في الأساليب المتبعة كالنداء والاستفهام والحذف والتقديم والتأخير، والمحسنات البديهيّة كالجناس والطباق والمقابلة.

وتبرز في آثار حكام العرب النثرية الأساليب المألوفة في الكلام العربي، كالتقديم والتأخير، والحذف والاستفهام، والنداء، والكناية والاستعارة والمجاز، والتشبيه، وهي كثيرة في كلامهم، يضيق المجال عن حصرها وإيرادها، وهذه بعض الأمثلة منها:

فمن التقديم والتأخير قول أبي طالب^(٣): "وله في خديجة رغبة"، ففيه تقديم الجار والمجرور (له) المتعلق بالمحذوف (كائنة له...) ومنه كذلك قول عامر بن الظرب^(٤): ".... ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء"، ففيه تأخير لاسم كان (الداء).

أما الحذف، فمنه قول متمم بن نويرة^(٥): "فتى ولا كمالك"، وتقديره: هو فتى، أو هذا فتى. ومنه كذلك قول قس بن ساعدة^(٦): "... آيات محكمات" فحذف المبتدأ الذي تقديره (الكون) أو (هي).

(١) انظر ص ١٨٢ من هذا البحث.

(٢) انظر ص ١٨٤ من هذا البحث.

(٣) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/ ٧٧.

(٤) الميداني، مجمع الأمثال ١/ ٣٨٥.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٩١.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين ١/ ٣٠٨. والأصفهاني، الأغاني ١٥/ ٢٣٧. والالوسي، بلوغ الأرب ١/ ٧٤.

ومن الأساليب التي استخدمها الحكام العرب الاستفهام، ومن أمثلته قول قس بن ساعدة^(١): "... ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟" وهذا الاستفهام تقريرى يحمل معنى التعجب. وهناك نوع آخر من الاستفهام يومئ بالتقريع والتنبية والإرشاد نجده في قول قس^(٢): "أين ثمود وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يشكر، والظلم الذي لم ينكر؟" أما الاستفهام الإنكاري فنجده في قول نفيل بن عبد العزى مخاطباً حرب بن أمية حين احتكم إليه في المنافرة بينه وبين عبد المطلب بن هاشم^(٣): "يا أبا عمرو، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة؟ وأعظم منك هامة؟ وأوسم منك وسامة؟ وأقل منك ملامة؟ وأكثر منك ولدا؟".

ومن أساليب حكام العرب في خطبهم ووصاياهم أسلوب النداء، ومن أمثلته قول عامر بن الظرب^(٤): "يا معشر عدوان..." وقول أبي طالب^(٥): "يا معشر قريش"، وقول أكثم بن صيفي^(٦): "يا بني تميم"، وقول ذي الإصبع^(٧): "يا بني"، وقول نفيل بن عبد العزى^(٨): "يا أبا عمرو".

أما الصورة القائمة على الكناية فتكثر في كلامهم كثرة بينة، منها قول أكثم بن صيفي^(٩): "قبل الرماء تملأ الكنائن" كناية عن الاستعداد والتهيؤ قبل الإقدام على شيء. وقول عامر بن الظرب^(١٠): "دعوا الرأي يغيب حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير"، كناية عن التريث في الرأي والتثبت وعدم التسرع. وقول نفيل بن عبد العزى^(١١): "أطول قامة وأعظم هامة"، كناية عن المجد والشرف. كذلك قوله^(١٢): "وأطول مذوداً"، كناية عن الفصاحة والحصافة.

(١) المصادر السابقة، نفس الأجزاء والصفحات.

(٢) المصادر السابقة نفس الأجزاء والصفحات.

(٣) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٥/١.

(٤) القالي، الأمالي ١٥٧/٢.

(٥) الألويسي، بلوغ الأرب ٣٢٧/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٦١/١.

(٦) التوحيدي، البصائر والذخائر ١٥٤/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٤/١.

(٧) الأصفهاني، الأغاني ٩٥/٣. وديوان ذي الإصبع، ص ٧١.

(٨) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٥/١.

(٩) العسكري، جمهرة الأمثال ١٢٢/٢. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٤/١.

(١٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٥٥/١.

(١١) الطبري، تاريخ الطبري ٥٠٥/١.

(١٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

واستخدم الحكام الصورة القائمة على الاستعارة، فمن ذلك قول أبي طالب^(١): "الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم"، حيث شبه النسل بالزرع.

وكذلك قوله^(٢): "وإن محمد ابن أخي لا يوازن به فتى من قريش إلا رجحه"، فقد شبهه بشيء يوزن فيرجح.

ومن الاستعارة قول أكتثم بن صيفي في تعزيتة عمرو بن هند^(٣): "غد لا تدري من أهله وسيأتيك إن وجدك" فجعل الغد إنسانا يعقل ويفكر .

وكذلك قوله^(٤): "ادرعوا الليل واتخذوه جملاً"، إذ جعل الليل درعا يلبس تارة، وجملاً يركب تارة أخرى.

أما الصورة القائمة على التشبيه فقليلة في كلامهم، غير أنا لا نعدم وجود بعض الأمثلة: فمنها قول أكتثم بن صيفي^(٥): "المكثار كحاطب ليل".

وكذلك قوله^(٦): "الدال على الخير كفاعله".

وقوله^(٧): "من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء".

وقول هاشم بن عبد مناف^(٨): "أنتم كغصني شجرة".

وقول هرم بن قطبة^(٩): "أنتما كركبتي البعير".

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/٧٧.

(٢) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٣/٢٤٦.

(٤) العسكري، جمهرة الأمثال ١/٨٨. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١/١٣١.

(٥) العسكري، جمهرة الأمثال ١/٤٩٤.

(٦) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٧) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٨) الألويسي، بلوغ الأرب ١/٣٢٢.

(٩) الأصفهاني، الأغاني ١٦/٣١٥. والعسكري، جمهرة الأمثال ٢/٣٥٨. والميداني، مجمع الأمثال ٢/٤٦١.

والبغدادي، خزانة الأدب ١/١٨٤ و ٨/٢٦٠.

ونجد المجاز ماثلاً في كلام حكام العرب؛ فمن ذلك قول ذي الإصبع العدواني في وصيته لابنه^(١): "وأسرع النهضة في الصريخ"، فالنهضة مجاز علاقته الجزئية، حيث يطلق الجزء وهو مجرد النهوض ويريد الكل وهو تمام المساعدة والإنقاذ مادياً ومعنوياً. ومن المجاز أيضاً قول أكتثم بن صيفي^(٢): "ولا تضعوا رقاب الإبل في غير حقها"، فقد أطلق الرقاب وأراد الإبل من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، وهو مجاز علاقته الجزئية. ومنه أيضاً قول أبي طالب في وصيته لوجوه قريش^(٣): "وأيم الله كاني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته" فالمجاز في قوله (وصدقوا كلمته)، فقد أطلق (الكلمة) وأراد الدعوة أو الرسالة.

المحسنات البديعية والزخارف اللفظية:

لم تكن المحسنات اللفظية مألوفة في العصر الجاهلي بعامة، وإنما كان النمط السائد في الكلام يقوم على التلقائية والبداية والفصاحة، كمظهر من مظاهر الحياة البدوية البسيطة التي كان الجاهليون يحيونها، أما ما كان يرد في ثنايا كلامهم من محسنات هنا أو هناك، فلم تكن مقصودة وإنما كانت تأتي بصورة عفوية دون أن يتعمد لها المتحدث.

والناظر في كلام حكام العرب من خطب ووصايا وحكم وأمثال، يجد فيه ميلاً إلى العناية بالألفاظ وحسن اختيارها، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بمخاطبة ذوي الشأن كالملوك والزعماء، إذ نلمس نوعاً من التهيئة للكلام، كما أن ألفاظهم المتصلة بالحكم والأمثال لا بد أن تكون منتقاة بعناية وحرص لكي تحقق الغرض المرجو منها وتنتشر بين الناس؛ فيسهل حفظها وتداولها، والتمثل بها، فلكي يتحقق ذلك لا بد أن تكون مختصرة معبرة تؤدي المعنى بأقل كلفة، ومن هنا فإننا نلاحظ وجود المحسنات كالجناس والطباق والمقابلة والتقسيم، أما السجع فهو ظاهرة مميزة في كلامهم، وكثير لديهم إلى الحد الذي جعل الجاحظ يعده أسلوبهم المعتمد في التحكيم بين المتخاصمين والمتنافرين، فقال^(٤): "ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة، وهرم بن قطبة، والأقرع بن حابس، ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع، وكذلك ربيعة بن حذار".

(١) الأصفهاني، الأغاني ٩٥/٣. وديوان ذي الإصبع، ص ٧١.

(٢) الميداني، مجمع الأمثال ٢١٣/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٣/١.

(٣) الألوسي، بلوغ الأرب ٣٢٨/١. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٦١/١.

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين ٢٩٠/١.

إذا، فالسجع ظاهرة بارزة في كلام حكام العرب، والشواهد عليه أكثر من أن تحصى أو تحصر، فمن ذلك قول قس بن ساعدة في خطبته بعكاظ^(١): "... ليل داج، وسماء ذات أبراج، بchar تزخر، ونجوم تزهو، وضوء وظلام، وبرّ وآثام، ومطعم ومشرب، وملبس ومركب". فقد سجع جميع كلامه تقريباً، مثل: داج/أبراج، وتزخر/تزهو، وظلام/آثام، ومشرب/مركب.

ومن السجع أيضاً قول هند بنت الخس الإيادية (وقد سئلت: أي المال خير؟)، فقالت^(٢): "النخل، الراسخات في الوحل، المطاعم في المحل. قيل: وأي شيء؟ قالت: الضأن قرية لادباء بها، ننتجها رخالا، ونحلبها غللا، ونجز جفالا، ولا أرى مثلاً مالا". فانظر كيف سجعت في قولها: النخل/الوحل/المحل وفي قولها: رخالا/جفالا/مالا. ولو أردنا استقصاء شواهد السجع في كلام حكام العرب، فإننا قد نضطر لإيراد معظم ما وصل إلينا من آثارهم النثرية.

أما الجناس، فهو كالسجع من حيث كثرة استخدامه لدى الحكام، ويؤدي وجوده في النص إلى إضفاء نوع من الإيقاع الموسيقي عليه. ومن أمثله قول ضمرة^(٣): "أما العجز الظاهر، فالشباب القليل الحيلة، اللزوم للحيلة، الذي يحوم حولها، ويسمع قولها؛... الظاهر عيبتها، والمخوف غيبها". فقد جانس في قوله: الحيلة/الحيلة وحولها/قولها وعيبتها/غيبها. ومن الجناس قول عامر بن الظرب^(٤): "من يرَ يوماً يرَ به" فجانس بين ير/ير. وكذلك قول أكتف بن صيفي^(٥): "من سمّع سمّع به" فجانس بين سمّع/سمّع. وقول هند بنت الخس لمن استشارها في امرأة يتزوجها^(٦): "انظر رمكاء جسيمة، أو بيضاء وسيمة، في بيت جدّ، أو بيت حدّ" فجانست بين: جسيمة/وسيمة وجدّ/حدّ.

ويرد الطباق بوفرة - أيضاً - في كلام حكام العرب، فمنه قول قس بن ساعدة^(٧): "من عاش مات... ضوء وظلام، وبرّ وآثام... مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون... فطوبى

(١) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١. والأصفهاني، الأغاني ٢٣٧/١٥.

(٢) القالي، الأمالي ١٠٧/٣.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٢٦٦/١.

(٤) المصدر السابق، ٢٧٢/٢.

(٥) المصدر السابق، ٢٥٦/٢.

(٦) القالي، الأمالي ٢٥٦/٢.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١. والأصفهاني، الأغاني ٢٣٧/١٥.

لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه". فطابق بين: عاش/مات وضوء/ظلام وبرّ/أثم ويذهبون/يرجعون واتبعه/خالفه.

ومن الطباق أيضاً قول عبد المطلب في خطبته بين يدي سيف بن ذي يزن^(١):
"...وثبت أصله، وبسق فرعه... سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف... نحن وفد التهنة لا وفد المرزنة". فقد طابق بين: أصله/فرعه وسلف/خلف والتهنة/المرزنة.
وتكثر المطابقة في كلام أكثر من صيفي، فمنها قوله^(٢): "ويل لعالم أمر من جاهله... لا تغضبوا عند اليسير فربما جنى الكثير... رب عجله تهب ريثاً... جاز بالحسنة ولا تكافئ بالسينة... عي الصمت أحمد من عي المنطق... يتشابه الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق".

ومن المطابقات اللطيفة المطابقة بالحروف، وهي التي نجدها في قول عامر بن الظرب^(٣): "إنّ عليك كما أنّ لك". فطابق بين: عليك/لك.

واستخدم حكام العرب المقابلة، وهي استعمال كلمتين أو أكثر في معنى، ثم مقابلة ذلك بكلمتين أو أكثر في معنى مضاد^(٤). وهي شبيهة بالطباق، إلا أن الطباق يختص بالكلمة الواحدة وضدها، أما المقابلة فحدّها كلمتان فأكثر، كما أنها تعنى بالمعاني دون الألفاظ، ووظيفتها توضيح المعنى وتعميقه^(٥).

ومن أمثلة المقابلة في كلام حكام العرب قول قس بن ساعدة^(٦): "سقف مرفوع، ومهاد موضوع".

وكذلك في قوله^(٧): "إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً".
وفي قوله^(٨): "طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه".

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٦٢/١. والمسعودي، مروج الذهب ٩١/٢. والأصفهاني، الأغاني ٣١٣/١٧-٣١٤.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ٣٩٣/١-٣٩٥.

(٣) الميداني، مجمع الأمثال ٣٧٤/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٢٤/١.

(٤) انظر: محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، ص ٢٤٣.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين ٣٠٩/١. والأصفهاني، الأغاني، ٢٣٧/١٥.

(٧) المصدران السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.

(٨) المصدران السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.

ويحفل كلام أكنم بن صيفي بكثير من المقابلات، فمن ذلك قوله^(١): "فضل القول على الفعل دناءة، وفضل الفعل على القول مكرمة".
 وقوله^(٢): "فرط الانبساط مكسبة لقرناء السوء، وفرط الانبساط مكسبة للعداوة"
 وقوله^(٣): "من شدد نقر، ومن تراخى تألف".
 وقوله^(٤): "فباني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ، ولا يلزمه ذليل إلا عزّ".
 وقوله^(٥): "... والدنيا دول فما كان لك أتك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك".

ومن المحسنات التي نجد لها حضوراً في كلام الحكام التقسيم، وهو استقصاء الشاعر (أو المتحدث) جميع أقسام ما ابتدأ به^(٦). فمنه قول ضمرة بن ضمرة^(٧): "... وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه".
 ومنه كذلك قول أكنم بن صيفي^(٨): "... واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس: عظة وشاهد... واليوم: غنيمة وصديق... وغد: لا تدري من أهله".
 ومنه قول هند بنت الخس^(٩): "... شرّ النساء تركت: السويداء الممرض، والحميراء المحياض، الكثيرة المظاظ".

(١) الميداني، مجمع الأمثال ٩١/٢. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال ٤٥٢/١. والأندلسي، نشوة الطرب ٤٢٤/١.

(٣) العسكري، جمهرة الأمثال ٤٩٤/١.

(٤) الميداني، مجمع الأمثال ٤٣٣/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٦٠/١.

(٥) الميداني، مجمع الأمثال ٢١٣/٢. وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ١٣٤/١.

(٦) انظر: ابن رشيق، العمدة ٣٠/٢.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين ١٧١/١.

(٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد ٢٤٦/٣.

(٩) القالي، الأمالي ٢٥٦/٢.

خاتمة

لقد تبين لنا - من خلال تناولنا لظاهرة حكام العرب وأدبهم - جملة من الأمور نوردتها في النقاط التالية:

- لقد شاع (التحكيم) في حياة المجتمع الجاهلي، واتخذته الناس وسيلة لفض ما يقع بينهم من نزاع وخصومة، حتى غدا موضع إجماعهم واحترامهم، وغدت أحكام الحكام بمثابة دستور يضبط أمور الحياة الجاهلية.

- حظي الحكام بمكانة اجتماعية مرموقة؛ فكان من بينهم السادة والرؤساء والزعامة الذين نالوا من الاحترام والتوقير والمهابة ما يتناسب والمكانة التي وصلوا إليها.

- لقد تبين من خلال البحث أن العرب في الجاهلية كانوا على قدر كبير من الوعي والانضباط الاجتماعي والأخلاقي؛ فقد اهتموا بمكارم الأخلاق وحضوا على التحلي بها، ولهذا تميزت أحكامهم بمراعاة الجانب الأخلاقي، ومما يعزز هذا الرأي قول النبي (ﷺ): "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، الأمر الذي يعني بكل وضوح أن العرب كانوا على درجة متقدمة من مكارم الأخلاق، ولم يكونوا أمة من السفلى والرعاع كما صورهم بعض الباحثين.

- إن كثيراً من الأحكام التي أصدرها الحكام العرب جاءت متوافقة مع الشريعة الإسلامية لأنها تراعي الحق والمنطق والصواب والعقل؛ ولذا فقد أقر الإسلام كثيراً من أحكامهم ومنها: قطع يد السارق، والقسامة، وتحريم القمار، وخلع النعل عند دخول المسجد، وتوريث البنات بعدما كانت العرب تورث البنين دونهن، وإعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين في الميراث، وولد الزنا الذي قضوا بأنه للفراش، وميراث الخنثى، وكثير من شعائر الحج.

- اهتم الشعراء من حكام العرب بموضوعات الحرب والفخر والحكمة والوصايا، ولم يلتفتوا كثيراً إلى بعض الأغراض التي كانت شائعة في عصرهم كالهجاء والغزل، لأن هذه الأغراض تتنافى مع مكانتهم وسيادتهم، كما تتعارض مع (وظائفهم) كقضاة، ولهذا فقد ابتعدوا عن هذه الأغراض لما أدركوه من تسببها في إثارة النزاعات.

- تميز عدد كبير من الحكام في فنون الخطابة والوصايا والحكم والأمثال؛ ولذا فقد اهتمت الكتب التي تناولت هذه المواضيع بإيراد آثارهم النثرية والاستشهاد بها في المواضع المختلفة.

- لقد تبين أن الشعراء الحكام لم يلتزموا نهج القصيدة الجاهلية المألوف في مقدمات قصائدهم من حيث الابتداء بالوقوف على الأطلال ثم الانتقال إلى التغزل بالمرأة ووصف الرحلة والراحلة؛ فقد بدا أن السمة الغالبة على مقدمات قصائدهم هي طرق الغرض مباشرة دون أية مقدمة. أما في التخلص والخاتمة فإنهم ساروا على نهج نظرائهم ولم يتكبروا سبيلهم.

- امتازت لغة الحكام (في الشعر والنثر) بالسهولة والوضوح والفصاحة، ولم يستخدموا مفردات غريبة في كلامهم المنظوم والمنثور، كما امتازت أساليبهم بالعفوية والتلقائية والبعد عن التكلف والتصنع.

- نظم الحكام قصائدهم على البحور الشعرية الأكثر شيوعاً واستخداماً في الشعر العربي عموماً كالطويل والبسيط والكامل والوافر، وابتعدوا عن البحور المهجورة كالمضارع والمقتضب والمجتث.

- نوّع الشعراء الحكام في قوافيهم؛ فاستخدموا معظم حروف المعجم، وتبين اهتمامهم بالنظم على القوافي السهلة (الذلل) وابتعادهم عن النادرة (الحوش). كما تبين أن أكثر قوافيهم كانت من القوافي المطلقة، ولم يستخدموا المقيدة إلا فيما ندر.

المصادر والمراجع

أ- المصادر:

١. القرآن الكريم.
٢. الامدي، الحسين بن سعد (ت ٤٤٤هـ)، المؤلف والمختلف، تحقيق عبد الستار فراج، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦١م.
٣. ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق خليل شيحا، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٢م.
٤. الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥هـ)، كتاب القوافي، ط١، تحقيق عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٧٠م.
٥. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ)، كتاب الأغاني، دار الفكر، بيروت، د.ت.
٦. الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت ٣٣٦هـ)، دلائل النبوة، تحقيق مساعد الراشد، دار العاصمة، الرياض، ١٩٩٢م.
٧. ابن الأنباري، القاسم بن محمد (ت ٣٠٤ هـ)، شرح ديوان المفضليات، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط١، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٣م.
٨. الأندلسي؛ علي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥ هـ)، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن، ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢م.
٩. الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر (ت ٤٠٣ هـ)، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد الصقر، ط١، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١٠. البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت ٢٨٤ هـ)، ديوان الحماسة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م.
١١. البصري، علي بن أبي الفرج (ت ٦٥٦ هـ)، الحماسة البصرية، تحقيق عادل سليمان، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٩م.
١٢. البصري، أبو هقان الميزمي (ت ٢٥٧ هـ)، ديوان أبي طالب بن عبد المطلب، تحقيق محمد حسن ال ياسين، ط١، دار الهلال، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٣. البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت ١٠٩٣ هـ)، خزنة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٤. البلاذري، أحمد بن يحيى (٢٧٩هـ)، انساب الأشراف، تحقيق خليل عثمان، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، القدس، د.ت.
١٥. أبو تمام، حبيب أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ):
- ديوان الحماسة، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د.ت.
١٦. كتاب الوحشيات، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١٧. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
١٨. التوحيدي، أبو حيان (ت ٤١٤ هـ)، البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، ط١، دار صادر، بيروت، د.ت.
١٩. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هـ)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٢٠. الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ):
٢١. البرصان والعرجان، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٢. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت.
٢٣. الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.
٢٤. الجراح، محمد بن داود (ت ٢٩٦ هـ)، من اسمه عمرو من الشعراء، تحقيق عبد العزيز المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٢م.
٢٥. الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١ هـ):
٢٦. أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٩٧٧م.
٢٧. دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م.
٢٨. الجمحي، محمد بن سلام (ت ٢٣١ هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت.
٢٩. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥ هـ)، المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٣٠. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
٣١. ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ)، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨ م.
٣٢. الحلبي، هبة الله محمد بن حمدون (ت ٥٦٠ هـ)، المناقب المزيديّة، تحقيق محمد خريسات وزميله، ط١، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٠ م.
٣٣. الحموي، ابن حجة أبو بكر علي بن عبد الله (ت ٨٣٧ هـ)، خزانة الأدب وغاية الأرب، ط٢، دار الهلال، بيروت، ١٩٩١ م.
٣٤. الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
٣٥. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٦ م.
٣٦. ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ)، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.
٣٧. ابن رشيقي، أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني (ت ٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هندائي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠١ م.
٣٨. الزبيدي، محمد مرتضى (ت ٨١٦ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
٣٩. الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥ م.
٤٠. السدوسي، مؤرج بن عمر (ت ١٩٥ هـ)، كتاب الأمثال، تحقيق رمضان عبد التواب، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١ م.
٤١. السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٥٨١ هـ)، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٤٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)، المزهري في علوم اللغة وأدائها، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨ م.
٤٣. الضبي، المفضل بن محمد (ت ١٧٨ هـ):

٤٤. المفضليات، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٦، بيروت، د.ت.
٤٥. أمثال العرب، تحقيق إحسان عباس، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
٤٦. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، د.ت.
٤٧. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨ هـ)، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، ط٢، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٩م.
٤٨. ابن عساكر، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق روحية النحاس وزميلها، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
٤٩. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت بعد ٣٩٥ هـ):
٥٠. جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وزميله، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.
٥١. ديوان المعاني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
٥٢. أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٩ هـ)، ديوان النقائض، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
٥٣. الفخر الرازي، محمد بن ضياء الدين (ت ٦٠٤ هـ)، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
٥٤. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، القاموس المحيط، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
٥٥. القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ)، الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
٥٦. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ):
٥٧. الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قمحة، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
٥٨. عيون الأخبار، تحقيق محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
٥٩. المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
٦٠. قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ)، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.

٦١. القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب (ت ١٧٠هـ)، جمهرة أشعار العرب، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
٦٢. القرطاجي، حازم بن محمد (ت ٦٨٤هـ)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، تونس، ١٩٦٦م.
٦٣. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩م.
٦٤. ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
٦٥. الماوردي، علي بن محمد (ت ٥٤٠هـ):
٦٦. أعلام النبوة، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٤م.
٦٧. الأمثال والحكم، تحقيق فؤاد عبد المنعم، ط١، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت.
٦٨. المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ)، الكامل في اللغة والأدب، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
٦٩. المرتضى، علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ)، أمالي المرتضى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.
٧٠. المرزباني، محمد بن عمران (ت ٣٨٤هـ):
٧١. معجم الشعراء، تحقيق ف. كرنكو، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
٧٢. الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
٧٣. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ):
٧٤. الأزمنة والأمكنة، تحقيق محمد نايف الدليمي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ٢٠٠٢م.
٧٥. شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.
٧٦. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥م.
٧٧. الميداني، أحمد بن محمد (ت ٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.

٧٨. ابن ميمون، محمد بن المبارك (ت بعد ٥٨٩هـ)، منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م.
٧٩. ابن النديم، محمد بن اسحق (ت ٤٣٨هـ)، الفهرست، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م.
٨٠. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
٨١. ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميليه، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
٨٢. اليعقوبي، أحمد بن إسحق (ت بعد ٢٩٢هـ)، تاريخ اليعقوبي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

ب- المراجع:

٨٣. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر العربي، ط٦، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.
٨٤. إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلي: قضاياها الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت.
٨٥. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان، ١٩٨٦م.
٨٦. أحمد الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، د.ت.
٨٧. أحمد الربيعي، قس بن ساعدة الإيادي، ط١، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٤م.
٨٨. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
٨٩. أحمد الشايب، الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥م.
٩٠. أحمد المراغي، علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، ط٢، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.
٩١. أشرف دعدور، الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٩٤م.
٩٢. بشرى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

٩٣. تامر سلوم، في التشكيل الموسيقي للشعر العربي، منشورات جامعة تشرين، سوريا، ١٩٩٧م.
٩٤. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، جامعة بغداد، ١٩٩٣م.
٩٥. جيروم ستولنيتز، النقد الفني، ترجمة فؤاد زكريا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
٩٦. حجر عاصي، ديوان زهير بن أبي سلمى، ط٢، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
٩٧. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، ط٢، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٧م.
٩٨. خليل حاوي، موسوعة الشعر العربي، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٧٤م.
٩٩. خليل إبراهيم عطية، التركيب اللغوي لشعر السياب، دار الحرية، بغداد، ١٩٦٨م.
١٠٠. خير الدين الزركلي، الأعلام، ط١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م.
١٠١. رجاء عيد، التجديد الموسيقي في الشعر العربي: دراسة تأصيلية تطبيقية، منشأة المعارف الإسكندرية، د.ت.
١٠٢. رودلف زلهائم، الأمثال العربية القديمة، ترجمة وتحقيق رمضان عبد التواب، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.
١٠٣. سلامة السويدي، شعر قبيلة ذبيان في الجاهلية، ط١، جامعة قطر، ١٩٨٧م.
١٠٤. سهام الفريح، الوصايا في الأدب العربي القديم، ط١، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨م.
١٠٥. سيد قطب، النقد الأدبي: أصوله ومناهجه، ط٥، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م.
١٠٦. سيف الدين الكاتب، ديوان أمية بن أبي الصلت، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
١٠٧. شفيع السيد، الاتجاه الأسلوبية في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.
١٠٨. شوقي ضيف، - العصر الجاهلي، ط٨، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١٠٩. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط١٠، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١١٠. الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٥، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١١١. في النقد الأدبي، ط٥، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١١٢. طه حسين، حديث الأربعاء، ط١٢، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١١٣. عبد الإله الصائغ، الصورة الفنية معياراً نقدياً، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

١١٤. عبد الحميد المعيني، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، ط١، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م.
١١٥. عبد العزيز عتيق:- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٤، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
١١٦. علم العروض والقافية، دار النهضة العربي، بيروت، د.ت.
١١٧. علم المعاني، البيان البديع، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
١١٨. عبد الفتاح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.
١١٩. عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط١، بيروت، ١٩٧٨م.
١٢٠. عبد الكريم محمد حسين، الأمثال عند العرب: طبيعتها ومناهج دراستها، ط١، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ١٩٩٨م.
١٢١. عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م.
١٢٢. عبد الوهاب العدوانى، ديوان ذي الإصبع العدوانى، مطبعة الجمهور، الموصل، ١٩٧٣.
١٢٣. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط٤، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧م.
١٢٤. عزيزة فوال بابتي، معجم الشعراء الجاهليين، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
١٢٥. عفيف عبد الرحمن:- الأدب الجاهلي في آثار الدارسين قديماً وحديثاً، ط١، دار الفكر، عمان، ١٩٨٧م.
١٢٦. ديوان شعر الأيام، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
١٢٧. الشعر وأيام العرب، ط١، دار الأندلس، بيروت.
١٢٨. معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٩٦م.
١٢٩. علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، ط١، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
١٣٠. علي العتوم، قضايا الشعر الجاهلي، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ١٩٨٢م.
١٣١. على يونس، نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

١٣٢. عمر الأسعد، معالم العروض والقافية، ط١، الوكالة العربية للتوزيع والنشر، عمان، ١٩٨٤م.
١٣٣. عمر الطباع: - ديوان الأعشى، دار القلم، بيروت، د.ت.
١٣٤. ديوان امرئ القيس، دار الأرقم، بيروت، د.ت.
١٣٥. غازي طليعات، عروض الشعر العربي من المعلقات إلى شعر التفعيلة، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٤م.
١٣٦. فتح الله سليمان، الأسلوبية: مدخل نظري ودراسة تطبيقية، ط١، الدار الفنية للنشر والتوزيع، د.ت.
١٣٧. كامل البصير، بناء الصورة الفنية في البيان العربي: موازنة وتطبيق، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٧م.
١٣٨. لويس شيخو، شعراء النصرانية قبل الإسلام، ط٤، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤م.
١٣٩. محمد أبو الأنوار، الشعر الجاهلي: مادته الفكرية وطبيعته الفنية، ط١، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٦.
١٤٠. محمد أبو زهرة، الخطابة: أصولها، تاريخها، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
١٤١. محمد توفيق أبو علي، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٨م.
١٤٢. محمد جاد المولى وزميله، أيام العرب في الجاهلية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
١٤٣. محمد عامر أحمد، محاضرات في موسيقى الشعر العربي، ط٢، ١٩٩٢م.
١٤٤. محمد علي السائس، تفسير آيات الأحكام، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
١٤٥. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.
١٤٦. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ١٩٨٧م.
١٤٧. محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.

١٤٨. محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
١٤٩. محمود فاخوري، موسيقى الشعر العربي، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٧م.
١٥٠. محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٣م.
١٥١. مخيم صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٦م.
١٥٢. مدحت الجيار، موسيقى الشعر العربي: قضايا ومشكلات، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥م.
١٥٣. ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨م.
١٥٤. نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الفنية، ط١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢م.
١٥٥. نوري حمودي القيسي، شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري، ط١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
١٥٦. هاشم مناع، النثر في العصر الجاهلي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣م.
١٥٧. الولي محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
١٥٨. ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
١٥٩. يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
١٦٠. يوسف بكار، بناء القصيدة العربية، ط١، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م.
١٦١. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

ثالثاً: الدوريات:

١٦٢. بدر ضيف، شعر غيلان بن سلمة الثقفي، مجلة المورد، مجلد ٢٥، العدد ١، ١٩٩٧م.
١٦٣. عبد القادر عبد الجليل، شعر بشامة بن الغدير، مجلة المورد، مجلد ٦، العدد ١٩٧٧، ١م.
١٦٤. مهدي عبيد جاسم، شعر الحصين بن الحمام، مجلة المورد، مجلد ١٧، العدد ٣، ١٩٨٨م.
١٦٥. هاشم طه شلاش، ضمرة بن ضمرة النهشلي: أخباره وما بقي من شعره، مجلة المورد، مجلد ١٠، العدد ٢، ١٩٨١م.

رابعاً: الرسائل الجامعية:

١٦٦. أحمد خضير الجبوري، شعر قريش في الجاهلية، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة اليرموك، ١٩٩٥م.
١٦٧. سعد فهد الذويخ، شعر الحارث بن خالد المخزومي: دراسة أدبية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة آل البيت، ١٩٩٩م.
١٦٨. عزمي عيسى أبو لبدة، شعر النعمان بن بشير الأنصاري، دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة آل البيت، ٢٠٠٠م.
١٦٩. محمد موسى العبسي، حركة الشعر في قبيلة قيس بن ثعلبة - من بني بكر بن وائل - في العصر الجاهلي، رسالة دكتوراة (غير منشورة)، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.
١٧٠. محمود أحمد الحلولي، بناء القصيدة لدى شعراء الحجاز في العصر الأموي، رسالة دكتوراة (غير منشورة)، الجامعة الأردنية، ١٩٩٥م.

Abstract

This study talks about the Arab Arbitrators literature in Al-jahiliyah era. Arab Arbitrators are a group of people who were characterized by distinctive traits such as intelligence, patience wide knowledge and the encompassment of Arabs' affairs, history, times days and kinship. Consequently, people used to refer to them in solving their disputes .Every tribe had its own arbitrator who was entitled to take a decision in its disputes simply because there was not any judicial system to do that and because of the nature of Al-jahiliyah era which was depending on travelling from one place to another searching for water and grass land.

In addition to what the Arab arbitrators were distinguished with of intelligence, nobleness, generosity and leadership, some of them were poets and philosophers whom the history and literature books had the honor of having their literary works in their folds and this what the study intends to discuss through getting acquaintance with the Arab arbitrators then studying their poetry and prose objectively and technically .

The study consists of three chapters. The first chapter deals with the definition of arbitration concept lexically and conventionally. Then showing the importance of Arab arbitrators standing in Al -jahiliyah era. The study has showed that those arbitrators were occupying high dignity in the society. Among of them were lords, leaders, army leaders and delegation heads to the kings. The chapter also talks about the Arab arbitrators' literary standing and shows that some of them were distinguished poets who have left behind important poetic works.

Moreover, among the Arab arbitrators were orators and fluent speakers who effectively contributed to Al-jahiliyah literary era and formed an important literary source in that era.

Then the chapter ends with introducing the most important Arab arbitrators and their biographies briefly to shed light in some of their life aspects.

The second chapter is concerned with studying the arbitrators' literature; the poetic topics in which they took interest. It has appeared that war poetry, battle and fighting description, war equipment and victory pride took them much interest. They were also concerned with pride poetry; They boasted of their heroism and their noble manners as generosity, bravery and helping others. They also took interest in wisdom and advice poetry which were expressing their experience in life and their prospect towards the universe and its various phenomena. The study research also showed that some of the poetic topics which were spread in that era such as satire, love and praise poetry were only for a few purposes in their poetry, but the prose topics were variant and it comprised speeches; congratulation, comfort, pride and fighting inducement speeches. It also comprised the arbitrators' advice to their sons and tribes when feeling that they are about to die. They took interest in proverbs and wisdoms which expressed their deep experience and philosophy. Where most of the literary books have in their folds.

The third chapter is concerned with the technical study of the arbitrators' literature. It talked about poetry first and the poem structure concerning the introduction, subject and the conclusion, in addition to the technical scene and its types in their poetry. Then the study discussed